

مجلة شهرية . العدد الخامس والستون . السنة السادسة . يونيه ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 65 - June 2004

تأجيل الإصلاح دعوة للمجهول ! / أحمد كمال أبو المجد

نون : الوجه الآخر للإرهاب / سلامة أحمد سلامة

مصر والإسلاميون الجدد / مازن النجار

لماذا قامت الحرب ؟! / هانز بليكس

الخيبة !! / توماس باورز


أكثر من
٢٠٠٠ مصري
بيخدموك من القلب

السنة السادسة
العدد الخامس والستون
يونية ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم



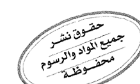
الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى




رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد كمال أبو المجد.. أستاذ القانون بجامعة القاهرة ونائب رئيس المجلس القومى لحقوق الإنسان.
- إيلان بابيه .. أستاذ التاريخ بجامعة حيفا.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- توماس باورز.. كاتب أمريكى.
- جاكلين روز.. أستاذة الأدب الإنجليزى بجامعة لندن.
- جوزيف جيليوتى.. باحث فى المنتدى الاستراتيجى القومى بشيكاغو.
- رنا حايك .. صحفية.
- سامية حبيب.. باحثة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عُبادة كُحيلة.. أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة
- عبد الرءوف الريدى.. سفير مصر الأسبق فى واشنطن.
- عبد العظيم أنيس.. أستاذ الإحصاء الرياضى المتفرغ بجامعة عين شمس
- فاروق شوشة.. شاعر وإذاعى.
- فكرى أندراوس .. كاتب مصرى مقيم بالولايات المتحدة.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
- محمد السماك.. كاتب لبنانى.
- محمد فؤاد الذاكرى.. باحث فى التراث العلمى. من سوريا.
- محمود المراغى.. صحفى.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى. نبيل تاج. سعد الدين شحاتة. أحمد اللباد





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا. ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

"نون"

أبو غريب.. الوجه الآخر للإرهاب

لماذا تخضع الشعوب للطغيان والخداع بصوره وأشكاله المختلفة، دولاً وأفراداً، ديمقراطيات وديكتاتوريات، شمالاً وجنوباً، شعوباً متحضرة نالت حظها من الديمقراطية والحرية وأخرى متخلفة مازالت تتخبط فى ظلمات الفقر والتخلف؟ وكيف يمكن أن تتهاوى قيم الحضارة والتقدم على نحو ذريع وبالسرعة الجارفة التى تهاوت بها سمعة ومكانة أقوى دولة فى العصر الحديث خلال أسابيع بل خلال أيام، فوجدت نفسها فوق فوهة بركان تناثرت حممه فى أرجاء العالم، يلعنها أعداؤها، ويتبرأ منها أصدقاؤها وحلفاؤها، ويجلل الخزى والعار أبناءها؟

فى واحد من أعمق النصوص التى حفظتها الأدبيات السياسية من القرن السادس عشر، وهو القرن الذى ولد فيه أتين دى لابويسيه. صاحب هذا النص الذى ترجمه وقدم له بالعربية الدكتور مصطفى صفوان. إذ شهدت فيه أوروبا طفرة نقلتها من العدم إلى الوجود، ومن ظلمة العصر الوسيط إلى النور، ومهدت للثورة الصناعية واتساع التبادل التجارى والحضارى والثقافى، وظهرت النظريات السياسية فى الحكم والحقوق المدنية ومبادئ العدالة والحرية والمساواة، يتحدث لابويسيه فى مقاله «العبودية المختارة» عن ظاهرة الطغيان فى حياة الشعوب. وكيف يمكن أن نرى الملايين من البشر يحتملون أحياناً طاغية فرداً واحداً أو طغيان أقلية أو طغيان دولة بعينها. وكيف تتحول السيادة المبنية على استغلال الإنسان للإنسان إلى تكريس لطغيان نظام أو دولة.. وهو ما نراه يحدث الآن فى طغيان قوة عظمى هى الولايات المتحدة الأمريكية على جميع الأصعدة، عسكرياً واقتصادياً وسياسياً وإعلامياً وثقافياً وتكنولوجياً!

يقدم لابويسيه تفسيراً لذلك يقول فيه: إن ضعفنا نحن البشر كثيراً ما يفرض علينا طاعة القوة. ونحن محتاجون إلى وضع الرجاء فى الإرجاء مادمنا لا نملك دائماً ألا نكون الأقوى.

الشعوب فى رأى لابويسيه. هى التى تترك القيود تكبلها. أو قل إنها تكبل نفسها بنفسها مادام خلاصها مرهوناً بالكف عن خدمة سيدها، طاغية كان أو دولة أو نظاماً. الناس مفطورون على حب الحرية. ولكن الاستعباد متى دخل وخضع له جيل من الأجيال، استسلمت له الأجيال التالية استسلامها لوضع طبيعى، يصبح عندها عادة ثانية لا ترى فيه غرابة مادامت قد ولدت فى ظله ولم تخبر وضعاً غيره. (انظر حال الأمة العربية).

هل يقدم هذا تفسيراً لما نراه الآن من انصراف الأجيال الجديدة فى المجتمعات العربية عن العمل السياسى، وعزوفها عن تحمل المسئولية والمشاركة فى العمل العام، وشيوع حالة من اليأس بين النخب المثقفة والطبقة المتوسطة، التى حملت فى مرحلة سابقة راية التنوير والتحديث وناضلت من أجل الحرية والاستقلال؟

بل هل يقدم تفسيراً لما تشكو منه مجتمعات غربية. أوروبية وأمريكية. من شيوع حالة من الاسترخاء السياسى وعدم المشاركة فى العملية السياسية إلا بنسب متدنية تكشف عنها معدلات التصويت فى الانتخابات العامة، بفضل ما خبرته من رخاء اقتصادى وحقوق اجتماعية أزالت كثيراً من الفوارق بين الطبقات، وحولت الصراع الاجتماعى إلى منافسة اقتصادية فى ظل رأسمالية متوحشة، واحتكارات استثمارية عملاقة عابرة للقارات؟

إن ظاهرة الطغيان فى القرون الوسطى وما تلاها فى عصر الثورة الصناعية، كانت أكثر ارتباطاً بالحاكم الفرد أو الأمير أو الديكتاتور (نابليون، بسمارك، هتلر، موسولينى، ستالين، فرانكو وفى العالم الثالث لا عدد ولا حصر لهم)، ولكنها فى عصر الثورة التكنولوجية والتفوق الاقتصادى والعسكرى باتت أشد ارتباطاً بالدولة وبالنخب الحاكمة فيها وبالقوى السياسية المؤثرة بحكم الثروة ومستوى التعليم وغيرها من العناصر، وهو من نتائج التطور الخطير الذى أفرزته الحرب العالمية الثانية، وما أعقبها من نهاية الحرب الباردة، وانهيار موازين القوى بين المعسكر الشرقى الشيوعى بزعامة روسيا، والمعسكر الغربى الرأسمالى بزعامة أمريكا، وتحولت أمريكا فى غضون ذلك إلى عملاق عسكرى واقتصادى وتكنولوجى.. تساوره طموحات هائلة فى فرض «الباكس أميريكانا» Pax Americana، النظام العالمى الجديد الذى يتفق مع الرؤى الأمريكية وأهدافها ومصالحها وتصورها للعالم.

لم تظهر تجليات هذا النزوع الأمريكى إلى استخدام القوة فى فرض إرادتها السياسية والعسكرية على العالم، إلا فى عهد إدارة الرئيس بوش. وهو ما دعا كثيراً من المحللين الغربيين إلى التساؤل الآن. وفى ضوء الانهيار الأخلاقى والقانونى المفاجئ فى نظام ظل يعتمد بقيمه ومبادئه فى الحرية والعدالة بعد فضائح جرائم التعذيب فى العراق، وتورط قيادات سياسية وعسكرية فى جرائمها. عما إذا كانت القيم والمبادئ التى تبنتها إدارة بوش فيما يسمى بحربها ضد الإرهاب، هى التى أسهمت فى تشكيل الحالة العقلية والنفسية للمؤسسة العسكرية الراهنة؟ الإجابات التى يجمع عليها معظم المحللين هى أن إدارة الرئيس بوش التى ولدت من رحم قوى يمينية دينية صهيونية محافظة، لها جذور ضاربة فى الحرب الأهلية الأمريكية، هى أن هذه الإدارة لم تخف منذ البداية احتقارها للنظام الدولى القائم، وللدور الدولى الذى تلعبه الأمم المتحدة، واستهانتها الشديدة بالقانون الدولى ومعاهداته ومواثيقه، فاعتبرتها قيوداً على السيادة الأمريكية. وفى كل الأحوال عائقاً يقف فى وجه المصالح الأمريكية والدفاع عنها.. حتى قبل وقوع أحداث سبتمبر ٢٠٠١.



ومن هنا لم تتورع فى حرب أفغانستان عن شحن أسرى الحرب من طالبان والقاعدة إلى جوانتنامو.. عدة مئات أو ألوف لا أحد يدرى، وضعوا فى معازل حيوانية، دون تحقيق، ضاربة عرض الحائط باتفاقيات جنيف، واختلقت لهم مصطلحاً غير معروف هو «المقاتلون الأعداء» الذين لا تطبق عليهم قوانين أسرى الحرب، ولا أوليات العدالة الأمريكية.

وقد شجع واشنطن على المضى فى هذا الاتجاه، ما لمسته من تقاعس عالمى واستخذاء، يفسره قول لابويسيه: بأن الضعف.. ضعف النظام الدولى أو ضعف الشعوب هو الذى يفرض طاعة القوة.. حيث تراجع الإعلام الأمريكى عن القيام بدوره، والتزمت معظم الدول الأوروبية الحليفة فيما يعرف بالعالم الديمقراطى الحر، الصمت والدهشة. بل وحين سعت أمريكا إلى استصدار قرار من مجلس الأمن. يتجدد عاماً بعد عام. يعفى قواتها العسكرية المشاركة فى مهام باسم حفظ السلام، من أى التزام بالاتفاقيات الدولية، ومن المحاكمة بسبب جرائم الحرب، لم يتردد المجلس فى منحها هذا الاستثناء الغريب الذى لم تنله قوات أى دولة أخرى تشارك فى عمليات عسكرية لحفظ السلام.

ولم يقف الأمر عند حد التواطؤ الدولى، وانتشار حالة من الخوف والجبن اجتاحت الدول الأوروبية الحليفة، بعد أن هددت واشنطن باتخاذ إجراءات انتقامية سياسية واقتصادية ضد أقرب حلفائها. فرنسا وألمانيا. اللتين اتهمتا بأنهما تمثلان أوروبا القديمة، وتعجزان عن مواكبة روح العصر والنظام العالمى الجديد الذى تقوده واشنطن، بل إن نزعات التطرف والاستعلاء بالقوة التى ميزت سلوك المحافظين الجدد فى إدارة بوش، أخذت تتصاعد إلى شكل من أشكال إرهاب القوة العظمى فى المحافل الدولية على لسان رامسفيلد وولفوفيتز وبيرل وغيرهم، تروج لمقولة أن التاريخ يصنعه الأقوياء، وأن من حق الصفوة الحاكمة أن تقود شعوبها إلى ما فيه مصلحتها حتى ولو كان بأساليب الخداع والتضليل! وهو ما يعتبر نوعاً من طغيان الأقلية.

وتحقق ذلك فعلاً باستخدام أكثر أساليب الخداع والتضليل الإعلامى وحملات الأكاذيب الملفقة، واستخدام شبكات التليفزيون التى تسيطر على إنتاج وتطوير تكنولوجيا المعلومات فى العالم، للوصول إلى أهداف ملفوفة غامضة فى ثوب أيديولوجيا دينية متعصبة يصعب سبر أغوارها، وتخدم رؤى التحالف الصهيونى المسيحى، والمركب الصناعى العسكرى فى أوساط شعب أمريكى يتسم بالسذاجة وحسن النية، بسبب انعزاله فى حدود قارة عامرة بالرخاء والثراء والاكتفاء الذاتى.

ولعل هذا ما حدا بإدارة بوش إلى

سلامة أحمد سلامة

الاندفاع فى الدعوة إلى ضرورة «تغيير النظم» التى لا ترضى عنها بالقوة. وتقسيم العالم إلى دول طيبة وأخرى شريرة (نفس التقسيم الذى تستخدمه القاعدة وإن بألفاظ أخرى). وإلى دمغ بعضها بأنها جزء من محور الشر لأنها تمتلك أسلحة دمار شامل تهدد المصالح الأمريكية. ومن ثم فلابد من القضاء عليها. وكانت تلك هى المقدمات التى استخدمت فى الحرب ضد العراق، وفى تزوير الأدلة والبراهين على وجود أسلحة دمار شامل يخفيها النظام العراقى، وفى الضغط على فرق التفتيش الدولية التابعة للأمم المتحدة ولوكالة الطاقة الذرية لتزييف الحقائق خدمة لأهدافها.. إنها نفس العقلية الإرهابية التى لا تختلف عن إرهاب بن لادن والظواهرى.



وفى إطار هذه الحملة المدبرة، التى بدأت بالأكاذيب وكان لابد أن تنتهى بالأكاذيب والتلفيقات والانتهاكات التى تكشفت فظائعها فى دهاليز سجن أبو غريب، كان من الضرورى أن تختلف لغة الخطاب الأمريكى إلى العالم.. فهناك شعوب وأمم.. هى بحكم ثقافتها وتراثها الدينى المتخلف.. لا تعرف معنى الديمقراطية والحرية وهى شعوب والغة فى بحار التطرف والدماء والتعصب، لن تجدى معها غير القوة وإزاحة أنظمتها السياسية من الحكم. وهى أدنى شأنًا وأحرى أن تعامل معاملة الشعوب المريضة التى لن ينصلح حالها إلا بالتدخل الخارجى.. لتقويم نظم الحكم فيها، وتعليمها، والنهوض باقتصادياتها، وتمكين المرأة وتحريرها.. وهو ما انعكس بجلاء فى كتابات المفكرين الأمريكيين الذين وصموا ثقافة هذه الشعوب بأنها «ثقافة إرهابية» يمكن أن تستبعد خارج التاريخ وتجتث من جذورها. وظهرت لهذا السبب مشروعات «الشرق الأوسط الكبير» ودعاوى الإصلاح المفروض من الخارج.

ولابد هنا من الإشارة إلى ما صاحب هذا التطور من صعود نفوذ «المركب العسكرى الصناعى» الأمريكى الرأسمالى على السياسات الأمريكية، وسيطرته شبه الكاملة على صناعات الطاقة والبترول والصناعات الاستراتيجية الكبرى مثل الفضاء وحرب الكواكب.. وقد أصبح هذا المُركّب بأمواله وتبرعاته ورجاله فى دوائر الحزبين الرئيسيين، ودوائر صنع القرار وجماعات النفوذ والمصالح اليهودية وغير اليهودية، من أقوى العوامل الحاسمة فى تحديد نتائج الانتخابات الرياسية والتشريعية الأمريكية.

ومن ثم كانت تلك الفكرة الجهنمية التى انكشفت عندما سقطت الأستار عن فضائح التعذيب فى السجون الأمريكية فى العراق وغيرها. وهى تشغيل «مقاولين مدنيين» فى أنشطة مخابراتية وفى عمليات التعذيب والمهمات الخاصة. وهؤلاء فى الأغلب ممن خدموا الجيش الأمريكى والمخابرات ولا يخضعون فى الوقت نفسه لأى نظم أو لوائح تلزمهم بقواعد «الاشتباك العسكرى» وتستدعى مساءلتهم فى حالة ارتكاب انتهاكات وجرائم. فهم الأداة المثلى لعقلية تؤمن بالجريمة المنظمة.. وفى التقرير المسهب الذى نشره سيمور هيرش فى مجلة «نيويوركر» عن البرنامج السرى الذى وضعه رامسفيلد، إثر بدء الهجوم على أفغانستان، وتحلل فيه من القيود القانونية والأذونات العملياتية بغية تمكين قوات خاصة من عبور حدود أى دولة عند الضرورة، واستجواب المعتقلين فى محتجزات خاصة، وإعطاء السيطرة كاملة للمخابرات الأمريكية على السجون والمعتقلين بشكل يسهل عملية استجوابهم.. ما يقطع بأن شكلاً من أشكال الانحراف الإجرامى والعقلية السادية والنزوع السرى إلى ممارسات إرهابية مدانة قد تلبس القيادات العسكرية والسياسة الأمريكية، واستقر أسلوبًا معمولاً به فى حرب العراق. وكانت «الصدمة والرعب» عند انكشافه تعادل «الصدمة والرعب» التى انطلقت فى أعقاب تفجيرات سبتمبر ٢٠٠١. وأصبحنا وأصبح العالم أمام «إرهاب أكبر» تمارسه دولة عظمى أمام «إرهاب أصغر» ابتدعته شراذم مضللة من تنظيمات أصولية محدودة العدد والعتاد، أنشأتها ودربتها أجهزة المخابرات الأمريكية بيديها!

التساؤل عن موقف العالم العربى من هذه التحولات المأساوية الكبرى، من الإرهاب الأصولى إلى الإرهاب الأمريكى الذى يعيث فى الشرق الأوسط فسادًا وتدميرًا، لا جدوى منه ولا غناء فيه.. فالدول العربية مازالت مجبولة على ردود الفعل، وليس من المتوقع أن تسفر القمة عن توجهات جديدة.

ولكن يا ترى كيف يمكن أن ينتهى هذا الانحراف الخطير فى سلوك أكبر قوة فى العالم؟ وإلى أى حد سوف تتزايد موجات العنف والفوضى والعدوان، الذى تتسع دوائره فى الشرق الأوسط والمنطقة العربية، على نحو يعرض العالم كله للخطر؟

إن تململ الشعوب والحكومات الأوروبية فى مواجهة السياسات الأمريكية الانفرادية، ومعارضتها المتزايدة على مستوى الأحزاب والقوى السياسية، قد لا يكفى بحد ذاته لحمل الولايات المتحدة الأمريكية على انتهاج سياسات جديدة تتدارك بها أخطاءها، وتوقف حالة الضياع والانهيار الأخلاقى الذى هز ضمير الشعب الأمريكى وضمير العالم؛ مما حدا بواحد من أكثر المعلقين الأمريكيين الذين أيدوا وساندوا مشاريع الحرب التى قادتها إدارة بوش فى أفغانستان والعراق، توماس فريدمان، إلى التساؤل بجدية عما إذا كانت هناك أدنى فرصة للنجاح فى تغيير النظام فى العراق بدون تغيير النظام الأمريكى ذاته؟



والإجابة على ذلك تأتى فى احتمالين:

الأول: أن تعترف أمريكا بأخطائها، ويتخلص بوش من أعوانه الذين روجوا لهذه السياسات ومارسوها بكل غطرسة وسرية، من أجل استرداد بعض مكانتها الضائعة. وهو ما قد يقتضى التخلص من رامسفيلد ومساعديه فى البنتاجون من الصقور والمدافعين عن المصالح الإسرائيلية فى الإدارة، ومحاكمة بعض كبار المسئولين فى المؤسسة العسكرية الأمريكية.. والتراجع عن المخططات الأمريكية فى العراق وتمكين الأمم المتحدة من تحمل المسئولية فى نقل السلطة إلى العراقيين وانسحاب القوات الأمريكية، وتشكيل قوة دولية تتولى الإشراف على الأمن خلال فترة انتقالية.

وهو احتمال لن يحدث.. لأن معناه أن يقدم بوش على ما يشبه الانتحار السياسى ويفقد أى فرصة لإعادة انتخابه. وأغلب الظن أن تواصل الإدارة الأمريكية سياسة الهروب إلى الأمام، بتقديم موعد الانسحاب ونقل السلطة أو الدخول فى مواجهات عنيفة مع الشعب العراقى والمقاومة الشيعية.

الثانى: أن تستمر فترة التخبط والاضطراب والفوضى فى العراق، وهو ما سوف يؤدى إلى سقوط بوش فى الانتخابات الرياسية القادمة. وفى كلا الاحتمالين، فإن أوضاع المنطقة تنذر بأسوأ العواقب، ليس فقط بالنسبة للأوضاع الخارجية للدول العربية، ولكن أيضًا على أوضاعها الداخلية.

وكما بدأت السحب تتكاثف فى أفق إدارة الرئيس بوش، فلاشك أن حليفه الرئيسى وتابعه المخلص تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا أصبح يواجه عاصفة شديدة وضعته فى مهب الريح، وأصبح الحديث عن البديل له فى قيادة حزب العمال حديثًا مفتوحًا جهير الصوت فى دوائر الحزب وخارجه.

ربما يكون هذا التطور هو أفضل ما يمكن أن يحدث على المدى الطويل لو لفظت انتخابات الرياسة القادمة بوش وإدارته فى قمامة التاريخ. ولكن على المدى القصير فإن المحك يكمن فى قدرة الشعب العراقى على استمرار المقاومة، وفى مدى ما تستشعره الشعوب. فى أمريكا وبريطانيا بالذات. من أنها وقعت ضحية خداع منهجى منظم من جانب الحكومات التى اختارتها وأسلمت لها قيادها. وهذا هو الفرق فى النهاية بين شعوب نشأت فى أحضان الديمقراطية وقد تتعرض لفترات اختراق وتضليل يذهب قدرتها على الحكم السليم، ولكنها لا تفقد قدرتها على مقاومة الطغيان واستعادة زمام المبادرة، وتمتلك الآلية الديمقراطية فى إحداث التغيير عن طريق صناديق الاقتراع، وبين شعوب أخرى لم تزل تؤمن بأن طاعة الحاكم وأولى الأمر من طاعة الله، ولا تملك غير الطاعة والرجاء والدعاء والاستسلام!

الإرهـــاب فـى

محمـــد الســـماك



العنف يكون جريمة عندما يتعمّد إلحاق الأذى بالضحية بصورة مباشرة، أى عندما تكون الضحية هى الهدف أولا وأخيراً، أما الإرهاب فيستخدم العنف أداة ليس لإلحاق الأذى بالضحية

■■ على الرغم من أن ظاهرة الإرهاب ترافق حياة الإنسان منذ نشأته الأولى (قابيل وهابيل) فإنها لم تتبلور كعامل من العوامل المؤثرة فى صناعة القرار السياسى إلا فى عام ١٧٩٣ عندما وظفها بعض فلاسفة الثورة الفرنسية أمثال روبسبير وسان جيست وكوثون وغيرهم على نطاق واسع. فقد عُرفت الفترة من مارس ١٧٩٣ حتى يوليو ١٧٩٤ بعهد الإرهاب أو عهد الرهبة، وتمّ خلالها قطع رؤوس ٤٠ الف شخص بالمقصلة واعتُقل ٣٠٠ ألف شخص آخر. يومها كان عدد سكان فرنسا لا يزيد على ٢٧ مليون نسمة[1].

منذ ذلك الوقت لم تغب هذه الظاهرة عن أى فترة من فترات المسيرة التاريخية المعاصرة للإنسان. ورغم أن ممارستها تكاد تصبح تقليداً من تقاليد العمل السياسى، إلا أن ربط الإرهاب بالجريمة كان ولا يزال موضع جدال فقهى وقانونى وسياسى داخل الأمم المتحدة وخارجها على حد سواء.

الجريمة، الإرهاب، الكفاح المسلّح، الثورة، تلك عناوين تبدو مترابطة ومتداخلة رغم تمايز كل منها فى معناه وفى استراتيجيته، وفى عقيدته، وفى هدفه، إلا أن محورها جميعاً أو القاسم المشترك بينها هو العنف.

فالعنف يكون جريمة عندما يتعمّد إلحاق الأذى بالضحية بصورة مباشرة، أى عندما تكون الضحية هى الهدف أولا وأخيراً.

أما الإرهاب فيستخدم العنف أداة ليس لإلحاق الأذى بالضحية، إنما لتوظيف الأذى فى ممارسة ضغط معنوى على جهة أخرى أو على شخص آخر.

إنه تكتيك تلجأ إليه عادة جماعة ضعيفة. خلا الدولة. ضد جماعة معادية لها تتمتع بقوة أكبر، وذلك من أجل تحقيق هدف سياسى تعجز عن تحقيقه بوسائل أخرى. من هنا لا تطلق عادة صفة المجرم بالمطلق على الإرهابى، فالمجرم يتعمّد قتل أو إلحاق الضرر بضحية محدّدة إما انتقاماً، أو لأى سبب شخصى آخر. أما الإرهابى فإنه غالباً ما يجهل ضحيته. وغالباً ما يعرف أن ضحيته بريئة، إلا أنه غالباً ما يؤمن بأن الإساءة إلى هذه الضحية البريئة هى الطريق الوحيد لتوصيل رسالة إلى طرف ثالث.

المجرم يرتكب جريمته لحسابه الخاص. أما الإرهابى فيعتبر نفسه جندياً مكلفاً بمهمة شريفة، لا تلحق إدانته بها أى عار أو تجريح، بل على العكس فهو يعتبر أداءها عملاً بطولياً يؤهله لاحتلال موقع مرموق، أو ذكرى خالدة، فى مجتمعه.

منذ مطلع الستينيات فقط بدأت دراسة ظاهرة الإرهاب مادة مستقلة فى موضوع العنف السياسى. وقد تطلب ذلك التمييز ليس فقط بين الجريمة والعنف، أو بين العنف والإرهاب، إنما بين الإرهاب والكفاح المسلح والثورة. فالعمل الثورى قد يكون إرهابا وقد يكون عنفاً، وقد يكون الاثنين معاً، وقد لا يكون شيئاً من ذلك. هو لا يكون عنفاً عندما لا يهدف إلى إيذاء ضحاياه المباشرين، وهو لا يكون إرهاباً عندما لا يهدف إلى الضغط على ضحايا غير مباشرين. إنه اداة تغيير تستخدم العنف والإرهاب معاً. إن طبيعة العلاقة بين الضحية والطرف الثالث هى التى تحدد صفة العمل العنفى إرهابياً، أو جريمة[2].

من أجل ذلك يطرح الإرهاب والعنف السياسى قضايا سياسية معقدة وقضايا أخلاقية أشد تعقيداً، ولا يمكن معالجة هذه القضايا إلا من خلال تركيب معادلة سياسية - اجتماعية - سيكولوجية - أمنية متكاملة. ذلك أن توقع الإرهاب، والوقاية منه، ورد الفعل عليه، عملية متداخلة ومتكاملة بإحكام.

فالتعرّف على دوافع العمل الإرهابى، والانفتاح عليها ومعالجتها، هى أقل كلفة من كبتها وتجاهلها حتى تصل إلى درجة الانفجار ؛ والتعرّف على سيكولوجية الإرهاب عن قرب يوفر فرصاً أفضل للتنبؤ باحتمال وقوعه، ويوفر، من ثم، الإمكانات لسحب فتيل انفجاره، أو على الأقل لاتخاذ الاستعدادات لملاقاته ولابتداع الوسائل المناسبة لاحتواء ردّات فعله.

لأن الإرهاب شىء، والكفاح المسلح شىء آخر، فإن منظمة الأمم المتحدة حرصت فى مواثيقها وإعلاناتها وقراراتها على تأكيد هذا التمايز مشرّعة حق الكفاح المسلح من أجل تقرير المصير، أو تحرير أرض محتلة، أو استرجاع استقلال مغتصب. ذلك أن العالم إذا كان يشكو من « إرهاب المنظمات» السرية والعلنية، فإنه يشكو فى الوقت نفسه وربما بنسبة أكبر من « إرهاب الدول».

عندما قام الكولونيل ت. أ. لورنس بشن سلسلة العمليات الإرهابية ضد الأتراك فى العالم العربى، فنسف الجسور وخطوط السكك الحديدية، برّر رئيس الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت تلك العمليات بقوله : «إن القوات التركية تعتمد على خط سكة الحديد فى العمليات التى تقوم بها ضد القوات البريطانية فى مصر، أن هذا الخط الحديدى الضيق يمتد مئات الأميال وسط الصحراء، فإذا قطع بصورة نهائية، فإن القوات التركية سوف يقضى عليها».

أعطى هذا المنطق التبريرى مقياساً عاماً للفلسطينيين فى السبعينيات من القرن الماضى، لخطف ونسف الطائرات الإسرائيلية فى صحراء الأردن. لم تكن مهمة لورنس ضرب الأتراك فقط، ولكنها كانت تتوسل ضربهم للوصول إلى الهدف الأبعد. وهذا الهدف الأبعد حدده لورنس نفسه فى برقية وجهها فى عام ١٩١٦ إلى جهاز الاستخبارات البريطانية حول ثورة الشريف حسين ضد الأتراك. وجاء فى هذه البرقية الوثيقة، كما وردت فى كتاب تاريخ الشرق الاوسط الحديث للكاتب الإنجليزى ديزموند ستيوارت : «إن ثورة الحسين فى الحجاز ستكون مفيدة لبريطانيا لأنها تتمشى مع الاهداف الحالية : تحطيم الكتلة الإسلامية، والتغلب على الإمبراطورية العثمانية وتمزيقها. أما الدول التى ستقام لتخلف الأتراك فستكون غير ضارة بنا كما كانت تركيا قبل أن تصبح آلة فى يد الألمان. بل إن العرب هم أقل استقراراً من الأتراك، فإذا أحسنت معالجتهم ظلوا فى حالة تفرق سياسى، ولايات صغيرة متحاسدة عاجزة عن الاتحاد».

إن هذا النوع من الإرهاب السياسى، أى الإرهاب الذى يتوخى إعادة تركيب منطقة ما كالشرق الاوسط، وإعادة رسم جغرافيتها السياسية، وبالتالى التلاعب بمصير شعوبها تحقيقاً لمصالح قوى خارجية، هو الذى يولد الإرهاب المعاكس، أى الإرهاب الذى يتوخى التحرير وممارسة السيادة الوطنية.

من هنا تبدو مشاريع الشرق الأوسط الجديد، والشرق الأوسط الكبير استمراراً لمدرسة قديمة فى التعامل مع هذه المنطقة من العالم، أى إعادة رسم جغرافيتها السياسية والتلاعب بمصير شعوبها، الأمر الذى لا بد أن يؤدى إلى ردود فعل لن يكون مفاجئاً أن تطلق عليها صفة الإرهاب.



إذا كان كل ضحايا العمل الإرهابى هم حكما من الأبرياء، فإن بعض ضحايا العمل الإرهابى المعاكس قد يكونون من الأبرياء أيضاً. صحيح أن الخطأ حتى إذا كان شاملاً لا يصحح بخطأ حتى ولو كان محدوداً، إلا أن الصحيح كذلك، هو أن الإرهاب بكل أشكاله وأيا كان القائمون به، هو عمل لا إنسانى ولا أخلاقى، إلا أنه مع الأسف أصبح قاعدة ثابتة من قواعد لعبة الأمم.

يقول الكاتب الأمريكى آرثر كوستلر فى كتابه «ظلام الظهيرة» أن تاريخ الإنسانية يصنعه قاتلون لا مصلحة شخصية لهم فى ارتكاب جرائمهم.

فى عام ١٩٠١ اغتال واحد من هؤلاء القتلة الرئيس الأمريكى وليم ماكينلى.

العمـــل الســـياسى!



ألم تلجأ الصين إلى الإرهاب لتستعيد حريتها ووحدتها ومن ثم لتعيد بناء شخصيتها من خلال ما سمى بالثورة الثقافية حتى تمكنت الآن من أن تصبح دولة نووية كبرى وأن تطلق مركبة مأهولة إلى الفضاء الخارجي؟.

إن للإرهاب رواداً ومنظرين اقتفت آثارهم حركات سياسية تدين بأديان مختلفة.

فخلال الحملة التى شنتها الكنيسة الكاثوليكية ضد الهراطقة، قبل سبعة قرون تقريباً، سأل جندى أحد الأساقفة المقاتلين فى جبال الألب : «كيف يمكن تمييز الكاثوليكى عن الهرطوقى»؟ فرد الأسقف بقوله : «اقتلهم جميعاً، فإن الله يعرف ما يريد»[3].

وما العمليات الإرهابية التى بدأت فى نيويورك وواشنطن فى سبتمبر ٢٠٠١، ثم انتقلت إلى دول عربية وإسلامية من السعودية إلى المغرب، ومن الجزائر إلى باكستان وتركيا، سوى مظهر آخر من مظاهر نظرية «اقتلهم جميعاً فإن الله يعرف ما يريد».

لا يعرف التاريخ قائداً سياسياً عمل بقول السيد المسيح «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر». ولكن ثمة لائحة لامتناهية من القادة السياسيين الذين يعملون بموجب نظرية فريدريك هاكر التى يقول فيها : «أفضل لنا ان نرهب الآخرين من أن يرهبنا الآخرون».

اتهام الإسلام بالإرهاب:

ترافق اعتماد مبدأ مكافحة الإرهاب باعتباره ركناً من أركان السياسات الخارجية فى الولايات المتحدة والاتحاد الروسى وبريطانيا والهند والمجموعة الأوروبية وسواها، مع اعتبار الظاهرة الإرهابية أولاً على أنها ظاهرة عربية، (منذ حوادث اختطاف الطائرات الإسرائيلية إلى الأردن)، ثم على إنها ظاهرة إسلامية (منذ نشوب الثورة فى إيران وخاصة بعد الاعتداء على مبنى التجارة الخارجية الدولية فى نيويورك، أولاً فى عام ١٩٩٣ ثم فى سبتمبر ٢٠٠١).

«ومع أن إسرائيل هى أول من مارس القرصنة الجوية فى المنطقة العربية (الاعتداء على مطار بيروت - ديسمبر ١٩٦٨، إسقاط الطائرة المدنية الليبية فى سيناء ٢١

وفى عام ١٩٦٣ اغتال آخر الرئيس جون كيندى. وبين عامى ١٨٩٠ و ١٩٠١، تمكن أمثال هؤلاء من اغتيال إمبراطورة النمسا ورئيس جمهورية فرنسا، وملك إيطاليا ورئيس حكومة إسبانيا.

وفى عام ١٩١٤ اغتال وطنى صربى ولى عهد النمسا وزوجته فى مدينة سراييفو مما أشعل نار الحرب العالمية الأولى التى سقط فيها أكثر من عشرة ملايين إنسان. ليس الإرهاب مجرد عمل عنف عشوائى لا هدف له ولا نتيجة.

فبالإرهاب اضطرت بريطانيا للانسحاب من أيرلندة الجنوبية وبالإرهاب الذى مارسته عصابات الشترن والهاجانا والأرجون اليهودية، قامت إسرائيل فى عام ١٩٤٨، وبالإرهاب تستمر وتتوسع.

وهل بغير الإرهاب استقلت الولايات المتحدة عن بريطانيا؟ وهل بغير الإرهاب توحدت فى دولة واحدة من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى؟



- فبراير ١٩٧٣) فإن الإعلام الأمريكى والأوروبى، ورغم إدانة الأمم المتحدة لتلك الجرائم - لم يصف ما قامت به إسرائيل بأنه إرهاب إسرائيلى أو يهودى».

ولم تظهر سوى إدانات خجولة فى الإعلام الغربى للمجازر الإسرائيلية التى ارتكبت أثناء غزو لبنان ١٩٧٨ و ١٩٨٢، أو لما سبقها من مجازر داخل فلسطين (دير ياسين والقبية والقدس وغيرها) ومصر (بحر البقر) حتى تونس.

وبصرف النظر عن أسباب وأهداف بعض العمليات الإرهابية، فإن الإعلام الغربى لا يقول مثلاً عن أعمال الجيش الأحمر بأنها إرهاب يابانى أو بوذى، ولا يقول عن أعمال «منظمة العمل المباشر» بأنها إرهاب فرنسى، أو كاثوليكى. ولا يقول عن أعمال بادرماينهوف بأنها إرهاب ألمانى أو بروتستانتى. الخ.. ولكن هذا الاعلام نفسه يتصيد أى حادث أمنى ليتحدث بتطويل وتركيز عما يسميه الإرهاب العربى أو الإرهاب الإسلامى قاصداً من وراء ذلك ليس إدانة الإرهاب كإرهاب، إنما تشويه الإسلام كدين وطعن القضايا العربية العادلة فى الصميم.

فى كتابه «الإسلام والحرب» يطرح رئيس مركز الأبحاث الاستراتيجية فى جامعة السوربون جان بول شارنيه Jean Paul Charney نظرية يقول فيها[4]:

«يتضمن الإسلام (شأنه شأن كل الأديان والفلسفات الكبرى، باستثناء تلك المنبثقة عن اتجاه سلمى تام، أو المنبثقة عن الفكرة الجوهرية للسلام الأبدى) نصوصاً دينية تعود إلى الحقبة الكلاسيكية فى التاريخ الاسلامى. هذه النصوص سعت إلى تحديد وتعريف الشروط التى تحفز المسلمين وتخولهم الدخول فى حالة حرب، أو بشكل أكثر سعة وتحديداً : الشروط القاضية بممارسة العنف الشرعى والمبرر دينياً من جهة، ودرجة هذا العنف الذى يمكن لنا ممارسته وفق حدود الشرعية الدينية التى لا نستطيع تجاوزها، حتى عند انخراطنا فى حرب أو ثورة ما، من جهة أخرى». ويعيد هذا الأمر إلى الأذهان نظرية القديس اغسطين حول الحرب المبررة التى قال بها فى الأدبيات المسيحية Justified War.

إن الإسلام إذاً، ليس دين حرب بحد ذاته، بل هو، كمعظم الأديان والفلسفات الكبرى، يقبل فعل الحرب، مضطراً أو كارهاً لها. بيد أن هذا القبول يتم ضمن حدود حالات خاصة يقرها الشرع الدينى الذى يسمح بحصول الحرب، شريطة أن تكون حرباً عادلة.

أما الصورة الشائعة فى البلدان الأوروبية، وفى العالم الغربى عن الإسلام، فهى صورة تحمل «علامة مسجلة» إذا جاز التعبير، أفرزتها سياسات بلدان معينة أو ممارسات بعض من الحركات التى ينضوى تحت لوائها أعضاء يكون مصدرهم الأيديولوجى هو الإسلام. فمن الواضح بأن هذه السياسات والممارسات قد ساعدت على تكوين انطباع لدى الرأى العام الغربى مؤداه بأن الإسلام دين ينطوى على قدر معين أو أكيد من العنف الذى يمكن استخدامه أو الإفادة منه داخل اللعبة السياسية، وبخاصة فى المجابهات التى يعتبر الانخراط فيها قضية عادلة.

لأن الارهاب شىء، والكفاح المسلح شىء آخر، فإن الأمم المتحدة حرصت على تأكيد هذا التمايز مشرعة حق الكفاح المسلح من أجل تقرير المصير، أو تحرير أرض محتلة، أو استرجاع استقلال مغتصب



وينبغى التمييز فيما إذا كانت هذه الممارسات، سواء العنيفة منها أو العنفية الإرهابية، ملتزمة بالتطبيق الصحيح للشريعة الإسلامية أو لا. ففى هذه الحالة، توجد بالطبع تفسيرات متباينة، لأن بعض الحركات الإسلامية، أو بعض الأفراد الإسلاميين، يمارسون نمطاً من العنف ينبثق ويتطابق، كما يبدو لى، مع الشريعة الإسلامية فى مستواها النصى الواضح والطبيعى، أى من حيث إقرارها بالعنف شرط أن يمارس من أجل قضية عادلة يقرها الدين الإسلامى، بينما تبدو بعض الممارسات العنفية وكأنها جاوزت الحدود. إن مثل هذه الممارسات تنخرط داخل الفعل العنفى، مبررة نفسها وفق تفسيرات حسنة ومقبولة للشريعة الإسلامية ذاتها بركنيها الأساسيين : القرآن والحديث النبوى.

وتقودنا هذه الحالة إلى وضع تناقضى، تفرزه ممارسات المجموعات والأفراد الذين يطبقون الإسلام وفق أسلوب متطرف. فمن خلال معرفتى البسيطة بالفقه الإسلامى، أرى أن مثل هذه الجماعات تقف فى ممارساتها فى مكان بعيد عن حقيقة الإسلام، باسم الدفاع عن الإسلام نفسه. ويتمثل هذا الابتعاد فى عدم احترام هذه الجماعات للتفسيرات السلمية والموضوعية لكل من الشريعة والفقه الإسلاميين.

أما فيما يتعلق بحدود الحرب وحدود الثورة وفق قاسم مشترك هو العنف، فإن المفهوم القديم لمفردة (الجهاد) التى تمتلك محتوى ابتمولوجيا (اشتقاقياً) عميقاً، فهو يتضمن معنى الجهد الذى نبذله ضد الذات أو ضد الآخرين، وهو مفهوم نص عليه القرآن، ويكتسب قدسيته من التحديد القرآنى له. وقد دمجت بعض البلدان الإسلامية، أو هى زاوجت بين مفهومى الجهاد والثورة، وذلك عبر ممارستها السياسية والعسكرية للحرب العادلة. وفى هذه الحالة، يكون مفهوم الثورة متضمناً لمعنيين دالين :

ففيما يشير الأول إلى التغيير والتطوير الحاصلين فى البنى السياسية - الاجتماعية - الاقتصادية، يدل الثانى على إحياء القيم الأخلاقية والمعنوية وتنقيتها وتطهيرها. وعلى هذا المستوى، يمكن للثورة أن تكون فعلاً عنيفاً، ولكن يتوجب على هذا الفعل احترام الشروط الشرعية داخل فعاليته، أو تحقيق توافق مع الشريعة والفقه الإسلاميين.

موقع الأمم المتحدة من الإرهــــاب :

«يعود نشوء الإرهاب السياسى إلى أعمال القمع التى تمارسها الأنظمة الاستعمارية والعنصرية والأجنبية ضد الشعوب التى تناضل من أجل تحررها وحقوقها المشروعة فى تقرير مصيرها واستقلالها وفى حرياتها الأساسية الأخرى».

[الأمم المتحدة ١٩٧٣ - من تقرير اللجنة الخاصة حول الإرهاب الدولى]

لقد حرم ميثاق الأمم المتحدة استخدام القوة أو التهديد باستخدامها فى ميدان العلاقات الدولية. ورد هذا التحريم فى عدة مواد من الميثاق سيما فى الفقرة الأولى من المادة الأولى. إلا أن الميثاق أجاز استخدام القوة أو التهديد بها فى حالتين أساسيتين :

الحالة الأولى : الأمن الجماعى وما يتطلبه من إجراءات عسكرية (كما ورد فى المادتين ٤١ و ٤٢ من الميثاق)، وخاصة إذا فشل مجلس الأمن الدولى فى التصدى لعملية خرق للأمن الدولى.

الحالة الثانية : الدفاع الشرعى عن النفس (كما ورد فى المادة ٥١ من الميثاق). وحق الدفاع عن النفس يمكن أن تقوم به الدولة المعتدى عليها منفردة أو بالتعاون مع مجموعة من الدول تحت مظلة مجلس الأمن الدولى. ولم يحدد ميثاق الأمم المتحدة مفهومه للأعمال التى يعتبر أنها تهدد السلم الدولى، إلا أن الجمعية العامة وافقت، فى عام ١٩٤٩، على القرار ٣٧٥ الذى يتضمن إعلاناً بحقوق الدول وواجباتها. تنص المادة التاسعة من هذا الإعلان على أن من واجب كل دولة الامتناع عن اللجوء إلى الحرب أو التهديد بالقوة فى سياستها القومية. كما أن من واجب كل دولة الامتناع عن خرق حرمة أراضى أية دولة أخرى أو تهديد سلامتها أو انتهاك استقلالها أو القيام بأى عمل يتنافى مع القانون والنظام الدوليين، وحظرت المادة العاشرة من الإعلان تقديم المساعدات لأى دولة لا تحترم مضمون المادة التاسعة. مع الأسف لم تحترم هذه المواثيق الدولية حتى فى حدها الأدنى.

يحدد قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، رقم ٣٣١٤ (عام ١٩٧٤)، تعريف العدوان فى ثمانى مواد. وبموجب هذا القرار يعد عدواناً :

١- استخدام القوة المسلحة ضد السلامة الإقليمية أو الاستقلال السياسى لدولة أخرى. (من ثوابت السياسة الإسرائيلية).

٢- اجتياح إقليم تابع لدولة أخرى وضمه، أو احتلاله. (الاحتلال الإسرائيلى لجنوب لبنان وفلسطين).

٣- قصف القوات المسلحة التابعة لدولة ما إقليم دولة أخرى. (وهو ما تفعله إسرائيل بصورة مستمرة مع لبنان منذ مطلع عام ١٩٦٩، وهو ما فعلته حتى الولايات المتحدة مع ليبيا فى عام ١٩٨٦).

٤- قيام القوات المسلحة لدولة ما بغزو دولة أخرى (الاجتياح الإسرائيلى لمصر فى عام ١٩٥٦ ولمصر وسورية والأردن



في عام ١٩٦٧، وللبنان في عامي ١٩٧٨ و ١٩٨٢. احتلال إيران للجزر العربية الثلاث طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى التابعة لدولة الإمارات العربية).

وأجازت الأمم المتحدة ـ تحت شعار حق الدفاع عن النفس ـ للدولة المعتدى عليها استعمال القوة لرد العمل العدواني الذي تعتبره المنظمة الدولية جريمة بحق السلام الدولي. واستعمال القوة مجاز كذلك للشعوب المغلوبة على أمرها، والتي تناضل من أجل تقرير مصيرها والحصول على استقلالها وممارسة حريتها، كما ورد في المادة السابعة من الإعلان.

في الأساس، ليس صحيحا أن الإرهاب يخلق قضايا عادلة. ولكن الصحيح هو أن الظلم والقهر والاستعباد هي التي تقود إلى الإرهاب عندما يعجز أصحاب القضايا العادلة عن الدفاع عن حقوقهم بوسائل أخرى.

في أعقاب حادث المدينة الأولمبية في ميونيخ ١٩٧٢، اقترح الأمين العام للأمم المتحدة على الجمعية العامة دراسة الإجراءات الدولية الواجب اعتمادها لمكافحة الإرهاب.

وقد تجاوبت الجمعية العامة مع الاقتراح ولكنها حرصت على ضرورة التركيز في الدراسة على أسباب الإرهاب ودوافعه. ووضعت الجمعية عنواناً للدراسة ينص على :

«تدابير لمنع الإرهاب الدولي الذي يعرض للخطر أو يودي بأرواح بريئة أو يعرض الحريات الأساسية للخطر. ودراسة أسباب مختلف أشكال الإرهاب وأعمال العنف التي تكمن في البؤس والإحباط والإحساس بالظلم واليأس، والتي تدفع بعض الأفراد إلى ازهاق أرواح بما في ذلك أرواحهم. من أجل إحداث تغييرات جذرية».

من الواضح أن الهدف من وراء هذا العنوان الذي قد يكون الأطول لأي مشروع دراسة هو البحث في الأسباب وليس في العقاب فقط.

شكلت الجمعية العامة لجنة من ٣٥ عضوا لإعداد الدراسة. بدأت اللجنة أعمالها في عام ١٩٧٣، وانتهت في عام ١٩٧٩، حيث قدمت تقريرها إلى الدورة ٣٤في فبراير من ذلك العام.

وبعد أن تبنت الجمعية العامة تقرير اللجنة الفرعية، أصدرت التوصيات الآتية[٥]:

● إدانة جميع أعمال الإرهاب الدولي التي تعرض للخطر أرواحاً بشرية أو تودي بها أو تهدد الحريات الأساسية.

● حث جميع الدول على الإسهام، فرادى وبالتعاون مع الدول الأخرى وكذلك مع هيئات الأمم المتحدة المعنية بالأمر في القضاء التدريجي على الأسباب الكامنة وراء الإرهاب الدولي.

● مطالبة جميع الدول بالوفاء بالتزاماتها وفقاً للقانون الدولي بالامتناع عن تنظيم أعمال الحرب الأهلية أو الأعمال الإرهابية في دولة أخرى أو التحريض عليها، أو المساعدة أو المشاركة فيها، أو قبول تنظيم نشاطات في داخل إقليمها تكون موجهة إلى ارتكاب مثل هذه الأعمال.

● مناشدة جميع الدول التي لم تفعل ذلك أن تنضم إلى الاتفاقيات الدولية القائمة المتعلقة بجوانب مختلفة من مشكلة الإرهاب الدولي والتي سبق الإشارة إليها.

● حث جميع الدول على التعاون بصورة أوثق خاصة عن طريق تبادل مايتصل بالموضوع من معلومات متعلقة بمنع ومكافحة الإرهاب الدولي، وإبرام معاهدات خاصة أو تضمين المعاهدات الثنائية المناسبة أحكاماً خاصة، ولا سيما فيما يتعلق بتسليم أو محاكمة الإرهابيين الدوليين.

● أن تدرس الجمعية العامة ضرورة إبرام اتفاقية أو اتفاقيات دولية إضافية تقوم في جملة ما تقوم عليه على مبدأ تسليم أو محاكمة ومكافحة أعمال الإرهاب الدولي التي لم تشملها بعد اتفاقيات دولية مماثلة أخرى.

● تولي الجمعية العامة ومجلس الأمن من أجل الإسهام في القضاء على الأسباب الكامنة وراء الإرهاب الدولي ومشكلة الإرهاب الدولي، اهتماماً خاصاً لجميع الحالات بما في ذلك الاستعمار والعنصرية والحالات التي تنطوي على الاحتلال الأجنبي، أي الحالات التي قد تدفع إلى الإرهاب الدولي.

حددت دراسة اللجنة الفرعية أسباباً سياسية واقتصادية واجتماعية للإرهاب[٦]:

لا يعرف التاريخ قائداً عمل بقول المسيح «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر». ولكن ثمة لائحة لامتناهية من القادة يعملون بموجب «أفضل لنا ان نرهب الآخرين من أن يرهبنا الآخرون»





أ. من الأسباب السياسية :

- سيطرة دولة على دولة أخرى (الاستعمار)
- التمييز العنصري.
- استخدام القوة ضد الدول الضعيفة.
- التدخل في الشئون الداخلية لدول أخرى.
- الاحتلال الأجنبي (كلياً أو جزئياً)
- ممارسة القمع والعنف لتهجير أو للسيطرة على شعب معين.

ب ـ من الأسباب الاقتصادية :

- عدم التوازن في النظام الاقتصادي العالمي.
- الاستغلال الأجنبي للموارد الطبيعية للدول النامية.

ج ـ من الأسباب الاجتماعية :

- انتهاك حقوق الإنسان (بالتعذيب أو السجن أو الانتقام)
- الجوع والحرمان والبؤس والجهل.
- تجاهل معاناة شعب ما يتعرض للاضطهاد.
- تدمير البيئة.

سبق هذه الدراسة صدور عدة قرارات عن الجمعية العامة للأمم المتحدة تدعو إلى الامتناع عن ممارسة الإرهاب أوتشجيع الإرهابيين وحمايتهم.

ففي الدورة الخامسة والعشرين صدر عن الجمعية العامة القرار رقم ٢٦٢٥ الخاص بإعلان مبادئ القانون الدولي بشأن العلاقات الودية والتعاون بين الدول وفقاً لميثاق الأمم المتحدة الذي نص على وجوب الامتناع عن تنظيم أو تشجيع تنظيم القوات غير النظامية أو العصابات المسلحة، بما في ذلك المرتزقة للاغارة على إقليم دولة أخرى. وكذلك وجوب الامتناع عن تنظيم أعمال الحرب الأهلية أو الأعمال الإرهابية في دولة أخرى، أو التحريض عليها أو المساعدة او المشاركة فيها أو قبول تنظيم نشاطات في داخل إقليمها تكون موجهة إلى ارتكاب مثل هذه الأعمال، عندما تكون الأعمال المشار إليها في هذه الفقرة منطوية على تهديد باستعمال القوة أو على استعمال لها.

وتضمن إعلان تدعيم الأمن الدولي الصادر بقرار الجمعية العامة رقم ٢٧٣٤ في الدورة نفسها في ١٦ ديسمبر ١٩٧٠ في فقرته الخامسة ما يلي : «تمتنع جميع الدول عن استخدام القوة أو التهديد باستخدامها ضد الوحدة الإقليمية والاستقلال السياسي لدولة أخرى، ولا يجوز احتلال دولة ما بالقوة أو الاستيلاء عليها أو على جزء منها نتيجة استخدام القوة، وإن مثل هذا الاستيلاء لا يعترف بشرعيته قانونا، وعلى كل دولة الامتناع عن تنظيم ومساعدة أعمال الإرهاب الموجهة ضد دولة أخرى».

وبعد انتهاء الحرب الباردة واعتلاء الولايات المتحدة عرش النظام العالمي الجديد، تبلورت معادلات أمنية وسياسية جديدة. وقامت مؤسسات قضائية دولية جديدة لمحاكمة ومعاقبة مجرمي الحرب والمعتدين على السلام العالمي وعلى حقوق الإنسان. ولقد طرحت أمام المحكمة الدولية التي شكلها مجلس الأمن الدولي لمحاكمة مجرمي الحرب في البوسنة أسئلة حول تعريف الحرب العادلة. متى تكون العمليات الحربية عمليات بطولية؟ ومتى تكون عمليات إجرامية وحشية؟ ومتى يكون الحافز إلى الحرب أخلاقياً وقيمياً ومتى كون مجرد استجابة لمصالح ومكاسب مادية؟.

الردع الاستباقي للإرهاب :

تنطلق أهمية الإجابة عن هذه الأسئلة بوجوهها المتعددة من دخول الشرق الأوسط مرحلة تعثر محاولات التسوية السياسية بين إسرائيل والدول العربية. وهي مرحلة تحتم تقرير ما إذا كانت الجرائم التي ارتكبت خلال الحروب العربية ـ الإسرائيلية سيتم تجاوزها وإغفالها، أم أنه لا بد من تصفية ذيولها بمحاكمة أبطالها بدءاً بمجازر الرملة ودير ياسين والقبية في فلسطين في عام ١٩٥٨،

←



الإســلام ليس ديــن حــرب بل هــو، كمعظــم الأديــان والفلسـفات الكبـرى، يـقبـل فعل الحـرب، مضطراً أو كارهاً لـهـا. بيد أن هذا القبـول يتم ضمــن حــدود حالات خاصة يقرها الشرع



مروراً بمجزرة مدرسة بحر البقر وقتل الجنود المصريين المستسلمين ودفنهم أحياء فى مقابر جماعية قرب العريش فى عام ١٩٦٧، مروراً بمجزرة مخيمى صبرا وشاتيلا فى بيروت فى عام ١٩٨٢ أثناء الاجتياح الإسرائيلى للبنان، ومن ثم مجزرة قانا فى جنوب لبنان ١٩٩٤، وما يتلوها حتى اليوم من مجازر فى غزة ومدن الضفة الغربية (جنين - رام الله - نابلس - بيت لحم).

أكدت محاكمات نورمبرج التى جرت أثر هزيمة ألمانيا النازية فى الحرب العالمية الثانية ربما لأول مرة فى التاريخ الحديث أن ثمة جرائم ضد الإنسانية: وأنه يجب محاكمة أبطال هذه الجرائم وإدانتهم. وطرحت هذه المحاكمات أسئلة أخلاقية مستحدثة حول ما إذا كان يجوز تبرير ارتكاب جرائم ضد الإنسانية تنفيذاً لأوامر من سلطة عليا. كما طرحت أسئلة حقوقية ودستورية حول شرعية سلطة الدولة وهى فى حالة حرب.

وعندما بدأ انتشار السلاح النووى واستحدثت نظرية الردع النووى، طرح موضوع شرعية استخدام سلاح الدمار الشامل فى الصراعات السياسية، أو شرعية إنتاجه وتطويره كرادع ضد استخدامه من طرف عدو معلن أو محتمل. وهو ما ينطبق اليوم أيضا على العلاقات بين الدول العربية - وكلها دول غير نووية - مع إسرائيل التى لم يعد ثمة شك فى أنها تملك ترسانة نووية كبيرة. (اعترافات الخبير النووى الإسرائيلى مردخاى فاعنونو الذى اختطف من بريطانيا إلى إسرائيل وحكم عليه بالسجن بعد إدانته بكشف أسرار عسكرية).

كل الجرائم الكبرى التى ارتكبت ضد الإنسانية والتى لم يحاكم المسئولون عنها ولم يعاقبوا بسبب ما اقترفته ايديهم، توالدت فيما بعد من خلال سلسلة من الجرائم المماثلة التى ارتُكبت كردات فعل انتقامية على غرار ما جرى فى البلقان منذ العام ١٨٧٠ وحتى اليوم وعلى فترات متقطعة. أما الجرائم التى عوقب مرتكبوها كما حدث فى ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية فقد أدت إلى عدم تحويل المجرمين بحق الإنسانية إلى أبطال قوميين، وبالتالى ساهم عقابهم فى احتواء ردات الفعل وأخمد جذوة الرغبة فى الانتقام. ويعود جزء من الفضل فى قيام تعاون ألمانى - فرنسى، الذى يشكل قاعدة الوحدة الأوروبية الحديثة، إلى انتعاش روح الوفاق التى اطلقتها معاقبة المجرمين فى نورمبرج وإدانة مبادئهم الفاشية على أنها ضد الإنسانية. وينطبق ذلك بالقدر نفسه على علاقات اليابان مع الولايات المتحدة رغم مجزرة بيرل هاربور من جهة، وإلقاء قنبلة نووية أمريكية على كل من هيروشيما وناجازاكى قبيل انتهاء الحرب. ولولا إدانة المسئولين السياسيين والعسكريين فى اليابان وبالتالى عدم تحويلهم إلى أبطال أو إلى ضحايا وطنيين، لما كانت دول شرق وجنوب شرق آسيا وافقت على مد يد المصالحة إلى طوكيو بعد المجازر التى ارتكبتها قواتها هناك خلال الحرب وقبلها. وقد ذهبت الحكومات اليابانية إلى حد الاعتذار علناً عن تلك الجرائم الأمر الذى رتب عليها الالتزام بدفع تعويضات لعائلات ضحاياها، وخاصة فى كوريا والفليبين.. وهو ما فعلته ألمانيا التى اعتذرت لليهود عن الجرائم التى ارتكبها هتلر بحقهم وبحق مواطنين أوروبيين آخرين فى معسكرات الاعتقال، كما قدمت تعويضات مالية ضخمة لإسرائيل بحجة أنها وريثة الضحايا من اليهود، مما ساعدها على بناء اقتصادها فى سنوات إنشائها الأولى. إلا أن إسرائيل (التى هى ثمرة من ثمار أزمة الضمير الأوروبى التى تفاعلت إثر عمليات الاضطهاد التى تعرض له اليهود فى روسيا القيصرية الأرثوذكسية، وفى فرنسا الملكية الكاثوليكية، وفى بريطانيا الإنجليكانية، وفى ألمانيا النازية) مارست العديد من الجرائم بحق الإنسانية بما فى ذلك التطهير العرقى والدينى الذى استهدف فلسطينيى ١٩٤٨ و١٩٦٧، ولبنانيى القرى السبع التى ضمتها إسرائيل إليها؛ ولا شك فى أن العقاب الجماعى الذى أنزلته إسرائيل بأهالى الضفة الغربية وغزة طوال فترة ثورة الحجارة، وفى جنوب لبنان منذ نشوب المقاومة الأهلية ضد الاحتلال، شاهدان حديثان على الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الانسان وللمواثيق الدولية خلال الحرب. فمن يحاكم الإرهابيين المجرمين الذين ارتكبوا هذه الجرائم ؟ وكيف؟.. ومتى؟ وقبل ذلك كله هل سيفتح سجل المحاكمة؟ وهل ستطالب الدول العربية بوجوب فتحها؟.. وهل سيتحرك مجلس الأمن الدولى ذاتيا كما حدث بالنسبة للبوسنة، فيبادر إلى تشكيل محكمة دولية خاصة للنظر فى الجرائم الإسرائيلية بحق الإنسانية؟ أم أن ملفات هذه الجرائم سوف تطوى كشرط من شروط التسوية؟. إذا حدث ذلك بالفعل فإن ذاكرة الشعوب التى تعرضت للقهر والتنكيل ستبقى متحفزة للانتقام عند أول مفصل من مفاصل التحولات التاريخية المقبلة... كما حدث مراراً بين شعوب البلقان.



من أجل ذلك استُبعد كبيرا الصرب رادوفان كاراديتش وراتكو ملاديتش عن مباحثات السلام التى جرت فى دايتون بالولايات المتحدة. وكان من شروط عقد اتفاقية السلام إبعادهما كذلك عن أى منصب وعن أى دور سياسى أو أمنى أو حتى إدارى فى دولة البوسنة الاتحادية المستحدثة أو حتى فى الدولة الصربية الجديدة.

وطبعاً استُثنيت إسرائيل من هذه الشروط والقواعد. فمناحيم بيجن أحد مجرمى الحرب وزعيم عصابة شترن الإرهابية (والذى كان مطلوبا للعدالة فى بريطانيا بتهمة الإشراف على عملية نسف فندق الملك داود فى القدس فى عام ١٩٤٨) هو الذى فاوض ووقع مع الرئيسين السابقين أنور السادات وجيمى كارتر على معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية فى حديقة البيت الأبيض بواشنطن فى عام ١٩٧٩ كما أن إسحق شامير بطل جريمة اغتيال الوسيط الدولى (السويدى) الكونت برنادوت وأحد مؤسسى عصابة الهاجاناه الإرهابية، هو الذى مثل إسرائيل فى مؤتمر مدريد فى عام ١٩٩١ بصفته رئيسا للحكومة. فالجرائم التى ارتكبها بيجن وشامير لا تقل فظاعة ووحشية عن الجرائم التى ارتكبها كاراديتش وملاديتش. ومع ذلك فقد عوقب كبيرا الصرب وكُرّم كبيرا إسرائيل إلى حد منح بيجن - مشاركةً مع السادات - جائزة نوبل للسلام بعد التوقيع على معاهدة السلام.

ويحفل سجل رئيس الحكومة الإسرائيلية السابق إسحق رابين بالجرائم الجماعية ليس فقط من خلال دوره العسكرى فى حرب ١٩٦٧ ولكن من خلال دوره فى ميليشيا بالماخ التى كان يتزعمها إيجال الون. وهو، مثلاً، بطل عملية نسف الباخرة تالينا التى كانت تنقل أسلحة ومعدات عسكرية إلى منظمة أرجون المنافسة لبالماخ. ولا شك فى أن رئيس الحكومة الإسرائيلية الحالى الجنرال شارون هو أكثر المسئولين الإسرائيليين سفكاً للدماء حيث ارتكب العديد من المجازر فى فلسطين ومصر ولبنان.

تبرز أهمية المقارنة بين الجرائم الإرهابية التى ارتكبت فى البوسنة وتلك التى ارتكبتها وترتكبها إسرائيل من خلال لائحة الاتهامات التى اعدها رئيس المحكمة الدولية غولستون حول الجرائم التى ارتكبت فى البوسنة ضد الإنسانية وهى تدور حول المحاور التالية:

- الاغتصاب، لقد تعرض الشيخ مصطفى الديرانى الذى خطفته القوات الإسرائيلية من منزله فى مدينة بعلبك اللبنانية للاغتصاب أثناء أسره، كما أعلن ذلك أمام المحكمة الإسرائيلية التى لم تجد ما تدينه سوى أنه ضد الاحتلال الإسرائيلى للبنان.
- المجازر الجماعية، وفى هذا الشأن نجد ان من سجل المجازر التى ارتكبتها القوات الإسرائيلية فى أعوام ١٩٤٨ فى فلسطين، و ١٩٥٦ فى مصر، ١٩٧٦ فى الضفة الغربية وغزة، ١٩٨٢ فى لبنان، لا تقل وحشية عن المجازر التى ارتكبها الصرب فى سرايفو وسيبرينتشا وغوراجدة وغيرها من المدن الإسلامية فى البوسنة.
- استعمال القنابل العنقودية ضد المدنيين. إن سجل العمليات العسكرية الإسرائيلية حافل باستخدام القنابل العنقودية خاصة فى جنوب لبنان. كانت القذائف المسمارية الإسرائيلية تنهمر على قرى الجنوب والبقاع الغربى وقد جمعت شظايا من المسامير كدليل مادى



لقد تحمل العالم العربى - الإسلامى وزر الاتهام الأمريكى الجماعى بالإرهاب. وتحمل وزر شن الحرب على الإرهاب على قاعدة هذا الاتهام، وها هو يتحمل وزر فشل هذه الحرب واستمرار الإرهاب



قدم إلى المرجعيات الدولية. وفى عام ١٩٨٢ استخدمت إسرائيل أثناء حصار بيروت القنبلة الفراغية التى لم يسبق استخدامها إلا فى التجارب العسكرية.

● احتجاز المدنيين كرهائن. وهنا أيضا نجد أن القوات الإسرائيلية احتجزت عددا كبيرا من المدنيين كرهائن للمساومة عليهم سواء فى الضفة الغربية وغزة، أو فى الجنوب والبقاع الغربى اللبنانيين.

● إقامة معسكرات الاعتقال. لا شك فى أن أشهر وأكبر معسكرات الاعتقال التى أقامتها إسرائيل فى لبنان هو معسكر أنصار (نسبة إلى قرية فى جنوب لبنان أقيم المعسكر بالقرب منها) ومعتقل الخيام.

بل إن القوات الإسرائيلية والميليشيات المحلية المتعاونة معها فى القسم المحتل من جنوب لبنان اعتقلت عناصر من قوات الأمم المتحدة نفسها التى أرسلت إلى لبنان فى عام ١٩٧٨ بموجب القرار ٤٢٥ الصادر عن مجلس الامن الدولى والذى نص على وجوب انسحاب القوات الإسرائيلية دون قيد او شرط. والعشرات من عناصر هذه القوات الذين قتلوا فى الجنوب قضوا بقذائف المدفعية والطيران الإسرائيليين، ومجزرة قانا الشهيرة وقعت فى مركز تابع لقوات الأمم المتحدة لجأ إليه القرويون اللبنانيون للاحتماء فيه من القصف الإسرائيلى الذى استهدف قراهم. تؤكد ذلك تقارير الأمم المتحدة نفسها، واعتذارات إسرائيل المتكررة بأن القوات الدولية لم تكن مقصودة وأن الإصابات القاتلة التى وقعت حدثت خطأ(؟).

وتكفى الإشارة إلى الحصار التجويعى الذى تواجهه مدن الضفة الغربية وغزة، بما فى ذلك حصار الرئيس الفلسطينى فى بيت لحم بحيث تحولت هذه المدن إلى معسكرات اعتقال جماعية.

المهم أن تصنيف الجرائم التى شكل مجلس الامن الدولى على أساسها المحكمة الدولية لمحاكمة مجرمى الحرب فى البوسنة يماثل نوعية الجرائم التى ارتكبتها القوات الإسرائيلية أيضا. مع ذلك يحاكم الصربيون وتقدم جوائز نوبل للسلام إلى الإسرائيليين؟

تداعيات ١١ سبتمبر ٢٠٠١:

بتاريخ الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ تعرضت الولايات المتحدة إلى عمل إرهابى لا سابق له فى تاريخها. إذ ذهب ضحيته حوالى ثلاثة آلاف شخص فى حادث سقوط برجى التجارة الخارجية فى نيويورك، إضافة إلى تدمير جزء كبير من مبنى وزارة الدفاع (البنتاجون) فى واشنطن.

أدى هذا الحادث الإرهابى إلى رد فعل أمريكى اتخذ أبعاداً استراتيجية تمثل فى:

١. اعتماد «مبدأ بوش» (الرئيس الأمريكى) الذى يقول بالحرب الوقائية والمبررة Justified & Preventive war

٢. تجاوز الأمم المتحدة مؤسسة وميثاقاً عندما تتعارض مواقفها مع سياسة الولايات المتحدة ومصالحها.

٣. احتلال القوات الأمريكية لأفغانستان وإسقاط نظام الطالبان.

٤. احتلال العراق وإسقاط نظام حزب البعث بقيادة صدام حسين.

٥. اتهام الإسلام بالإرهاب فى الإعلام الأمريكى، وفى سلوك الإدارة الأمريكية.

٦. فرض قيود على حركة تنقل المسلمين والعرب داخل الولايات المتحدة.

٧. التضييق على ممارسة الحريات العامة على قاعدة الأمن أولاً.

فى الأساس كانت الحرب على الإرهاب ضرورية وواجبة الوجوب خاصة بعد العمل العدوانى الذى تعرضت له نيويورك وواشنطن فى ١١ أيلول - سبتمبر ٢٠٠١. وبسبب هوية المجرمين الذين ارتكبوا ذلك العدوان المذهل، فقد كان يتعين أن تكون حرباً إسلامية - غربية مشتركة وحرباً عربية - أمريكية منسقة ضد الإرهاب. غير أن الغطرسة الأمريكية أدت إلى نقل العالم العربى - الإسلامى من دور الشريك المفترض منطقياً فى الحرب إلى دور المتهم بلا منطق، وذلك من خلال وصف الإرهاب بأنه إرهاب إسلامى افتراء وتضليلاً. وبدلاً من أن يكون العالم العربى فى خندق واحد مع الولايات المتحدة ومع العالم الغربى لمكافحة الإرهابيين، تعاملت واشنطن مع العالم العربى وكأنه «قفص جوانتانامو كبير».

كرس فشل الولايات المتحدة فى حربها على الإرهاب، تحولها إلى الحرب على العراق بحجج واهية لا تحترم سوى مصلحة إسرائيل واستراتيجيتها فى تقسيم المنطقة إلى دويلات طائفية ومذهبية وعرقية. وأدت إدانتها العشوائية للإسلام بالإرهاب وسوء معاملتها لرعاياها المسلمين إلى تراجع التعاطف معها وإلى انحسار الالتزام بالتضامن معها، بل إن هذا السلوك أضعف الاعتدال واستنفر التطرف. وزاد الطين بلة فشلها فى وضع حد للاجتياح الإسرائيلى للضفة الغربية وغزة وتغطيتها الجرائم ضد الإنسانية التى ارتكبتها القوات الإسرائيلية. ذلك أنه فى الوقت الذى كانت القوات الأمريكية تجتاح المدن العراقية، كانت القوات الإسرائيلية تجتاح المدن الفلسطينية، أو البقية الباقية من هذه المدن والمخيمات. وكان من الصعب، بل من المستحيل تجاهل التكامل فى الاجتياحين ليس فقط من حيث التنسيق الأمريكى - الإسرائيلى، بل وفوق ذلك، من حيث أن هذا التنسيق يستهدف ظلماً العرب والمسلمين. ولعل الجريمة التى وقعت فى الرياض ثم فى الدار البيضاء كانت ثمرة من ثمار هذا الفشل الذريع. ونخشى أن لا تكون الثمرة الأخيرة.



فالأيدى العابثة قد تضرب أى مدينة أخرى. ذلك أن الذين لم يحترموا حرمة المكان لن يتورعوا عن استهداف أى مكان. من هنا فإن الحرب على الإرهاب لا يمكن أن تنجح إلا إذا كانت حرباً مشتركة. وإذا كانت قد فشلت حتى الآن فلأن الولايات المتحدة خاضتها منفردة وبأسلوب خاطئ أدى إلى صب المزيد من الزيت على نار الإرهاب.

لقد تحمل العالم العربى - الإسلامى وزر الاتهام الأمريكى الجماعى بالإرهاب.

وتحمل وزر شن الحرب على الإرهاب على قاعدة هذا الاتهام، وها هو يتحمل وزر فشل هذه الحرب واستمرار الإرهاب. فالعدوان على أى إنسان برىء هو عدوان على الإنسانية جميعها. وترويع أى مدينة آمنة سواء كانت الرياض أو نيويورك أو الدار البيضاء، هو ترويع لكل مدينة فى العالم ولكل مدينة عربية وإسلامية. من هنا وجوب اعتماد مبدأ الحرب الشاملة على الإرهاب.

وعندما ارتفع فى الولايات المتحدة السؤال الكبير بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١: لماذا يكرهوننا؟، طلع المستشرق الأمريكى برنارد لويس (أستاذ التاريخ فى جامعة برنستون ومؤلف ٢٠ كتاباً معظمها عن الإسلام والشرق الاوسط) بنظرية معاكسة. تبرر نظريته من جهة أولى كراهية المسلمين للغرب على أساس أن العالم العربى - الإسلامى هو عالم فاشل ومهزوم وأن العالم الغربى وعلى رأسه الولايات المتحدة هو عالم ناجح ومنتصر؛ وتطرح نظريته من جهة ثانية سؤالاً آخر يؤكد عليه وهو لماذا لا يخافوننا ولا يحترموننا؟.

وعلى أساس هذين الأمرين يقول لويس إن غياب عامل الخوف من الغرب هو الذى أدى الى تحول الكراهية إلى الإرهاب. وبالتالى فإن القضاء على الإرهاب يتطلب فى الدرجة الأولى تخويف العالم العربى - الإسلامى. لقد كان برنار لويس من منظرى احتلال العراق على قاعدة وجوب التخلى عن مبدأ الاحتواء[٧] Doctirne of containment، واعتماد مبدأ المواجهة المباشرة Doctrine of confrontation الذى قال به لويس - وبموجب هذا المبدأ يتم تخويف وإرهاب العالم العربى الإسلامى -، وتغيير الشرق الاوسط عن طريق غرس بذور الديموقراطية فيه و بالقوة. وقد أصبح مبدأ لويس عملياً الأساس الذى قامت عليه السياسة الأمريكية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ مباشرة[٨].

أمران أساسيان تبدلا بعد الحرب الباردة:

الأمر الأول هو أن الإرهاب حل محل موسكو كعدو عالمى للولايات المتحدة.

الأمر الثانى هو أن الولايات المتحدة أصبحت القوة العالمية الكبرى الوحيدة بعد سقوط الاتحاد السوفياتى وتمزقه.

يعنى الأمران أن الولايات المتحدة فى مواجهة العدو الجديد ليست مضطرة إلى اعتماد مبدأ الاحتواء، بل إنها مدعوة إلى، بل ومحكومة، باعتماد مبدأ المواجهة لالحاق

الهزيمة بالإرهاب ومن ثم لفرض تغييرات جذرية فى القيم والمفاهيم التى تشجع تعتقد أنها على الإرهاب وتدعو له.

ويرى لويس أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تتبوأ موقعها المؤهلة له على عرش النظام العالمى الجديد ما لم تتمكن من إلحاق الهزيمة بالإرهاب وبالتالى من تحقيق هذه التغييرات البنيوية فى المجتمعات العربية - الإسلامية.

لقد تبنّت الإدارة الأمريكية برئاسة الرئيس جورج بوش نظرية برنارد لويس[٩] التى يقول فيها إنه يمكن فرض ثقافة سياسية على أى مجتمع بالقوة العسكرية. وكانت إسرائيل قد تبنت هذه النظرية التى طرحها لويس لأول مرة فى معهد دايان فى إسرائيل فى عام ١٩٨٠، الأمر الذى شجعها على غزو لبنان فى العام ١٩٨٢. ورغم الفشل الذى منيت به إسرائيل فى لبنان، فإن الولايات المتحدة تتخذ من هذه النظرية نبراساً لها فى احتلال العراق اليوم. فالاحتلال يرهب العرب، وفرض ثقافة سياسية جديدة يستأصل الإرهاب من جذوره الفكرية الإسلامية.

لم يكن ملف الإرهاب الدولى يحتاج إلى هذا الحادث المروع الذى تعرّضت له الولايات المتحدة حتى يصبح الإرهاب الشغل الشاغل للعالم كله سياسياً وعسكرياً وثقافياً، وحتى دينياً. ذلك أن ملف الإرهاب ينتفخ فى أدراج المنظمات الدولية عاماً بعد عام إثر كل حادث إرهابى دون أن تُتخذ قرارات ومواقف حاسمة سواء لجهة تعريفه أو لجهة تحديد كيفية التعامل معه، أو حتى لجهة معاملة كل مرتكبى الإرهاب بالمثل.

فالإرهاب ليس اختراعاً عربياً، ولا هو بدعة إسلامية. إنه ظاهرة نافرة ومنفرة من مظاهر الاضطراب السياسى فى العصر الحديث.

ومع تطوير المدنية تطور العمل الإرهابى، ففى عام ١٩٥٦ أقدمت السلطات الفرنسية على اختطاف طائرة مدنية ترفع العلم المغربى وعلى متنها خمسة من قادة الثورة الجزائرية. بينهم أحمد بن بلا. كانوا فى طريقهم من الرباط إلى تونس لحضور مؤتمر يشترك فيه ممثلون عن الحكومة الفرنسية نفسها للبحث عن حل للقضية الجزائرية. وقد احتفظت فرنسا بقادة الثورة أسرى لديها حتى استقلال الجزائر فى عام ١٩٦٢. لقد كان حادث القرصنة هذا أول حادث من نوعه تقوم به دولة كبرى.

وبعد عامين وبالتحديد فى ١١/٣/ ١٩٥٨، نظمت الولايات المتحدة حادث اختطاف طائرة كوبية مما أدى إلى مصرع ١٧ شخصاً. وخلال الفترة من عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٤ تمّ اختطاف ٤٠ طائرة كوبية، وكان المختطفون يُستقبلون كالفاتحين فى المطارات الأمريكية. كانت الولايات المتحدة تريد تجريد كوبا (فيدل كاسترو) من أسطولها الجوى، ولذلك شجعت وموّلت عمليات الاختطاف وحرّضت على إحراق الطائرات المختطفة فى المطارات الأمريكية، أو تفكيكها وبيعها قطع غيار لشركات الطيران المحلية الأمريكية.



وفى عام ١٩٦٨ قامت إسرائيل بغارة على مطار بيروت الدولى فدمرت وأحرقت جميع طائرات الأسطول الجوى المدنى اللبنانى التى كانت جاثمة على أرض المطار وعددها ١٣ طائرة.

الآن وبعد العمل الإرهابى الذى استهدف واشنطن ونيويورك والذى أصاب الكرامة الأمريكية فى الصميم، لا بد من التساؤل كيف يمكن التصدى لهذه الحالة الخطيرة التى يواجهها العالم.

للإجابة على هذا السؤال لا بد من الإشارة إلى أنه جرت ثلاث مبادرات مختلفة ومتباينة :

المبادرة الأولى قامت بها الولايات المتحدة منفردة بواسطة قواتها العسكرية قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وبعده : :

- غزو جرانادا ١٩٨٣
- قصف ليبيا ١٩٨٦
- اقتحام عاصمة بنما واعتقال رئيسها ١٩٨٩.
- احتلال افغانستان بتفويض من الامم المتحدة وبمشاركة من حلف شمال الاطلسى ٢٠٠٢.
- احتلال العراق بالتحالف مع بريطانيا ومن ثم بمشاركة عدة دول أخرى - وإسقاط النظام واعتقال رئيسه وكبار أركانه - ٢٠٠٣ - دون العودة إلى الامم المتحدة.

المبادرة الثانية تمثلت فى مؤتمر دولى عقد فى شرم الشيخ بمصر ١٩٩٨ دعت إليه الولايات المتحدة وحضره الرئيس السابق بيل كلنتون والرئيس حسنى مبارك إلى جانب عدد من المسؤولين العرب والدوليين، إضافة إلى رئيس حكومة إسرائيل السابق إيهود باراك ورئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات. تبنى المؤتمر وثيقة لمكافحة الإرهاب، إلا أن هذه الوثيقة سقطت فى أول تجربة تعرّضت لها فى الأراضى الفلسطينية المحتلة.

وفى مطلع فبراير ٢٠٠٤ عُقد مؤتمر آخر فى بالى بأندونيسيا (حيث وقع حادث إرهابى فى أكتوبر ٢٠٠٢ ذهب ضحيته ٢٠٢ قتيل معظمهم من الأستراليين) حضره ممثلون عن ٣٣ دولة آسيوية. وقد أجمع المجتمعون على إنشاء مجموعتى عمل لجمع الأدلة وتنسيق معلومات الاستخبارات وتشجيع تبادل المتهمين بالإرهاب وتحسين التنسيق بين أجهزة الشرطة فى دول منطقة آسيا - المحيط الهادى. ودعوا إلى تحسين الإجراءات الأمنية فى مجالى الطيران والبحرية ووقف تدفق الأموال إلى المنظمات الإرهابية وحظر تسرب المواد التى تدخل فى إنتاج الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية. كما اتفقوا على إنشاء أطر قانونية وتبادل المعلومات لمحاربة الإرهاب وتبييض الأموال.

ولا بد من الانتظار لمعرفة النتائج العملية لهذا التوافق الجديد.

المبادرة الثالثة اتخذتها الامم المتحدة فى عام ١٩٧٢ فى أعقاب حادث ميونيخ الذى أودى بحياة عدد من الرياضيين الإسرائيليين الذين كانوا يشتركون فى دورة الألعاب الأولمبية. جاءت المبادرة أساساً من الأمين العام للامم المتحدة ودعت إلى إعداد دراسة حول الإجراءات الدولية لمكافحة الإرهاب. تبنّتها الجمعية العامة على النحو الذى أشرنا إليه سابقاً.

مع الأسف لم تُحترم المواثيق الدولية حتى فى حدها الأدنى. فالولايات ٢١قدعاسلا تمدق قسحتلالبريطانيا أثناء حربها ضد الأرجنتين (١٩٧٠)، وبريطانيا قدمت المساعدة للولايات المتحدة أثناء قصفها ليبيا (١٩٨٦) ثم تحالفت معها فى الحرب على العراق ٢٠٠٢. ورغم الخرق الإسرائيلى للقانون الدولى بالاعتداء على لبنان واحتلال جزء منه وتدمير عاصمته فى عام ١٩٨٢. ورغم احتلال إسرائيل لكل فلسطين وارتكاب المجازر الجماعية بحق الشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية وغزة. ورغم احتلالها مرتفعات الجولان السورية خلافاً لقرارىْ مجلس الأمن الدولى ٢٤٢ و ٣٣٨، فإن المساعدات العسكرية والاقتصادية التى تتدفق على إسرائيل من عدة دول وخاصة من الولايات المتحدة تسجل خطاً بيانياً تصاعدياً.

مراحل التصدى للإرهاب:

يمكن تقسيم استراتيجية مكافحة الإرهاب إلى مرحلتين أساسيتين :

مرحلة ما قبل الحرب الباردة، وقد فشلت لأسباب سياسية عدة أهمها :

أولا . الخلط بين مفاهيم الإرهاب والعنف والكفاح المسلح.

ثانيا . قدرة المنظمات المسلحة على التكيف مع الإجراءات الأمنية التى كانت تتخذ لردعها.

ثالثا . ممارسة بعض الدول الكبرى للإرهاب السياسى (الاجتياح السوفياتى لأفغانستان(،) الاجتياح الأمريكى لجرانادا وبنما والتورط العسكرى فى لبنان وليبيا والحرب على العراق فى عام ١٩٩١ بعد غزوه للكويت).

رابعا . وجود مساحة دائمة من السلامة توفرها الصراعات الدولية بين الشرق وحلف وارسو من جهة والغرب وحلف شمال الاطلسى من جهة ثانية. ولعل أوضح مثلين هما الدعم السوفياتى لفيتنام فى حربها التحريرية ضد الولايات المتحدة، والدعم الأمريكى لأفغانستان فى حربها التحريرية ضد الاتحاد السوفياتى.

فى ضوء هذه الوقائع لم تؤد المحاولات الدولية لمكافحة الإرهاب والعنف المسلح إلى أية نتيجة فعالة مما حمل كلا من الرئيس المصرى حسنى مبارك والرئيس السورى الراحل حافظ الأسد على اقتراح عقد مؤتمر دولى بإشراف الأمم المتحدة لوضع اتفاقية جديدة تحلّ محل كل الاتفاقات القائمة، وتتضمن تعريفاً محدداً للإرهاب ومن ثم التزامات الدول فى معالجة أسبابه والتصدى له.

النزاعات المسلحة فى العالم

عدد الصراعات المسلحة	نوعها	تاريخها
١٠	محدودة	١٩٩٩
٩	أقل من ألف قتيل فى المجموع	٢٠٠٠
١٣	متوسط	١٩٩٩
١٢	أقل من ألف قتيل فى العام الواحد	٢٠٠٠
١٤	واسعة	١٩٩٩
١٢	أكثر من ألف قتيل فى العام الواحد	٢٠٠٠

● يبلغ عدد النزاعات المسلحة فى العالم بين عام ١٩٨٩ و ٢٠٠٠، ١١١١ نزاعاً منتشرة فى ٧٤ موقع.

وفى مرحلة ما بعد الحرب الباردة فقدت المنظمات الإرهابية كل مظلة، بعد أن تبادلت الدول التى كانت تدعم بعض هذه المنظمات وتشجعها، الملفات السرية المتعلقة بها أشخاصاً وعمليات. إلا أنه سرعان ما تبين أن عالم ما بعد الحرب الباردة لا يتمتع بمناعة ضد التعرض للعمل الإرهابى، ليس فقط لأن الولايات المتحدة تمسك وحدها بتلابيب النظام العالمى الجديد بل لأنها تمسك بتلابيبه، ولأنها تضع الإرهاب والكفاح المسلح فى سلة واحدة. بل إنها - وفيما يتعلق بإسرائيل - تعتبر عملياتها الإرهابية دفاعاً عن النفس، فيما تعتبر عمليات المقاومة الفلسطينية إرهاباً.

إن استقراء الأحداث التى عصفت بالمجتمع الدولى خلال هذه المراحل التى مرت بها محاولات كبح جماح الإرهاب الدولى تثبت أمرين أساسيين :

الأمر الأول، تصعيد فى عمليات الإرهاب الدولى، وتوسع فى إطار ممارساتها، وارتفاع فى عدد ضحاياها من الأبرياء. وكان آخرها ومن أبشعها العملية التى استهدف الولايات المتحدة يوم الحادى عشر من أيلول - سبتمبر ٢٠٠١، والتى أشعلت فتيل الحرب العالمية الثالثة على النحو الذى أعلنه الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن، نفسه.

الأمر الثانى، تأكيد المجتمعات العالمية المختلفة التى تفتقر إلى القدرة - أو التى جردت من القدرة على المشاركة فى صناعة القرار الدولى - على حقوق الشعوب الصغيرة المغلوبة على أمرها فى حق تقرير المصير (مبادئ الرئيس ولسون فى فرساى بعد الحرب العالمية الأولى)، وتنديدها بالممارسات التى تقوم بها أى دولة سواء كانت إسرائيل أو الولايات المتحدة ضد هذه الشعوب، الأمر الذى أساء إلى سمعة الولايات المتحدة وإلى صدقيتها الدوليتين. حتى أن زبيجنيو بريجنسكى مستشار الأمن القومى الأمريكى الأسبق للرئيس جيمى كارتر (١٩٧٧ - ١٩٨٠) يقول فى محاضرة ألقاها فى مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية فى واشنطن : «من الواضح تماماً أن الولايات المتحدة باتت إثر نجاحاتها العسكرية فى كل من أفغانستان والعراق، القوة الوحيدة التى تملك قدرات عسكرية عالمية. فليست هناك دولة أخرى تملك قدرات بهذا الحجم. لكن المفارقة هى أنه فى الوقت نفسه، واستناداً إلى مؤشرات كثيرة، وإلى استطلاعات الرأى عبر العالم، وإلى ردود فعل الحكومات الأجنبية، وإلى تقارير الصحافيين الأمريكيين المنتشرين فى العالم، يمكن القول إن أمريكا تفتقر إلى الصدقية الدولية التى تتماشى مع مكانتها وإمكاناتها، مما يجعل هذه المكانة، بالمعنى السياسى، تقف فى نقطة منخفضة لم يسبق أن بلغتها فى أى وقت مضى. لقد كان الجزم المطلق بأن العراق يملك أسلحة دمار شامل سبباً أساسياً لتدمير الثقة بالولايات المتحدة وبكلمتها فى العالم. وفى يقينى أن هذا الأمر يشكل تطوراً خطيراً يؤثر سلباً على دور الولايات المتحدة فى العالم »(١٠).

ولأن هذا الأمر الثانى بقى نظرياً فقد كان طبيعياً أن يفرض الأمر الأول نفسه حقيقة جديدة من حقائق السياسة الدولية، وركناً أساسياً من أركان لعبة الأمم. وفى ظل اللانظام الدولى الجديد لم يكن مستغرباً أن يشهد العالم تعبيرات إرهابية عن عدم الرضى على استمرار الظلم وتجاهل معاناة المسلوبين من حقوقهم. ورغم بشاعة جريمة واشنطن ونيويورك، ورغم الحق الشرعى للولايات المتحدة فى معاقبة المجرمين - الذين لم يجر تحقيق قضائى بعد لتحديدهم ومحاكمتهم -، فإن الحرب ضد الإرهاب ليست صراع حضارات. فالإرهاب لا يمتّ إلى أى حضارة أو إلى أى دين بصلة، خاصة عندما يستهدف أبرياء ومواقع مدنية آمنة. بل إن من مستلزمات مكافحته قيام حوار حضارى فى إطار الاحترام المتبادل. و يبقى فى الحسابات الاخيرة أن القمع لا يمنع الإرهاب. يمنع الإرهاب رفع الظلم وتحقيق العدالة وإنصاف المظلومين. ■

الهوامش:

(١) Walter laqueur, Terrorism , Boston , Little Brown.

(٢) الإرهاب فى العمل السياسى. أدونيس عكرة. بحث فى أصول الظاهرة وأبعادها الإنسانية - دار الطليعة - بيروت ١٩٨٣ - ص ١٠٢

(٣) Herald Tribune ١٩٨٤/١٢/١٨ .

(٤) مجلة المستقبل العربى - العدد ١٠٥ - ١٩٨٧ (مقابلة أجراها معه د. علاء طاهر)

(٥) وثائق الجمعية العامة للأمم المتحدة. تقرير اللجنة الخاصة بالإرهاب. ملحق ٣٧. (١/ ٣٤. ٣٧) الفقرة ١١٨

(٦) وثائق الجمعية العامة للأمم المتحدة. اللجنة الخاصة للإرهاب الدولى. مستند AC/A /١٦٠ ٤ - ٢٩ فبراير ١٩٧٩

(٧) قال بهذا المبدأ جورج كانان فى مقالة نشرتها له مجلة فورن افيرز الأمريكية فى عام ١٩٤٧ واعتمدته الإدارات الأمريكية المتعاقبة فى التعامل مع الاتحاد السوفياتى السابق.

(٨) ــــ Peter Waldman, Wall Street Journal , Feb ٣ , ٢٠٠٤.

(٩) عدد من أقطاب هذه الإدارة هم من تلامذة الدكتور لويس والمتأثرين به أمثال : اليوت ابرامز رئيس قسم الشرق الأوسط فى مجلس الأمن القومى الأمريكى وهارولد رود مستشار وولفويتز للشئون الإسلامية .

(١٠) جريدة النهار. ٢٠٠٤/٢/٤



١ - حياتى

أحمد أمين

فى الثلاثين من مايو الماضى، مرت الذكرى الخمسون لوفاة الدكتور أحمد أمين رائد الدراسات الإسلامية فى العصر الحديث الذى أرخ للحياة العقلية والفكرية للإسلام فى سلسلة مؤلفاته الشهيرة التى قال عنها طه حسين: «من ألف فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام أبقى على الأيام من أن يدركه الموت».

ولد أحمد أمين فى حى الخليفة بالقاهرة عام ١٨٨٦ ميلادية، وكان أبوه مدرسًا فى الأزهر وفى مدرسة الإمام الشافعى وإمام مسجد ، فتأثر بولعه بالكتب وبقوة عاطفته الدينية،كما تأثر بحياة الحارة القاهرية الصميمة التى نشأ فيها. وقد تنقل أحمد أمين فى تعليمه بين الكتاتيب التقليدية ومدرسة أم عباس الابتدائية بنظامها الحديث، ثم بين الدراسة الدينية الخالصة بالأزهر إلى مدرسة القضاء الشرعى التى أنشأها الإمام محمد عبده برعاية سعد زغلول باشا لتقوم بتدريس الثقافة الدينية والثقافة اللغوية الأدبية إلى جانب الثقافة القانونية العصرية والثقافة العلمية الحديثة. فتغير به طريقه من الأزهر إلى القضاء الشرعى إلى الجامعة، حيث أصبح فيها أستاذًا بكلية الآداب ثم عميدًا لها.

ومن آثاره الثقافية والوطنية المهمة تأسيسه للجنة التأليف والترجمة والنشر ومجلة «الثقافة»، و«إنشاؤه الجامعة الشعبية» (قصور الثقافة الآن). وقد أنهى أحمد أمين الجزء الثانى من مذكراته «حياتى» قبل عام من وفاته، والتى يروى فيها عن مراحل تفتح وعيه الدينى والسياسى والوطنى والمعرفى.



من الذى يكذب؟!

تقرير الإرهاب الأمريكى



محمـــود المـــراغـــى



■■ صدمتنى الكلمة «مصاحف مفخخة»!.. قرأتها مرة أخرى وتأكدت أنها ليست سيارات مفخخة وليس الحديث عن أشخاص انتحاريين يلفون المفرقعات حول جسدهم! هو القرآن، كتاب الله.. أما المصدر فهو: وزارة الخارجية الأمريكية، وعبر وثيقة جرى تدقيقها وهى تقرير «نماذج من الإرهاب فى العالم»، والذى تصدره الوزارة فى (أبريل. مايو) من كل عام، والعبارة جاءت فى آخر تقرير ومن خلال مقدمة كتبها السفير كوفر بلاك منسق محاربة الإرهاب.

أراد السفير أن يستفز القارئ فقال فى مقدمة حديثه إن الإرهابيين قد استهدفوا الكنائس والمساجد. خلال عام التقرير وهو ٢٠٠٣. والدليل ما جرى فى أفغانستان والعراق!؛ ثم يكمل أنه «من بين ما تم ضبطه لدى إرهابيى القاعدة فى العام الماضى نسخ من القرآن تضم قنابل.. مما يوضح. طبقًا لتعبيره. كيف أن هؤلاء يعادون كل البشر بصرف النظر عن العقيدة»!

هكذا قال الرجل، وهكذا علت علامات الاستفهام فإن كان الحديث صدقًا فلسنا أمام جماعات دينية، بل هى جماعات سياسية وهو صراع سياسى، وإن كان الكلام كذبًا. وهو ما أرجحه. فلماذا تكذب واشنطن فى هذه القضية الحساسة، ومن يصدق كذبتها الكبرى: مصحف مزود بالقنابل!



ويبدو أن ذلك العام سواء كان (٢٠٠٣) أو (٢٠٠٤) أو حتى ما قبل ذلك وابتداء من (١١) سبتمبر عام (٢٠٠١).. يبدو أنه عام. أو أعوام. الكذب والخديعة، لا نقولها نحن، ولكن يقولونها هم.. والمفتاح دائمًا «الإرهاب»، أى ما يتحدث عنه هذا التقرير.

صدر التقرير فى أبريل الماضى وبدأ تداوله فى مايو وسط انتباه الرأى العام للطرف الأخير من قصة الذين أطلقت عليهم واشنطن كلمة (إرهابيين) وهم. هذه المرة. «الذين يقاومون الاحتلال فى العراق»!

كان الحديث كله حول صور التعذيب فى العراق، لكن ذلك استدعى للأذهان صورًا أخرى لم تنشر وجرى إخفاؤها، وصورًا لم تتسرب بعد وتكشف موقعًا آخر، ربما يكون هو الأخطر لأنه وراء ستار حديدى فى جزيرة كوبية اسمها جوانتانامو، ويضم كثيرين ممن اختطفتهم واشنطن من دول عدة وليست أفغانستان وحدها!

لم تتسرب صور جوانتانامو وإن أفادت شهادات الذين تم الإفراج عنهم. وبينهم بريطانى يتحدث لصحيفة «الأوبزرفر» بأن هناك تسجيلات بالفيديو لما جرى، وأن إدارة السجن تحتفظ بهذه التسجيلات لترفعها إلى رؤسائها فى البنتاجون!

فى كل الأحوال كان خيط الكذب ممتدًا، فالرئيس ونائبه ووزير دفاعه ينكرون معرفتهم بما جرى فى سجن أبو غريب، والشهادات التى حصل عليها الكونجرس تقول إنهم كانوا يعلمون بل إن خطة التعذيب قد تم التصديق عليها من كل المستويات.

ورغم أن الكذب فى المجتمع الأمريكى جريمة كبرى حوسب عليها رئيس سابق هو كلينتون فإن مسلسل الصدمات التى تعرض لها بوش قد بدأ وانتهى بكلمة «إرهاب» وما تلا ذلك من تداعيات، فقرار العراق جرى التفكير فيه فى اليوم التالى لضربة سبتمبر، وعندما قال ريتشارد كلارك مستشار البيت الأبيض للإرهاب حينئذ: إنها القاعدة وليست العراق، قال بوش. طبقًا لرواية الأخير فى كتابه الذى هز الولايات المتحدة. «بل ابحث عن دور صدام حسين». وعندما قيل للجنرال (أبى زيد): استعد للعراق، ولم يكن قد استقر به الحال فى أفغانستان أزيد وارغى فكيف يحارب فى جبهتين فى وقت واحد، لكنها الأوامر والتى اضطر لتنفيذها.



فى وقت لاحق، جاءت ثلاثة كتب مهمة أصدرها وزير المالية السابق بول أونيل الذى عمل شهورًا مع بوش، وكلارك الذى نتحدث عنه، وبوب وودوارد الصحفى الشهير الذى أسقط نيكسون بفضيحة (ووترجيت).. والكتب الثلاثة أفصحت عما جرى وأن قرار الاحتلال للعراق كان يجرى التحضير له قبل ١١ سبتمبر، وأنه لا علاقة له بأسلحة دمار شامل أو تنظيمات إرهابية، وعلى عكس ذلك يجئ تقرير (الإرهاب فى العالم) هذا العام ليشير إلى أن أول مكاسب الحرب فى العراق هو القضاء على الإرهاب، بل إن عملية «تحرير العراق» وهذا هو الاسم الأمريكى للحملة «هى الآن العملية المركزية للحملة العالمية على الإرهاب». هكذا تنظر الخارجية الأمريكية لاحتلال دولة عربية، وهى فى تقريرها تشير لثمرات أولى حين جرى القبض على صدام حسين، وحين جرى إغلاق معسكر للتدريب تابع للقاعدة. كما يقولون. فى شمال العراق إضافة لمطاردة رجال مصعب الزرقاوى الذين تدربوا على الحرب الكيماوية وإضافة للغارات التى كانت قد قصفت فى بداية الغزو معسكر (أنصار الإسلام).

حملة العراق، طبقًا للخارجية جزء من حرب الإرهاب التى دخلتها واشنطن متأخرة طبقًا للشهادات الأخيرة التى أدلى بها (كلارك) وقال فيها أن معلومات كانت متوافرة قبل ١١ سبتمبر وأن هذه المعلومات كانت تشير لحادث جلل سوف يجرى بواسطة الطيران.

ومرة أخرى ردت الإدارة الأمريكية بأنها «لم تعلم» و«لم تقصر» و«لم تتآمر»، واختلفت الآراء: من الذى يكذب؟ الرئيس بوش أم الرجال الذين عملوا معه؟

على أى حال وأيًا كان الصدق والكذب فى عام الانتخابات، فقد كان علينا أن نصدق الكثير مما جاء فى تقرير الإرهاب لأنه (شهادة المفعول به) فى بعض الأحيان فقد كانت هناك عمليات عنف أغلبها ضد الولايات المتحدة، وكانت هناك عمليات رصد لعمليات أخرى مما يتيح لنا أن نتساءل عن حصيلة عامين ونصف من حرب الإرهاب.. وأن نعرف العائد والتكلفة؟.. ماذا كسبت أمريكا؟.. وماذا كسب العالم؟.. وما هى الخسائر التى تحققت عن طريق (الإرهابيين) أو كتكلفة دفعتها الجيوش ودفعتها الدول؟

فى بند الخسائر البشرية يأتى الرقم الأول الذى يذيعه التقرير، فقد بلغ عدد العمليات المصنفة كإرهاب دولى خلال عام ٢٠٠٣: (١٩٠) عملية. كانت آسيا فى المقدمة، واحتلت المركز الأول فى عدد العمليات منتزعة الأولوية من أمريكا اللاتينية التى شهدت القسط الأكبر من العمليات فى السنوات الماضية.

وكان عدد القتلى طبقًا للتقرير هو (٣٠٧) أشخاص، والجرحى (١٥٩٣)، أما

The Year in Review:
Patterns of Global Terrorism
نماذج من الإرهاب فى العالم
Office of the Coordinator for Counterterrorism, Us Department of State, April 29, 2004

الذى تلقى أكبر قدر من الضربات وكالمعتاد منذ فترة طويلة فهى الولايات المتحدة الأمريكية التى جرى استهدافها فى ٨٢ حادثاً وهو ما لم يصب دولة أخرى فى العالم.. ولكن ضحايا الولايات المتحدة من قتلى لم يتجاوزوا ٣٥ شخصاً، بدت قصصهم. بسبب ضآلة العدد. كأنها مبارزة بالسيف فى زمن اختفت فيه السيوف، أو كأنها صيد للعصافير فى غابة طارت منها كل العصافير فلم يبق غير هذا العدد المحدود.

القتلى فى كل العمليات وطبقاً للتقرير ٣٠٧ أشخاص، بينهم ٣٥ أمريكياً: ميشيل رينيه ذو الواحد والعشرين ربيعاً الذى تم قتله برصاص قناص فى الكويت، وتوماس جانيس قائد الطائرة التى أسقطتها جماعة القوات المسلحة فى كولومبيا، ووليم هايد الذى قتلته قنبلة فى انفجار بمطار بالفلبين.. و.. هكذا اهتم التقرير بتسجيل أسماء الضحايا واحداً بعد الآخر مع ذكر ملابسات كل حادث.

ولكن، يلفت النظر أنه من بين الـ ٣٥ قتيلاً كان هناك واحد وثلاثون قد سقطوا فى دول عربية، واثنان لقيا مصرعهما فى أفغانستان.

أيضاً، يلفت النظر أن نصف الذين ماتوا فى دول عربية قد سقطوا فى عمليات فلسطينية، بينما سقط تسعة فى السعودية، وخمسة فى العراق.. و.. لا يهم التركيز على هذه القصة، لكن المهم هو دلالة الأرقام فقتلى الولايات المتحدة، بل وقتلى مختلف الجنسيات فى جميع أنحاء العالم لا يعادل قتلى غارة أمريكية واحدة فى العراق أو أفغانستان.

التقرير يخلو من ذكر أى شىء عن خسائر الأطراف الأخرى التى أصابتها حرب الإرهاب، حتى لو كانت الخسائر. وهى الحقيقة. على جبهة المدنيين فى معظم الأحوال.

وهكذا بدت الصورة لما جرى عام ٢٠٠٣، والذى جرت نسبته لـ ٣٧ جماعة وصفها التقرير. طبقاً لتعريف يحدده القانون الأمريكى. بأنها «إرهابية»، إضافة لأربعين جماعة أخرى كامنة أو باتت على الهامش.



فى التفاصيل. والهجمات أكثر من عدد القتلى. كان هناك خلال العام ٤٦ هجوماً على أهداف أمريكية فى أمريكا اللاتينية حيث المصالح البترولية الأمريكية فى الأساس، وحيث تحرص التنظيمات المعادية (ومعظمها ماركسى) على ألا تصيب البشر (فالإنذار المادى يكفى لتبليغ رفضهم لواشنطن). بعدها، وطبقاً للتقرير جاء دور غرب أوروبا وفيها جرى استهداف ١٦ موقعاً أمريكياً، ثم جاء الشرق الأوسط: ١١ موقعاً، فآسيا: ٦ مواقع.. ومعظم الهجمات كانت بالقنابل، وأقلها حوادث خطف. أيضاً، كانت دوائر الأعمال هى الأكثر استهدافاً، وكانت الأهداف العسكرية هى الأبعد منالاً.

الأهم هى الصورة العامة التى وصفها منسق شئون الإرهاب بأنها جيدة (لأن العمليات تتراجع)، والصورة التى نعنيها هى منحنى العمليات طوال الفترة الماضية، قبل وبعد سبتمبر، قبل وبعد حرب الإرهاب، التى باتت حرباً عالمية من طراز جديد.

كانت عمليات العنف بين صعود وهبوط طيلة العشرين عاماً الماضية. بلغت ذروتها عام ١٩٨٧: (٦٦٥) عملية وبلغت أدناها فى العام الماضى: (١٩٠) عملية. صعدت فى عام تحرير الكويت فسجلت (٥٦٥) عملية عام ١٩٩١. ثم تراجعت فى العام التالى إلى ٣٦٣ عملية، وعادت للصعود حتى بلغت ٤٢٦ عملية عام ٢٠٠٠ وبدأ الاتجاه للنزول طيلة السنوات الثلاث التالية أى قبل حرب الإرهاب وبعدها.

خلال ذلك لم يكن أكبر عدد من الضحايا فى حادث ١١ سبتمبر، بل كان قبلها فى أفريقيا حيث بلغ عدد ضحايا أفريقيا (بين قتيل وجريح) (٥٣٧٩) عام ١٩٩٨. بينما بلغت ضحايا أمريكا الشمالية عام ٢٠٠١: (٤٤٥٩)، ونلاحظ هنا أن التقديرات الخاصة بـ ١١ سبتمبر قد تراجع فيها عدد القتلى أكثر من مرة حيث بدأ بستة آلاف وهبط فى التقرير الأخير لما دون الثلاثة آلاف.

السؤال: وماذا عن الشرق الأوسط الذى تثار حوله الضجة، والذى شهد أحداثاً جسيمة على أرض السعودية والمغرب وتونس، إضافة لما هو ناشب من حروب فى العراق وفلسطين.



التصاعد جاء دائماً مصاحباً لتزايد الضربات الإسرائيلية على أرض فلسطين، ومع احتلال العراق ومع تفجر تناقضات داخلية فى بعض الأنظمة، والارتباط بالعوامل السياسية هنا واضح حتى أن نشأة التنظيمات التى تمارس العنف. والتى يصفها التقرير بأنها إرهابية. قد جاءت مصاحبة لتطورات القضية الفلسطينية. فى أواخر الستينيات. وبعد حرب ١٩٦٧. نشأت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية، وفى عام ١٩٧٤. بعد حرب ٧٣. جاءت حركة (أبو نضال)، وفى عام ١٩٨٢. ومع احتلال لبنان. جاء حزب الله ثم جاءت حركة حماس عام ١٩٨٧، وجاءت كتائب شهداء الأقصى مصاحبة للانتفاضة الفلسطينية الأخيرة، ولم تبدأ الجماعة الإسلامية المسلحة فى الجزائر نشاطها. طبقاً للتقرير. إلا فى عام ١٩٩٢ بعد الواقعة المشهودة بكسب التيار الإسلامى لانتخابات المحليات ثم التدخل لإجهاض هذا المكسب.

السياسة إذن هى الأصل، وهو الأمر نفسه فى معظم التنظيمات التى جرى تصنيفها كجماعات إرهابية. (الباسك) فى إسبانيا تريد الانفصال. وجماعة (أبو سياف) فى الفلبين تريد دولة إسلامية مستقلة فى جنوب البلاد، وهو ما تطلبه أيضاً جماعة (أنصار الإسلام) فى المنطقة الكردية بالعراق وحتى وقت قريب هو (ديسمبر ٢٠٠١). أما الجيش الأيرلندى فقصته معروفة، ونفس الشىء بالنسبة لحزب العمال الكردستانى.. وغيره.

السياسة هى الأصل، والخلاف العرقى أو المذهبى. والذى نحمله معنا منذ عشرات السنوات. سبب رئيسى للعنف الذى طالما عالجته الدول بأساليب شرطية بعيداً عن استخدام الجيوش والطائرات وإعلان الحروب. لكن التقرير ينكر ذلك، ولا يقترب منه بل إنه يتجاهل كل أسباب العنف التى باتت حافزاً لكثير من الحركات فى العالم. ينكر وجود مظالم وحالات احتلال واضطهاد عرقى، وكلها عوامل تحرك العنف دون شك، لذا فإن التقرير بعد اجتيازه لأزمة المصداقية التى تواجه كل الأدبيات الرسمية فى الولايات المتحدة وعبر معلومات بعضها حقيقى وبعضها يثير علامات استفهام، بعد ذلك يدخل إلى أزمة ثانية هى أزمة المفاهيم.

تشير التقارير المتوالية حول الإرهاب الدولى والتى تصدرها وزارة الخارجية الأمريكية إلى أنه لم يحظ أى تعريف للإرهاب بقبول دولى، ومع ذلك. يقول: «فإنه من أجل الغرض من هذا التقرير اخترنا تعريف الإرهاب الذى تتضمنه المادة ٢٢ من القانون الأمريكى القسم ٢٦٥٦» ويقول: «إن الإرهاب يعنى العنف المتعمد بدوافع سياسية ويجرى ارتكابه ضد أهداف غير محاربة بواسطة جماعات شبه قومية أو عملاء سريين، ويفسر غير المحاربين بأنه يتضمن المدنيين والعسكريين الذين يكونون وقت الحادث غير مسلحين أو خارج الخدمة وكذلك المنشآت العسكرية أو العسكريين فى حالة عدم

فى كل الأحوال كان خيط الكذب ممتداً، فالرئيس ونائبه ووزير دفاعه ينكرون معرفتهم بما جرى فى سجن أبو غريب، الشهادات التى حصل عليها الكونجرس تقول إنهم كانوا يعلمون بل إن خطة التعذيب قد تم التصديق عليها من كل المستويات



وجود أعمال عدائية فى تلك المواقع مثل التفجيرات ضد القواعد الأمريكية فى أوروبا والفلبين وأماكن أخرى».

هذا هو التعريف الرسمى، وليست القصة هى (التقرير) لكن القصة هى (القرار) فعندما يجرى تصنيف جماعة ما بأنها إرهابية يجرى استباحة دم أعضائها، ويجرى الحصار القانونى والمالى من حولها، وهو الأمر الذى دعا الخارجية الأمريكية لأن تشير لمساندة العراق للنشاط الإرهابى وتشجيعه بسبب قرار اتخذه صدام حسين بصرف إعانة تتراوح بين عشرة آلاف وخمسة وعشرين ألف دولار لكل أسرة استشهد عائلها فى فلسطين، بل إن نفس الأمر هو الذى دفع كلاً من الأردن والكويت بأن تجمد . طبقًا للتقرير . أموال منظمة حماس، فهل كانت مقاومة الاحتلال على أرض فلسطين عملاً إرهابياً رغم ما ينص عليه القانون الدولى وتنص عليه قرارات الأمم المتحدة حول (حق مقاومة الاحتلال بكافة الوسائل)؟ الإجابة واضحة. إنها أزمة المفاهيم، فكلهم عند الولايات المتحدة (إرهابيون) ولا تبرئ واشنطن ساحتهم إلا عندما يضعون السلاح وتصبح إسرائيل وحدها فى الساحة!



يقول السفير فرانسيس تايلور المنسق السابق لمكافحة الإرهاب وحين سئل فى مؤتمر صحفى حول سوريا ولبنان ارتباطًا بهذه المفاهيم «لقد أخبرنا سوريا بما نشعر به حول سلوكها كدولة راعية للإرهاب، وبالنسبة للبنان فهم يعتبرون حزب الله حركة تحرير ونحن نعتبرها إرهابا»، وقد تطور ذلك كما هو معلوم بالنسبة لسوريا التى جرى فرض العقوبات عليها أخيراً بسبب إيوائها لمكاتب منظمات فلسطينية إضافة لمساندة حزب الله والاتهام بحيازة أسلحة كيماوية.

(أزمة المفاهيم) . كما قلت . ليست مشكلة التقرير، لكنها مشكلة (القرار) فقد تحكمت فى الخطط الأمريكية وغير الأمريكية رغم أنها مجرد امتداد تلقائى للخطط الأمنية الجديدة فى الولايات المتحدة والتى يشير جزء منها للتالى:

● أولاً: ألا تكون هناك قوة فى العالم تهدد الولايات المتحدة أو تقترب من قوتها . تستوى فى ذلك الدول . أعداء وأصدقاء . وتستوى الجماعات والأفراد التى تملك قدرات عسكرية.

● ثانيًا: إنه فى حالة «الاشتباه» بوجود خطر، أو وجود قوة صاعدة تهدد فإن الجيش الأمريكى يقوم بحرب إجهاضية أو استباقية، يذهب فيها للخصم فيعذبه فى معقله قبل أن يتحرك.

● ثالثًا: إن الشرعية التى يستند عليها تحرك الولايات المتحدة هى شرعية (الأمن القومى الأمريكى)، ومن ثم فإنها .وفى التطبيق العملى. هى شرعية القوة فى مواجهة شرعية القانون وما قد يفرضه المجتمع الدولى.

على أساس هذه القواعد الثلاث، وبانتشار عسكرى أمريكى واسع فى جميع أنحاء العالم، دخلت واشنطن ما أسمته حرب الإرهاب التى وصفتها منذ البداية بأنها حرب ممتدة زمنيًا (ربما عشر سنوات) وجغرافياً (إلى كل مكان يتواجد فيه الإرهاب).

لقد سقطت فكرة الحدود السياسية والسيادة الإقليمية للدول وحتى توفر واشنطن غطاءً دولياً لحملتها الأولى ضد أفغانستان فقد راحت تستثمر ١١ سبتمبر وكما يقول تقرير الإرهاب عن عام ٢٠٠٢ فإن:

● هناك ١٣٦ دولة عرضت مساعدات عسكرية على الولايات المتحدة

● و ٨٩ دولة منحت حق التحليق للطائرات العسكرية

● و٧٦ دولة منحت حق الهبوط لهذه الطائرات

● و٢٣ دولة وافقت على استضافة القوات الأمريكية وقوات التحالف المشاركة فى حرب أفغانستان.

● وقد عززت قوات من ٥٥ دولة القوات الأمريكية فى المجهود الحربى!

إنها حرب عالمية بالفعل، وإن كانت من طرف واحد لأن الطرف الآخر مجرد أفراد وجماعات هائمة على وجوهها فى الجبال والصحارى والكهوف والشقق المفروشة، وهم أفراد وجماعات. وإن كانت بعض حركاتهم عابرة للحدود . لكنهم عاشوا معنا نطاردهم بالشرطة إن تصادموا مع أهداف المجتمع، ونحتفى بهم إن لعبوا دور (نائب الفاعل) فى مواجهة عدوان إسرائيلى أو غير إسرائيلى.

إنها حرب (اللامعقول) اختارت لها واشنطن موقعين هما الأضعف فى العالم. أفغانستان التى لم تجد تقارير البنك الدولى أكثر من سطور كمعلومات متوافرة عما يجرى بها، والعراق التى أنهكها حصار وحرب الـ ١٢ عاماً ومنذ عام ١٩٩١ . و.. بينما استطاعت واشنطن (تجييش) العالم معها فى الحرب الأولى وبدعوى حماية الحضارة الإنسانية، لم تتمكن من ذلك فى العراق وإن استمر الخلط بين (حرب إرهاب) وحرب (احتلال أرض ونفط وشعب).

ولكن، وما بين الحربين أرست واشنطن سوابق حديثة فى العلاقات الدولية. أرست قاعدة القتل بالاشتباه، وأرست قاعدة المرجعية الدولية لعاصمة واحدة يكون لها حق القبض على مواطنى الدول الأخرى، وترحيلهم. ربما بواسطة حكوماتهم . وإخضاعهم للاعتقال والاستجواب وعزلهم عن العالم!





إن الشرعية التى يستند عليها تحرك الولايات المتحدة هى شرعية (الأمن القومى الأمريكى)، ومن ثم فإنها . وفى التطبيق العملى . هى شرعية القوة فى مواجهة شرعية القانون وما قد يفرضه المجتمع الدولى



و.. هكذا جرى تسليم الكثيرين للولايات المتحدة ممن حددت هى أسماءهم، وهكذا أيضًا . وطبقًا للروايات الصحفية . تم نقل عدد منهم لتعذيبه واستجوابه فى عواصم عربية لانتزاع الاعترافات منه، بل وهكذا خرجت طائرة أمريكية تابعة للمخابرات الأمريكية وبدون سائق لتقصف سيارة يمنية وتقتل مشتبهاً فيه اسمه (سفيان الحارثى) ومن معه دون اعتراض من الحكومة اليمنية. كان ذلك فى أواخر عام ٢٠٠٢ . وحين سألوا رامسفيلد عن مقتل الحارثى حينذاك كان تعليقه (إن التخلص منه أمر طيب للغاية).

ماذا فعل الحارثى؟.. ولماذا لم تقبض عليه حكومته وتحاكمه إن كان قد خالف القانون؟

إنها عينات من حرب الإرهاب التى يقول تقرير الخارجية الأمريكية إنها قد خططت لها بعناية، دبلوماسيًا، وقانونيًا، ومخابراتيًا، وماليًا، وعسكريًا، ووفق مبادئ محددة لأزمة لهزيمة المنظمات (الإرهابية) ومن خلال «مهاجمة ملاجئهم، قياداتهم، مواصلاتهم، دعمهم المادى.. مع رفض قبولهم كلاجئين وحصار الدول التى تشجعهم أو تؤويهم. دخل اللعبة حلف الأطلنطى وأنشأ قوة أمنية تعمل فى أفغانستان، كما وفر رصداً لما يحدث فى البحر الأبيض، ووحدة دفاع بيولوجى وكيماوى ونووى، ووحدة مخابرات، وفى عام ٢٠٠٣ وافقت قمة إيفيان للدول الصناعية على تأسيس مجموعة عمل ضد الإرهاب، ومثل ذلك فعلته الدول الأمريكية ومجموعات دولية أخرى، كما أنشأت الولايات المتحدة مركزاً متكاملاً للعمل ضد الإرهاب، ومركزاً آخر للرصد وتزويد الشاشات بالمعلومات، وطبقًا للتقرير فإن ١٧٣ دولة قد أصدرت أوامر بتجميد أصول يشتبه ملكيتها لعناصر إرهابية، ومائة دولة أصدرت تشريعات بخصوص الحصار المالى.

وهكذا فإن العمل جرى على جميع الجبهات، والاعتمادات المالية مفتوحة ومن ثم فقد أصبح . طبقًا للتقرير. «معظم قيادات القاعدة بين قتيل أو سجين، وبلغ عدد من تم اعتقاله منهم. حتى ديسمبر الماضى، ٣٤٠٠ شخص، وكان من أبرز العمليات القبض على خالد شيخ محمد فى مارس ٢٠٠٣، وقد تم اعتقاله فى باكستان وجرى تسليمه لواشنطن كما تم . فى أغسطس القبض

على شريك له. طبقًا لدعاوى التقرير. وهو رضوان بن عصام الدين (حمبلى) وكان ذلك فى تايلاند وجرى تسليمه، والأول متهم بالتخطيط لـ ١١ سبتمبر والتى لم تعقد لها محاكمة شاملة حتى الآن) والثانى متهم فى هجمات جزيرة بالى بإندونيسيا».

الحملة إذن مستمرة، وكما يقول السفير كوفر بلاك أنها قد «أحرزت تقدمًا كبيرًا لكن النجاح الكامل يتوقف على إرادة سياسية دولية وبناء قدرات فعالة».. و.. فى مجال بناء القدرات وبعد الإشادة بجهود دول عربية مثل اليمن والسعودية ومصر يشير التقرير أنه خلال العشرين عامًا الماضية قامت الولايات المتحدة بتدريب ٣٦ ألف مواطن من ١٤٢ دولة على مكافحة الإرهاب.

.. السؤال هنا: وماذا أسفرت عنه هذه الجهود؟.. وماذا كان العائد لانتقال أسلوب المواجهة من أعمال شرطية عرفتها بلاد كثيرة مثل مصر، إلى أسلوب المواجهة بالجيوش والطائرات واحتلال الأراضى؟

كان عدد الهجمات التى تعرض لها العالم عام ١٩٨٢: ٤٨٧ هجومًا، وارتفع العدد إلى ٦٦٥ هجومًا عام ١٩٨٧ ثم تراجع تدريجيًا إلى أن بلغ ١٩٠ هجومًا فى العام الماضى.

لقد انخفض عدد العمليات لكنها ازدادت ضراوة وجرى تزويدها بالتكنولوجيا المتقدمة ابتداء من الحواسب الإلكترونية وامتدادًا لما تقدمه الأسلحة الكيماوية والبيولوجية.

حدثت مواجهات كثيرة، وغاب الحوار.. بل جاءت الحرب وغابت السياسة، فهل كانت حرب الإرهاب التى أعلنتها واشنطن. ورغم وجود ظاهرة عنف تصيب كثيرًا من الأبرياء وتهز بعض المجتمعات. هل كانت الحرب الخطأ، فى المكان الخطأ، فى التوقيت الخطأ؟.. هل كانت قضية حق يراد بها باطل؟.. وهل كانت مقصودة لذاتها، أم أنها كانت حلقة فى بناء الإمبراطورية الأمريكية، وحجة تتسلل من عباءتها الجيوش لتعبر الحدود وتنشر القواعد.. وتنشر الرعب أيضًا؟.. وأى عنف من الاثنين. عنف الدولة وعنف الأفراد. استدعى الآخر؟

مع حملة الإرهاب، جاء. كما أسلفنا. «القتل بالاشتباه»، ومعها، سقط حكم القانون، ومن خلالها برز ما يمكن تسميته بدبلوماسية الأوامر، حيث تريد واشنطن إعادة صياغة سياسات الدول الأخرى متذرعة بما أسمته الإرهاب، وهو الحال مع سوريا التى تستضيف عددًا كبيرًا من اللاجئين الفلسطينيين، والتى باتت تهمتها: رفض سياسة إسرائيل فى الاحتلال والتوسع وإذا لم ترتدع فهى العقوبات و(قانون محاسبة سوريا).

حرب الإرهاب مازالت مستمرة، وقد طلبت القوات الجوية الأمريكية (وليست وزارة الخارجية) دراسة من مؤسسة راند البحثية حول مناخ الشرق الأوسط ومستقبله من الناحية الأمنية، فجاءت نتيجة البحث الذى صدر مؤخرًا لتقول إن عوامل «عدم الاستقرار هى السائدة فى السنوات القادمة»، فهل يرجع ذلك لجماعات العنف. وقد اتسعت أعمالها. أم يرجع للوجود الأجنبى والممارسات الظالمة وحرب الإبادة التى تتم فى بلدان كثيرة وليست أفغانستان أو العراق أو فلسطين فقط؟

الارتباط قائم بين الأمرين، ولكن بعد عامين ونصف من حرب أفغانستان مازال تنظيم القاعدة، بل عناصر من طالبان يطلان على الساحة. أيضًا، وبعد عام وبضعة أسابيع على حرب العراق مازالت القيادة العسكرية تطلب تعزيزات جديدة وتعجز فى إخماد المقاومة.

إنها الحرب المفتوحة والمقصودة، فالجيش الأمريكى الذى يزيد عدده على المليونين والذى لا ينافسه فى العالم غير الجيش الصينى لابد أن يكون فى حالة عمل دائم. هذه هى الفلسفة، وهى السياسة منذ كانت حرب الخليج الثانية. الجيش لابد أن يعمل. وامتلاك القوة يغرى باستخدامها، أما الأهداف وأما إرهاب الدولة فتلك قصة أخرى. ■



الخيبـــــة!

تــــومـــــاس بـــــاورز

[١]

تمر وكالة المخابرات المركزية هذه الأيام بأزمة طاحنة - وهى الثانية خلال نصف قرن منذ إنشائها فى ١٩٤٨ بهدف أساسى وهو خدمة الرئيس. والآن لا يتم تنصيب مديريها إلا بموافقة مجلس الشيوخ، وهم ملزمون بتقديم تقارير منتظمة حول نشاطاتهم إلى لجان الاستخبارات فى الكونجرس. ولكن هذه الرقابة لم تحد من سلطات الرؤساء لاستغلال وكالة المخابرات المركزية كما يشاءون. فى العهود الماضية استغل الرؤساء وكالة المخابرات المركزية لتنفيذ حروب ضد الشعوب الأجنبية ولاغتيال الزعماء الأجانب ولجمع الأموال من أجل القيام بحروب سرية وحتى - كما فى فضيحة وترجيت- لمحاولة إبطال تحقيقات مكتب التحقيقات الفيدرالى فى نشاط فريق سطو على المنازل يديره البيت الأبيض. والأزمة الحالية نتيجة حملة يديرها البيت الأبيض لتبرير الإطاحة بصدام حسين وذلك بالاستشهاد بتقارير استخباراتية تتحدث عن ترسانة عراقية من أسلحة الدمار الشامل وتطوير برامج لصناعة المزيد. ولكن بعد سقوط بغداد فشل فريق من الوكالة مؤلف من أكثر من ألف شخص فى إيجاد أسلحة الدمار الشامل مما حدا برئيسهم ديفد كاى بعد ستة أشهر من العمل الميدانى إلى استنتاج توقف أبحاث وبرامج تطوير العراق منذ سنوات طويلة.

بترتيب مع: نيويورك ريفيو أوف بوكس (٢٩ أبريل ٢٠٠٤)

ترجمة: بثينة الناصرى

إن هذا الفشل الجلى للاستخبارات الأمريكية هو موضوع تحقيقات متعددة مستمرة ومن المتوقع أن يكون موضوعا مثيرا للجدل لسنوات عديدة قادمة. وقد ضاعف من هذه الخيبة عثور فريق كاى فعلا على مخازن فارغة ومصانع ومعامل معطلة إضافة إلى شواهد واضحة على أن النظام كان فى سنواته الأخيرة يعانى من الفساد، واليأس والتفكك. ويبدو أن وكالة المخابرات المركزية لم تكن فقط غافلة عن حقيقة الأوضاع فى بغداد حيث كان يتم استغلال برامج أسلحة دمار شامل وهمية لابتزاز مبالغ طائلة من صدام حسين، ولكن قسم التقديرات فى الوكالة قد ذكر أيضا فى أكتوبر ٢٠٠٢ و بثقة عالية وجود مخاطر حقيقية ومرعبة وماثلة للعيان و لكن لم يكن لها وجود فى الواقع. وينصب الجدل الشعبى وتحقيقات الكونجرس على هذين الخيبتين. كيف يمكن لوكالة المخابرات المركزية بميزانيتها التى تقدر بالمليارات ويعمل فيها حوالى ٢٠ ألف موظف أن تخطىء هذا الخطأ الشنيع؟ ولكن هناك سؤالين منفصلين هما فى رأيى أكثر أهمية وقد تجنبهما المراقبون والمحققون على السواء. هل استجاب مدير وكالة المخابرات المركزية جورج تينيت والمسئولون الكبار فى الوكالة لضغوط البيت الأبيض من أجل تقديم تقديرات تخدم تصميم الإدارة على شن الحرب؟ هل كانت الإدارة تنوى منذ البداية استخدام هذه التقارير الاستخباراتية المخيفة كأداة فظة من أجل انتزاع موافقة الكونجرس على الحرب؟

فى كتابه الجديد، وصف ريتشارد أى كلارك وهو موظف حكومى مسئول عن جهود البيت الأبيض لمحاربة الإرهاب أثناء إدارتي كلينتون وبوش، الحرب فى العراق بأنها مغامرة عسكرية غير ضرورية على الإطلاق وقد اتهم إدارة بوش بالتلكؤ فى إدراك التهديد الذى يمثله أسامة بن لادن. فى كتابه «ضد كل

الأعداء» يقول كلارك إن الرئيس بوش حوّل الوضع من سيئ إلى أسوأ بكثير بقيامه بغزو غير مبرر للعراق ساحبا معه الولايات المتحدة على طريق اضعفنا وعزز الجيل القادم من القاعدة.

ولكن أكثر الأسئلة التى يثيرها كلارك إحراجا هو كيف أن وكالة المخابرات المركزية وقد حذرت إدارة بوش بشكل عاجل من هجمة إرهابية قادمة فى صيف ٢٠٠١، قد اتبعت هذا الإنجاز الماهر بادعاءاتها المتكررة والواضحة بأنها وجدت أسلحة دمار شامل عراقية لم تكن موجودة أصلا؟ و جواب كلارك على هذا التساؤل يجب أن يدفع كل أمريكى إلى التأمل.

فى اليوم التالى على الهجمات المدمرة على البنتاجون ومركز التجارة العالمى، يقول كلارك إنه دخل فى سلسلة مناقشات حول العراق فى البيت الأبيض ولم تكن حول القضاء على القاعدة على العكس أدركت وأنا أشعر بألم عضوى حاد بأن رامسفيلد وولفوفتز ينويان استغلال كارثة قومية لتسويق أجندتهم حول العراق.

إن المضمون واضح: لقد جاءت مسألة «القضاء على العراق» حسب تعبيرات رامسفيلد على لسانه أولا ثم تبعها بعد ذلك بشهور طويلة فى خريف ٢٠٠٢ ما قدمته وكالة المخابرات المركزية من دلائل حول أسلحة الدمار الشامل.

إن التحقيق فى أصول حرب العراق سيكون مؤلما ومحرجا ولكن إذا أخذ بمأخذ الجد فإن ذلك سيعلم الأمريكيين الكثير حول نوعين من المخاطر تمثلها الهيئات الاستخباراتية للأمم التى تستخدمها. الأول معروف ومفهوم للجميع وهو الاستخبارات الخاطئة عن قضايا مهمة. فى أوائل نصف قرنها أخطأت وكالة المخابرات المركزية فى أشياء كثيرة. فى عام ١٩٤٨ وجه إليها الكثير من النقد لفشلها فى التنبؤ بانقلاب فى كولومبيا نتجت عنه حرب أهلية لم تنته حتى الآن. فى عام ١٩٥٠ فشلت فى توقع تدخل الصينيين فى الحرب الكورية. وهو خطأ كاد أن يطيح بالجيوش الأمريكية خارج شبه الجزيرة تماما. فى ١٩٦٨ فوجئت الوكالة بالغزو الروسى لتشيكوسلوفاكيا. وهو خطأ تكرر فى ١٩٧٩ عندما فشلت الوكالة فى توقع الغزو الروسى لأفغانستان. وعلى مدى السنوات العشر التالية استمر المخمنون فى إصدار تحذيرات جديدة من القوة والنوايا السوفيتية تقريبا حتى اللحظة التى سقط فيها جدار برلين الذى اعتبر النهاية الحقيقية للحرب الباردة، وهو حدث تبعته مفاجأة أخرى، الانهيار الحقيقى للاتحاد السوفيتى ذاته وتفككه.

ولم يتبع أى من هذه الخيبات كارثة كبرى بحجم بيرل هاربور، وأعتقد أن الجميع كانوا صادقين اعتمادا على القراءة الخاطئة لأوراق الشاى(١). ليس من الصعب أن تتوقع حتمية حدوث أشياء ولكن من الصعب جدا أن تعرف متى. لقد صارعت وكالة المخابرات المركزية طويلا مع صعوبة التوقع ولكنها لم تجد أبدا طريقة لتخمين احتمالية حدوث الأشياء الكريهة التى يخشاها الجميع. وقد تعلم المخمنون اختيار الحذر كأفضل سبيل، رغم حتمية وقوع أخطاء فى أوقات متفاوتة. ومن قائمة توقعات الأحداث المرعبة الطويلة تتحقق بعض هذه التوقعات أحيانا.





جاءت مسألة «القضاء على العراق» حسب تعبيرات رامسفيلد على لسانه أولا ثم تبعها بعد ذلك بشهور طويلة فى خريف ٢٠٠٢ ما قدمته وكالة المخابرات المركزية من دلائل حول أسلحة الدمار الشامل



نوع ثان من المخاطر التى تمثلها هيئات الاستخبارات وهو أصعب فى إثباته وأصعب فى الإقرار به خاصة فى دولة ديمقراطية. وهو استغلالهم من قبل الهيئة التنفيذية فى الحكومة كأدوات للقهر الداخلى. كان الرئيس ريتشارد نيكسون يؤمن دائما بأن وكالة المخابرات المركزية منحازة إلى الليبراليين ولهذا أمدت جون كنيدى بالمعلومات التى ساعدته على كسب انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٠. ولكنى لم أستطع الحصول على معلومات تؤيد ذلك رغم أن ذلك لايعنى أن نيكسون كان مخطئا. ويمكن أن نجد مثالا أوضح فى صيف ١٩٦٤ عندما فوضت إدارة الرئيس ليندون جونسون وكالة المخابرات المركزية للقيام بعمليات عدوانية من أجل إنزال فرق تخريب فيتنامية جنوبية فى فيتنام الشمالية فى حين كانت المدمرات الأمريكية تقوم بدوريات قريبة فى خليج تولكين. وربما يكون الفيتناميون الشماليون قد هاجموا المدمرات فى ليلة من ليالى أوائل شهر أغسطس ولكن بالتأكيد كانت الهجمة الثانية خيالية ولكنها استخدمت كمبرر لشن هجمات جوية على فيتنام الشمالية واستغلت للدفع باتجاه إصدار قرار متسرع من الكونجرس قبل فيما بعد إن الرئيس جونسون استند إليه كتفويض لشن الحرب على فيتنام.

إن الوكالة تعمل فى خدمة البيت الأبيض بنفس الطريقة التى تخدم بها وكالة الاستخبارات العسكرية وزير الدفاع ولم يشك أحد ممن قرأ تخمينات وكالة الاستخبارات العسكرية حول برامج الصواريخ السوفيتية خلال الحرب الباردة أن الهدف من التهديد هو تبرير شراء وبناء وتطوير أى شىء مدون على قائمة رغبات وزير الدفاع. هل يمكن أن نسمى تضخيم ما يريدونه عملا غير شريف إذا كان محتوما لايمكن تفاديه؟

يمكن كتابة كتاب كبير حول هذا الموضوع ولكن لأغراضنا هنا نكتفى بالقول بأنه لا يمكن لامرئ أن يفهم ناهيك عن أن يتوقع سلوك وكالة المخابرات المركزية إذا لم يكن يدرك أن الوكالة تعمل من أجل خدمة الرئيس. ولم أقع على أى استثناء من هذه القاعدة. وعمليا هذا يعنى أن الوكالة فى النهاية سوف تحنى هامتها لرغبات الرئيس وطالما ظل مدير الوكالة يلبى أهواء الرئيس فإن الحال سوف يستمر بهذا الشكل. وتنطبق القاعدة العامة على الاستخبارات والعمليات: إن ماتقوله الوكالة وماتفعله سوف يتكيف بمرور الوقت مع رغبات الرئيس. عندما لايحب الرؤساء ما يقال لهم، يتجاهلونه وعندما يريدون شيئا يظلون يضغطون حتى يحققوه. وبصفتها منظمة منضبطة فهى لاتشكى أو تقاوم. بتعبير آخر إنها تستجيب.



إن فهم هذه القاعدة العامة يفتح نافذة مضيئة على السلوك الأمريكى فى العالم. وعادة لايخفى الرؤساء ما يدور فى رؤوسهم: كان كنيدى يتحدث بصوت عال عن قلقه من خطة فيدل كاسترو لتصدير الثورة الكوبية فى الستينيات من القرن الماضى. وقد حذر نيكسون وريجان بالحاح من بناء الصواريخ السوفيتية فى السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضى. أما بوش فهو يعلن على الملأ عن قلقه من الجهود الإيرانية لتطوير القنابل الذرية الآن. ونحن نفهم أولويات أجندة الشخص رقم واحد فى الدولة مما يصرح به الرؤساء ومستشاروهم. أنه طريق ذو اتجاهين: إذا علمت بما تفعله وكالة المخابرات المركزية، فإنك تعلم بما يريد الرئيس أن يفعله.

إن التعبير عن القاعدة العامة بالكلمات يجعلها مفهومة. لماذا قد تهمل وكالة المخابرات المركزية ما يريده أو ما يؤمن به الرئيس؟ لماذا قد يتحمل رئيس الولايات المتحدة وكالة مخابرات مركزية تملك أجندتها الخاصة؟ ولكن فى بعض الأحيان تتسبب القاعدة العامة فى أسئلة مثيرة للقلق من النوع الذى تكرهه الدول الديمقراطية. فى الثمانينيات من القرن الماضى، علم أن وكالة المخابرات المركزية كانت تدعم بهمة قوات الكونترا فى نيكارجوا فى انتهاك صارخ للحظر الذى فرضه الكونجرس. وكانت القاعدة العامة ستقول إن الرئيس ريجان لم يكن يعرف فقط بهذه الجهود ولكنه كان أيضا يشرف عليها. من غيره؟ ولكن هذا الاستنتاج البديهى تجنبه المحقق الخاص لورنس والش ومحققو الكونجرس وقد أودع عموم المؤرخين ملف فضيحة إيران كونترا فى سرداب مظلم من التاريخ الأمريكى والذى يخزن فيه عادة القضايا المحرجة والتى اتفق على استحالة الكشف عنها. وقد توقع مهندسو وكالة المخابرات المركزية مثل هذه اللحظات المحرجة بإرساء سياسة الإنكار القابل للتصديق، فهم يخططون لعمليات سرية حساسة على بعد خطوات من البيت الأبيض حتى يمكن للرؤساء أن ينكروا مصادقتهم أو حتى علمهم بأى شىء يصل إلى علم وسائل الإعلام. لقد كان هناك العديد من مناسبات النفى والإنكار هذه على مدى السنوات الماضية ولكن الادعاءات بأن البيت الأبيض كان خارج الحلقة فى كل مرة مسألة يصعب تصديقها.

إن التحدى الذى يواجه المحققين الآن والمؤرخين فيما بعد، هو توضيح كيف أمكن استغلال أدلة أسلحة الدمار الشامل العراقية التى جمعتها وكالة المخابرات المركزية واتضح أنها كانت معلومات خاطئة، من قبل الرئيس بوش ومستشاريه الكبار لوصف الخطر الداهم والمتنامى الذى اتخذ تبريرا لشن حرب استباقية. هل يمكن للبيت الأبيض أن يقنعنا بأن قراءته الخاطئة الصارخة للأدلة لم تكن تدفعها عوامل التصميم على شن الحرب؟ هل يمكن للرئيس أن يقنعنا بأن سياسة الحرب لم تكن نابعة منه وأنه لم يكن يعرف وأن المتحدثين باسمه كانوا يبالغون فى تقدير المخاطر التى يتذرعون بها؟ هذه هى الأسئلة التى تحدد الأزمة التى تواجه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.



[٢]

أضر فشل محققى مجلس الشيوخ والصحفيين والمؤرخين للتعرف ومحاسبة أولئك المسؤولين عن مؤامرات اغتيال كاسترو و(تجاوزات) مماثلة فى الستينيات -وهم الرؤساء الذين تعمل تحت إمرتهم وكالة المخابرات المركزية- بالوكالة التى شعرت بطبيعة الحال أنها تعاقب لأدائها واجبها. وليس من الصعب إدراك السبب الذى جعل الرؤساء يبعدون اللوم عنهم لما يجرى من أخطاء وفشل ويلقونه على الآخرين، وإنما المشكلة هى لماذا سمح لهم أولئك الذين يجب عليهم متابعة هذه الأمور: السياسيون والصحفيون والمؤرخون على السواء - أن الخارجية مادلين أولبرايت لرتشارد كلارك بأنه لم يكن من الصعب تفسير السلوك العدوانى السلبى للوكالة: «إنها مصابة بعارض الطفل المضروب»، ويعزى سبب فشل الوكالة فى قتل أو خطف أسامة بن لادن فى السنوات التى سبقت ١١ سبتمبر - إلى النكوص العملياتى للوكالة الذى بدأ فى منتصف الثمانينيات.- وهو تردد عن القيام بالواجب ذكره كلارك مرارًا فى كتابه (ضد كل الأعداء). ولكن كلارك يمنح وكالة المخابرات المركزية ميزة إصدار تحذيرات عاجلة متكررة طوال صيف ٢٠٠١ ويحتفظ بنقده اللاذع لفشلين ارتكبتهما إدارة بوش - عجزها عن فهم الخطر الملح الذى تمثله القاعدة قبل ١١ سوف تتأفف وكالة المخابرات المركزية والوكالات الأمنية الأخرى بسبب المخاطر المحتملة التى يمكن أن تصيب مصادرهم وطرق عملهم لدى الكشف عن التقارير الاستخباراتية، ولكن لابد من التوصل لاحقًا إلى إجراء آمن وسيجد المحققون أنفسهم وقد غرقوا فى بحر من الورق والوثائق. وسوف يشرح الخبراء التقنيون كيف يمكن قراءة الصور أو مراقبة الهواتف النقالة. وسوف يصطف المختصصون ليوضحوا سبب اعتقادهم بأن الشاحنات الجرارة التى اكتشفوها فى شمال العراق بعد الحرب كانت أو لم تكن مختبرات أسلحة بيولوجية متنقلة. وسوف يفعل متخصصون آخرون الشىء ذاته مع





لن يحتاج المحققون إلى تعليمات فى كيفية إجراء دراسة عن الخيبات الاستخباراتية فى العراق، وسوف تعرقل السياسة بالتأكيد وربما تمنع تمامًا الجهود لشرح الأسباب الأعمق حول مدى كذب المعلومات الاستخباراتية التى استخدمت لتمهيد الطريق إلى الحرب وأسباب ذلك

ينجوا بفعلتهم. فى التحقيق الذى تناول فضيحة وترجيت ركز مجلس الشيوخ والكونجرس على مسألة (التعتيم) وتغافلوا عن الجرائم الأكثر شناعة وهى ضغط إدارة نيكسون على وكالة المخابرات المركزية لمساعدة سباكى البيت الأبيض فيما عرف بعد ذلك بأنه اقتحامات غير قانونية. وكذلك عرقلة تحقيق مكتب التحقيقات الفيدرالى. وحدث مثل ذلك تقريبا خلال تحقيق الإيران كونترا عندما واجه مسئولو وكالة المخابرات المركزية السجن وأتعاباً قانونية قاصمة للظهر فى حين سمح للرجل المسئول عن هذه المغامرات الأجنبية الرئيس ريجان بادعاء فقدان الذاكرة.

إن هذا النمط من تحميل وكالة المخابرات المركزية وزر ما يأمر به الرؤساء هو أهم سبب لظهور ثقافة (النفور من المخاطر) داخل الوكالة - وهو حذر أملته التجربة بسبب القيام بعمليات من النوع الذى على مسئولى الوكالة توضيحه أو إنكاره فيما بعد على منصة الشهود وتحت القسم. وقد قالت مرة وزيرة سبتمبر وخطئها اللاحق فى شن الحرب على العراق. ويكرس كلارك أقوى انتقاداته للآثار التى نجمت عن هذا الخطأ الذى حول القدرات الأمريكية وانتباه البيت الأبيض عن الخطر الحقيقى وهو القاعدة، فى نفس اللحظة أتاح النصر فى أفغانستان فرصة لتسديد الضربة القاضية للمنظمة الإرهابية.

و فى الوقت الذى شغلت إدارة بوش نفسها بشن حرب لنزع سلاح صدام حسين، كان تنظيم القاعدة قد نال فرصة سنة لاستعادة قوته وإعادة تنظيمه وتنفيذ عمليات إرهابية جديدة. ولكن يبدو أن النمط الراسخ يعيد نفسه عند تركيز التحقيق على فشل المعلومات الاستخباراتية لوكالة المخابرات المركزية وإغفال استحواذ هاجس العراق على البيت الأبيض الذى وصفه كلارك باستفاضة فى كتابه.

سيجد المحققون أن الروتين الراهن سيأخذ وقتا طويلا طالما أنهم يقتصرون فى تحقيقهم على أساليب جمع وتقدير المعلومات الاستخباراتية. فى أول الأمر حكاية أنابيب الألومنيوم التى ربما كانت ولكن بالتأكيد لم تكن مخصصة للطرد المركزى. وسوف يشرح كتاب التقارير التقديرية الإجراء المتعمد لإنشاء تقدير الأمن القومى الخاص SNIE فى أكتوبر ٢٠٠٢ حول أسلحة الدمار الشامل العراقية ولماذا كان لدى وكالة المخابرات المركزية الثقة الكبيرة بأن هذه الأسلحة كانت تمثل خطرا متناميا، وثقة مهزوزة بتوقع ما يمكن أن يفعله صدام حسين بالأسلحة.

ستتطلب هذه التحقيقات وقتا طويلا، ولن يقدم البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزية شيئا، وستكون هذه القضايا معقدة فى الواقع وسوف تقدم الشهادات بجمل طويلة، متعددة الفقرات. وسيكون هناك حديث طويل حول الأدلة الجزئية والتقارير الغامضة والتصرف بأفضل ما لديك، وبذل أقصى جهودك. وبعد نهاية اليوم سوف يصفون فى تقرير سميك كنت تتوقع منه ان يكشف عن «خطأ غير مقصود» - صورة للعالم اتضح فيما بعد أنها لم تكن

صحيحة، رغم الأجهزة المكلفة وضياع الألوف من ساعات العمل و المشاورات المطولة. أما الأشياء التى ظهرت فى أول الأمر واضحة، فستبدو ضبابية فى آخره. وستلحق بالتقرير أعداد هائلة من التوصيات حول قواعد جديدة للتنظيم وتطوير أساليب العمل والتأكيد مرة أخرى على التدريب وبالطبع المزيد من التمويل.

ولكن هذا النوع من الجهد سوف يتجنب الأسئلة المزعجة والصعبة التى يثيرها استخدام المعلومات الاستخباراتية لإقناع الكونجرس للتصويت لشن حرب غير ضرورية من أجل تنفيذ سياسة غير معلنة لا يدركها المشرعون، وبدون توفير فرصة لمناقشتها.

تحميل وكالة المخابرات المركزية وزر ما يأمر به الرؤساء هو أهم سبب لظهور ثقافة (النفور من المخاطر) داخل الوكالة - وهو حذر أملته التجربة بسبب القيام بعمليات من النوع الذى على مسئولى الوكالة توضيحه أو إنكاره فيما بعد على منصة الشهود وتحت القسم



لا أقصد الإيحاء بأن لسياسة الإدارة مقاصد خبيثة. إنى أصدق كلمات الرئيس حين يقول إن هدفه هو توفير الأمان لأمريكا. ولكن مسائل الحرب والسلام تؤثر فى البلاد بأكملها، والدستور بشكل خاص يشترط مشاورة الكونجرس وليس فى قانون وكالة المخابرات المركزية مايشير إلى أن الرئيس وحده هو الذى يجب أن يستفيد من مجهودات الوكالة. من المفترض أن يكون النقاش صادقا، وفى هذه الحالة لم يكن النقاش أبعد من ذلك فى أى وقت مضى. إن إغفال التحقيق فى استغلال الإدارة للاستخبارات يستدعى المزيد من هذه التجاوزات.

لن يحتاج المحققون إلى تعليمات فى كيفية إجراء دراسة عن الخيبات الاستخباراتية فى العراق، وسوف تعرقل السياسة بالتأكيد وربما تمنع تماماً الجهود لشرح الأسباب الأعمق حول مدى كذب المعلومات الاستخباراتية التى استخدمت لتمهيد الطريق إلى الحرب وأسباب ذلك. ولكن ربما لا يحدث ذلك.

من أجل أن تكون التحقيقات الراهنة جادة وشاملة كما تكون الجهود الإضافية التى سيضطلع بها المؤرخون لاحقاً، يجب أن تشمل التحقيقات القضايا التالية:

١- التعاون الوثيق بين المخابرات الامريكية والبريطانية التى قدمت الذرائع للرئيس بوش ورئيس الوزراء تونى بلير لشن الحرب وفى نفس الوقت جنبتهم الإجابة على أسئلة محرجة. ويجب أن ينظر المحققون على الأخص فى مصدر الوثائق المزيفة التى ذكرت بأن العراق كان يحاول شراء اليورانيوم وهو ما اصطلح على تسميته بالكعكة الصفراء من النيجر، والادعاءات البريطانية بأنهم يمتلكون دليلا آخر حول شراء الكعكة الصفراء، ومن قدم لوزير الخارجية كولن باول التقرير البريطانى المزيف حول الهيئات الاستخباراتية العراقية والتى ذكرها باول فى الأمم المتحدة قبل يومين من اكتشاف الصحفيين بأن التقرير كان مستندا إلى مادة اقتبست من مصادر متاحة للجميع (الإنترنت)، وتعاون وكالة المخابرات المركزية مع مسئولى الاستخبارات البريطانية فى إنشاء ملف استخباراتى حول مسئولية القاعدة فى هجمات ١١ سبتمبر، ومحتوى كل الاتصالات بين مسئولى الاستخبارات البريطانية والأمريكية فى الأشهر بين ظهور الرئيس بوش أمام الأمم المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠٢ واندلاع الحرب فى شهر مارس التالى، وتعاون البريطانيين والأمريكيين فى التجسس على الأمين العام للأمم المتحدة كوفى عنان وأعضاء مجلس الأمن.

٢- الاتصالات التى جرت مع وكالة المخابرات المركزية من قبل مسئولين فى البنتاجون ومكتب نائب الرئيس ومجلس الأمن القومى مما يمكن أن يقصد منها أو يفهم منها أنها كانت ضغوطا لتحوير تقديرات استخباراتية. وقد أنشأ البنتاجون بعد أحداث ١١ سبتمبر مباشرة مكتبا خاصا لإعادة النظر فى المعلومات الاستخباراتية عن العراق كان مسؤولا عنه دوجلاس فيث نائب وزير الدفاع للشؤون السياسية. وقد تلقى هذا المكتب تقارير عديدة عن أسلحة الدمار الشامل العراقية من المؤتمر الوطنى العراقى الذى يرأسه أحمد الجلبى، الذى كان مدعوما وممولا من وزارة الدفاع. يجب على المحققين أن يقتفوا خطى انتشار هذه التقارير التى أغفل معظمها فيما بعد على أساس أنها مختلقة ومن أجل تحديد إذا كانت هذه التقارير قد دُفعت «عبر مدخنة الموقد» وهو تعبير يعنى تصعيد التقارير إلى المراكز العليا بدون فحصها وتمحيصها إلى وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ووزير الخارجية كولن باول الذى يمكن أن يكون اعتمد عليها فى خطابه يوم ٢٠٠٣/٢/٥ أمام الأمم المتحدة. أو موظفى مجلس الأمن القومى الذين يعدون خطب الرئيس.

٣- أساس تسلط هاجس العراق الذى استحوذ على إدارة بوش منذ يناير ٢٠٠١، وهو هاجس أفرد له كلارك مجالا واسعا فى كتابه الجديد، وفى الكتاب الحديث حول وزير الخزانة السابق بول اونيل «ثمن الإخلاص»، وفى كتاب بوب وودوارد الذى صدر فى العام الماضى «بوش فى الحرب»، وفى كتاب وودوارد الجديد وصف كلارك هاجس العراق بأنه هوس فكرى، إيمان راسخ، حكم مسبق، وقرار اتخذ بالفعل قبل ثمانية أشهر سبقت هجمات ١١ سبتمبر. ومازال ينقص السجل العلنى شرح موثوق به حول أسباب تصميم الإدارة على غزو العراق فى الوقت الذى لم يكن هناك أى ذكر لأسامة بن لادن وتنظيم القاعدة. ثم فيما بعد، لماذا اختارت أن توجه الانتباه والقوى من أفغانستان قبل أن تتمكن من القبض على بن لادن ومسؤولى طالبان. من أجل غزو العراق، متى ولماذا اختارت لتبرير الحرب بالإشارة إلى أسلحة الدمار الشامل العراقية، كيف ومتى نوقش قرار الحرب مع الحلفاء خاصة بريطانيا وماذا كانت الإدارة تأمل أن تحققه من غزو العراق. إن هذا الهاجس العراقى يقدم أفضل تفسير لفهم الضغوط التى مورست على وكالة المخابرات المركزية من أجل إيجاد برنامج أسلحة دمار شامل مكثف لم يكن موجودا.

سوف يقاوم البيت الأبيض محاولة الإجابة على هذه الأسئلة على أساس صلاحيات الرئيس، وسوف تقاومها وكالة المخابرات المركزية على أساس تفاهمها مع المخابرات البريطانية حول عدم الإفصاح عن معلومات مشتركة مع الطرف الآخر بدون موافقة مسبقة منه وعلى الأكثر فإن البريطانيين سوف يرفضون ذلك. لم يسبق هذه الإدارة أى إدارة أمريكية أخرى فى الانفراد فى إحاطة مشاوراتها فى القضايا الحساسة بالسرية التامة، ومن المحتمل أن المحققين الرسميين والصحفيين والمؤرخين لن يعرفوا ماذا كانت بواعث وطموحات الرئيس ومستشاريه وهم يستعدون للحرب. ولكن الحاجة إلى تفسير ما حدث تزداد الآن إلحاحا بالانهيار الواضح للذرائع الرسمية لتبرير الغزو. لابد أن واحدا من شيئين قد حدث - إما أن تكون وكالة المخابرات المركزية قد أخطأت فى قراءة الأدلة وشاركت فى حرب غير ضرورية، أو أن الإدارة قررت خوض الحرب لأسباب خاصة بها وأصرت على أن تختلق وكالة المخابرات المركزية أفضل ما يمكنها من ذرائع من أقل ما فى جعبتها من معلومات. لن تجد هيئة رسمية تضع الاختيارات بهذه الجرأة والوضوح، وسوف يكون كتاب التقارير أقل رغبة فى قراءة الإيحاءات.

ولكن لابد أن خطأ فظيعا حدث وأمريكا تناقش الحاجة إلى شن الحرب قبل عام مضى وكل من التفسيرات الممكنة يثير أسئلة خطيرة تتعلق بالثقة - إما أن الوكالة لا يمكن الوثوق بها لتمييز الأخطار الحقيقية من الخيالية أو أن الوكالة جعلت من نفسها أداة مطواعة بيد الرئيس الذى استغلها لتلفيق حجته لشن الحرب. ■

هامش:

(١) قراءة اوراق الشاى هى طريقة للتنبؤ مثل قراءة فنجان القهوة - المترجمة

جامعات الحرب الباردة

عبد العظيم أنيس



السياسة ظلت عنصراً فاعلاً فى شئون الجامعة بأمريكا خصوصاً فى فترة «الفزع الأحمر» أى الفترة المكارثية فى الخمسينيات، وكان هذا غالباً بسبب مواقف مديرى الجامعات وأساتذتها وليس طلابها. فمديرو الجامعات كانوا حريصين على التخلص من الأساتذة اليساريين وذلك للاحتفاظ بتمويل الحكومة الفيدرالية والقطاع الخاص



بنهاية الحرب الباردة تبدو ملامح الحياة الأمريكية المرتبطة بها - من أمثال سباق التسلح وميزانية الدفاع المتضخمة، والمركب العسكرى الصناعى الذى حذر منه أيزنهاور فى خطاب وداعه - وكأنها من أشياء الماضى.

لكن بينما كانت أربعون سنة من الحرب الباردة قد لعبت دورها فى تشكيل جامعات البحوث الأمريكية والعلم الأمريكى عموماً، إلا أن قوى أخرى ليست مرتبطة بالحرب الباردة كانت تساهم فى تشكيل الجامعات الأمريكية أيضاً، وهى قوى ومشاكل وتناقضات سبقت الحرب الباردة. والأكثر من ذلك أن خصائص المجتمع الأمريكى إبان الحرب الباردة قد لا تتلاشى بالضرورة عند انتهائها، فمن غير المحتمل أن تعود الجامعات الأمريكية إلى وضعها ودورها الذى لعبته قبل بداية الحرب الباردة عندما كانت أقرب إلى الأبراج العاجية.

ومن الواضح أن جامعات البحوث فى الولايات المتحدة قد تغيرت جوهرياً نتيجة الحرب الباردة فيما يتعلق بدورها فى المجتمع وبدلالة الأنظمة العلمية المطبقة داخلها. فقبل الحرب العالمية الثانية كان دور الجامعات هامشياً من زاوية الاقتصاد السياسى الأمريكى،

Creating the Cold War University: The Transformation of Stanford
(خلق جامعة الحرب الباردة: تحول جامعة ستانفورد)
Rebecca S. Lowen
University of California Press, 1997, 316PP.

وكانت الجامعات ملتزمة فقط بتطوير «طريق العلم» واكتشاف ودراسة «الحقيقة».

وبينما كانت بعض الجامعات تشير إلى خدمة المجتمع كجزء من رسالتها فإن كل الجامعات لم تكن تنظر إلى هذا العمل كخدمة مباشرة للحكومة الفيدرالية. فالاستقلال عن الحكومة الفيدرالية كان فى الواقع شيئاً مركزياً فى تعريف الجامعة وما يدور داخلها من بحوث.

وبالمثل كان مفهوم استقلال الجامعة يمتد إلى قطاع الصناعة الخاص، بل وقطاع التجارة أيضاً، وهذا ما ميز الجامعات (قبل الحرب العالمية الثانية) عن معاهد التكنولوجيا. فالجامعات بهذا الوضع كانت أبراجاً عاجية إلى حد كبير.

لكن خلال الحرب الباردة تحركت الجامعات القيادية فى أمريكا من الوضع الهامشى إلى مركز الاقتصاد السياسى: وعند كلارك كير Clark Kerr مدير جامعة كاليفورنيا (بيركلى) فإن جامعات ما بعد الحرب العالمية الثانية كانت مؤسسات جديدة تماماً، جامعات مستجيبة لاحتياجات المجتمع الأمريكى حتى أصبحت جزءاً أساسياً منه، ولقد اعترف كير بأثر الحرب الباردة على الجامعات الأمريكية. فالتكنولوجيا الحربية، مثل الصواريخ الموجهة وأنظمة التوجيه العسكرى والقنبلة الهيدروجينية والرادار... إلخ تطلبت خبرة ومهارة علماء ومهندسين على قمة التقدم العلمى. وفى أوائل الستينيات كانت الحكومة الفيدرالية تنفق حوالى عشرة بلايين دولار سنوياً على البحوث والتطوير. وكان نصيب وزارة الدفاع ومؤسسة الطاقة الذرية حوالى نصف هذا الإنفاق، ونصيب الجامعات عشر هذا المبلغ - أى حوالى بليون دولار - وبالتالى أصبحت هذه الجامعات معتمدة على دعم الحكومة الفيدرالية لتغطية حوالى نصف ميزانيتها السنوية.

لكن كير رأى أيضاً جامعات ما بعد الحرب العالمية كنتيجة لقوى أوسع كانت تحول المجتمع الأمريكى من حالة المجتمع الصناعى إلى حالة المجتمع ما بعد الصناعى، من اقتصاد كانت مدخلاته الأساسية هى العمالة والمواد الخام إلى اقتصاد المعرفة الماهرة وهى مفتاح نموه وازدهاره.

وكان أكبر مثال على ذلك عند كلارك كير التحول الذى حدث فى الجغرافيا الصناعية. فشركات التكنولوجيا العالمية كانت تتجمع حول مقرات جامعتى بيركلى وستانفورد فى منطقة خليج سان فرانسسكو، كما كانت تجتمع حول جامعتى هارفارد، وM I T فى ماسوشوستس وجامعة شيكاغو فى الشرق. وهذه المناطق العلمية Science regions كما كانت تسمى هى شاهد على أهمية الجامعات الأمريكية فى اقتصاد ما بعد الحرب.

وإذا كانت علاقة الجامعة بالمجتمع تغيرت بعد الحرب، فقد ترتب على ذلك حدوث تغيرات داخلية فى الجامعات كذلك. فقد أنشأت معامل ضخمة امتلأت بباحثين مشتغلين على أجهزة ضخمة ممولة من الحكومة الفيدرالية. وليست عليهم أى مسئوليات تعليمية (ومثاله معمل الميكروويف فى جامعة ستانفورد).

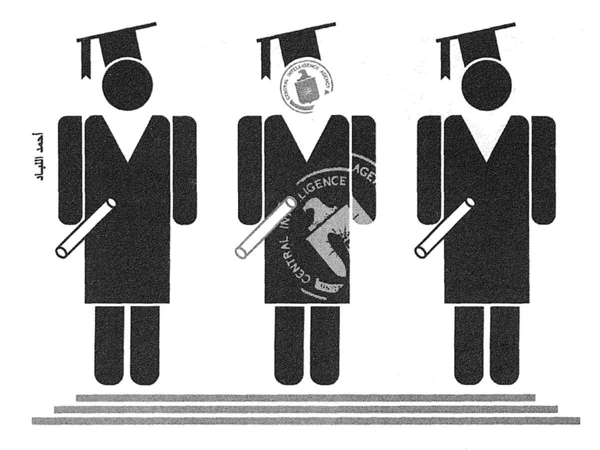
ولقد افتتحت الجامعات مجالات جديدة فى البحث مثل الهندسة النووية والدراسات السوفيتية، وتحولت أنظمة العلوم الاجتماعية التقليدية من اهتمامها بالبحوث الوصفية إلى البحوث الكمية، ومن السلوك الفردى إلى السلوك الاجتماعى. وكان هذا واضحاً خصوصاً فى جامعة ستانفورد.

وكما أوضح كير فإن جامعات ما بعد الحرب قد اعتمد التقدم المهنى فيها على البحث والنشر، وهذا بدوره قد ارتبط بتطور دعم الهيئات الخارجية. وهكذا فإن التدريب فى مرحلة ما بعد الحرب لم يجد الاهتمام الكافى لأن الأساتذة كانوا أكثر اهتماماً بالبحوث المتعاقد عليها.

وإذا كانت جامعة ما قبل الحرب مجتمعاً من العلماء الباحثين المعزولين نسبياً فإن جامعة ما بعد الحرب - فى وصف كير - أصبحت تجمعاً هشاً من المقاولين الأكاديميين، وهم علماء وباحثون يقدمون أنفسهم وأبحاثهم لمموليهم الكبار.

ولقد أكد جودكن Godkin فى سلسلة محاضرات فى جامعة هارفارد عام ١٩٦٣ نفس المعانى التى سبق أن شرحها كير، وجمعت محاضرات جودكن بعد ذلك فى كتاب بعنوان «استخدامات الجامعة».

كان هناك اتفاق إذن بين الباحثين على طبيعة التغيرات التى حدثت للجامعات بعد الحرب العالمية الثانية. لكن ما أصبح مجالاً للاختلاف بين هؤلاء الباحثين هو ما إذا كانت هذه



التغيرات تمثل تقدمًا للجامعات أو تراجعًا لها.

ففى الخمسينيات والستينيات كان هناك شبه إجماع على أن التغيرات التى حدثت فى الجامعات هى جزء من تيار تقدمى أوسع، وبقى كتاب «استخدامات الجامعة» نموذجًا لهذا التفكير، وبينما كان كير آسفًا على ما فقدته الجامعات من شعور بالجامعة كمجتمع واحد ومن الإخلاص للتعليم فى مرحلة ما قبل البكالوريوس، إلا أنه كان يرى أيضًا المكاسب التى حققتها الجامعة فى وضعها الجديد.

وعلى عكس ذلك تعرضت أفكار كير للهجوم فى العقد الذى تلى نشر كتاب «استخدامات الجامعة»، وقاد هذا الهجوم روبرت نيسبت Nisbet ، وهو عالم اجتماع محافظ، رأى أن الجامعة قد تدهورت رسالتها بتأكيدها على دور الخدمة العامة وبعلاقتها بالحكومة الفيدرالية والشركات الخاصة. وقد ركز نيسبت هجومه على زملائه الأكاديميين متهمًا إياهم بالتخلى عن مسئوليتهم فى التعليم والبحث العلمى من أجل الشهرة والمال.

ومع أن نهاية الحرب الفيتنامية أنهت معظم الصراع الساخن داخل الجامعة حول دورها، إلا أنه ظلت هناك تجليات من عدم الرضا داخل الجامعة فى منتصف الثمانينيات. لقد تم الهجوم على الجامعة من اليمين لإهمالها طلاب المرحلة الأولى Undergraduates وتركز هذا الهجوم على عدد من أساتذة الجامعة الذين كانوا طلابًا راديكاليين فى الستينيات. لكن كان هناك أيضًا نقد من كتاب اليسار الناقدين للزيادة فى ميزانية الدفاع المتدفقة نحو معامل الجامعات، وللعلاقة بين الباحثين المدعومين من الحكومة الفيدرالية وبين باحثى القطاع الخاص.

وفى هذا الكتاب بينما نجد أنه بشكل عام ناقد لجامعة الحرب الباردة - ونموذجها الأكبر هو جامعة ستانفورد - إلا أنه لا يتصدى بالتحليل والانحياز لأى من طرفى اليمين واليسار وإنما يحاول أن يبحث بدقة كيف حدثت هذه التغيرات فى الجامعات، واهتمامه الأول هو شرح التغيرات التاريخية التى أدت إلى الوضع الحالى لجامعة الحرب الباردة.

ومؤلفة الكتاب حريصة مع ذلك أن توضح أنها لا تفضل جامعات ما قبل الحرب العالمية الثانية لأنها فى رأيها كانت مؤسسات معيبة بشكل عميق، خصوصًا الجامعات الخاصة التى كانت معروفة برفض قبول اليهود والسود والنساء فى هيئات التدريس وكطلاب أيضًا.

وأخيرًا فإن أحداث هذا الكتاب تتوقف عند منتصف الستينيات، ولذا لم يتعرض للأحداث عندما تحولت الجامعات إلى تنظيم الاجتماعات السياسية الواسعة خلال المراحل النهائية لحرب فيتنام. وكما يوضح الكتاب فإن السياسة ظلت عنصرًا فاعلاً فى شئون الجامعة خصوصًا فى فترة «الفزع الأحمر» أى الفترة المكارثية فى الخمسينيات، وكان هذا غالبًا بسبب مواقف مديرى الجامعات وأساتذتها وليس طلابها. فمديرو الجامعات كانوا حريصين على التخلص من الأساتذة اليساريين وذلك للاحتفاظ بتمويل الحكومة الفيدرالية والقطاع الخاص.

والمثال الأوضح على ذلك ما جرى فى قسم العلوم السياسية فى جامعة ستانفورد الذى حرص على تعيين الأستاذ مالفورد سيبلى Sibley الذى كان أستاذًا فى جامعة مانيسوتا، وكان حاصلاً على جائزة العلوم السياسية عام ١٩٥٢، ولم يكن سيبلى شيوعيًا، وإنما كان معاديًا للحروب من ناحية المبدأ وكان يقول عن نفسه إنه اشتراكى مسيحى. ومع ذلك فقد استمات ترمان Terman مدير ستانفورد حتى لا يتم تعيينه، ولجأ فى ذلك إلى تغيير رئيس قسم العلوم السياسية. لكن لدهشة ترمان فقد أصر رئيس القسم الجديد على تعيين سيبلى. ولجأ ترمان إلى كل الحيل لإفشال هذا التعيين، وهذا ما تم فى نهاية الأمر.



ولقد اهتمت مؤلفة الكتاب بدراسة معمقة لجامعة واحدة - هى جامعة ستانفورد - بأمل أن توضح تفاصيل هذه الدراسة فهم القوى التى تؤثر على كافة الجامعات التى مرت بتجارب مماثلة. ولقد كانت جامعة ستانفورد اختيارًا واضحًا لما سماه كير «جامعة التمويل الفيدرالى»، وما تسميه المؤلفة «جامعة الحرب الباردة». فخلال الحرب الباردة كانت ستانفورد واحدة من أكبر الجامعات التى حظيت برعاية وزارة الدفاع، وكانت أيضًا من أوائل الجامعات التى ارتبطت بعلاقات وثيقة مع القطاع الخاص.

وفى الثمانينيات أصبحت ستانفورد الجامعة النموذج لجامعات الحرب الباردة وهى أيضًا الجامعة التى ارتبطت بتطوير وادى السيلكون. ومع ذلك فإن ستانفورد كانت أيضًا أول جامعة تقوم الحكومة الفيدرالية بمراجعة حساباتها فى أوائل التسعينيات بعد اتهامات وجهت إليها بإساءة استخدام أموال الحكومة الفيدرالية.

إن جامعة ستانفورد هى جامعة خاصة أقيمت فى أواخر القرن التاسع عشر بأموال وهبات بارون لص. وهى من هذه الناحية تشبه جامعة جونز هوبكنز وجامعة شيكاغو.. ولكن على عكس هاتين الجامعتين فإن ستانفورد فى أوائل القرن العشرين كان ينقصها السمعة العالية والتأثير الكبير.

والواقع أن ستانفورد لم تظهر كمؤسسة عالية السمعة إلا فى الستينيات عندما أصبحت ضمن «أعلى عشر» جامعات أمريكية كما أنها من الجامعات التى استحوذت على معظم معونات الحكومة الفيدرالية.

وهذا التحول السريع نحو الشهرة كان مرتبطًا بعقود الجامعة مع وزارة الدفاع وبالنهضة الاقتصادية العامة لولاية كاليفورنيا. وكل هذه الظروف جعلت دراسة ستانفورد كجامعة الحرب الباردة أمرًا جذابًا، وأصبح من السهل أن يرى الباحث ماذا كان يتغير فى الجامعة ولماذا.

وحديثًا أكد العديد من المؤرخين على الشكوك العميقة التى كانت لدى العلماء والخبراء تجاه أى تحالف دائم مع الحكومة



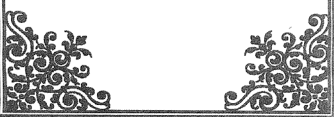
٢ - حياتى

فى طفولتى..

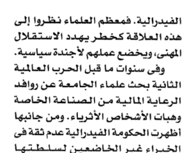
حدث مرة أن أخذنى والدى إلى المسجد بجوار بيتنا ليصلى ولم يكن بالمسجد غيرنا. فخلع والدى جبته وجوربه وشمر أكمامه وذهب إلى «الميضأة» ليتوضأ. والميضأة حوض ماء نحو ثلاثة فى ثلاثة يملأ بالماء من حين لآخر. وفى العادة يملأ من بئر بجانبه ركبت عليها بكرة، وعلق فيها حبل فى طرفيه دلوان، ينزل أحدهما فارغًا ويصعد الآخر ملآن.

ومن أراد أن يتوضأ من الميضأة جمع الماء بين كفيه وغسل وجهه ثم يعود الماء إلى الميضأة بعد الغسل كما أخذ، وكانت هذه الميضأة مصدر بلاء كبير، فقد يتوضأ المريض بمرض معد كالرمد ونحوه فيتلوث الماء ويعدى الصحيح، هذا إلى قذارته، فالمتوضئ يغسل وجهه بعد أن غسل من قبله رجليه ولكن الاعتقاد الدينى يغطى كل هذه العيوب والأخطار، فلما دخل القاهرة نظام جرى الماء فى الأنابيب والحنفيات لم تعد حاجة إلى الميضأة، وأصبحت الحنفيات أنظف وأصح، ولكن إلف الناس للقديم جعلهم يحزنون لفراق الميضأة، ولذلك كان مما أخذ على الشيخ محمد عبده وعيب عليه أن أبطل ميضأة الأزهر وأحل محلها الحنفيات، وهكذا يألف الناس القديم الضار ويكرهون الجديد النافع ويدخلون فى الدين ما ليس فى الدين.

توضأ أبى وذهب يصلى، وبقيت أنظر إلى البئر وإلى الميضأة وأتجول بينهما فتزحلقت وغرقت فى الميضأة، وغمر الماء رأسى ولولا أن أبى كان قريبًا منى وسمع الحركة وأسرع إلى الميضأة وانتشلنى ما كنت من ذلك الحين من الأحياء.



جامعات الحرب الباردة



الفيدرالية. فمعظم العلماء نظروا إلى هذه العلاقة كخطر يهدد الاستقلال المهنى، ويخضع عملهم لأجندة سياسية.

وفى سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية بحث علماء الجامعة عن روافد الرعاية المالية من الصناعة الخاصة وهبات الأشخاص الأثرياء. ومن جانبها أظهرت الحكومة الفيدرالية عدم ثقة فى الخبراء غير الخاضعين لسلطتها ورفضت فى الثلاثينيات نداءات بتمويل التعليم الأكاديمى.

لكن هذا الجو من الشكوك سرعان ما تبخر فى بداية الحرب العالمية الثانية عندما دعت الحكومة الفيدرالية العلماء - وخصوصاً الفيزيائيين - إلى مساعدتها. وخلال تطور تكنولوجيا الحرب أدرك العسكريون والفيزيائيون مزايا الاتصال الدائم بينهم.

ثم تدعمت العلاقة خلال الحرب الباردة - خصوصاً خلال الحرب الكورية - وبينما تركز الاهتمام فى أول الأمر على جماعة الفيزيائيين فإن الغرض العام هو أن العلاقة التى نشأت أصلاً بين الدولة والفيزيائيين قد امتدت إلى علماء أكاديميين آخرين، بل إلى علماء البحوث الاجتماعية وإن كان معظم تمويلهم قد أتى من مؤسسات خاصة مثل مؤسسة فورد ورووكفللر وراند وغيرهما.



ولقد أدركت الدولة وتلك المؤسسات الخاصة فائدة البحوث الاجتماعية فى قيادة الحرب الباردة، وأدرك علماء العلوم الاجتماعية الشهرة التى تمتع بها الفيزيائيون فحاولوا تقليدهم بتنمية صلاتهم مع أجهزة الدولة والمؤسسات الخاصة مثل فورد وراند وغيرهما.

وفى هذا الجو العام ظل مديرو الجامعات قادرين على تعيين وفصل من يشاءون من الأكاديميين أو التصرف فى موارد الجامعة المالية، وبهذا لعبوا دوراً أساسياً فى خلق جامعة الحرب الباردة. ولقد أثبتت أحداث الخمسينيات دور مديرى الجامعات فى التعاون مع لجان الكونجرس وأجهزة المخابرات فى ضمان الانضباط الثقافى داخل الجامعة.

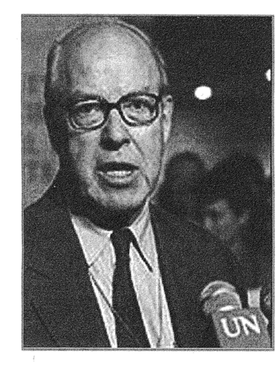
ويكفى أن نشير إلى الدور الذى لعبه المدير فردريك ترمان Terman فى جامعة ستانفورد. لقد كان ترمان فى الأصل مهندساً كهربائياً، لكن لا يستطيع أحد أن يتجاهل دور ترمان فى توجيه ستانفورد إلى الطريق الذى سلكته وفى الارتفاع بها إلى تفوقها الوطنى. لكن من المهم أن نتذكر أن ترمان لم يكن الشخص الوحيد المسئول عن إعادة تشكيل ستانفورد. أضف إلى أنه من الخطأ اعتبار ترمان وكأنه مقاول أكاديمى. فهذا التعبير الذى استخدم بكثرة ليس كافياً لوصف سلوك مديرى الجامعات الذين بحثوا عن التمويل الخارجى. فأمثال ترمان كانت توجههم قناعات أيديولوجية، وكان لترمان آراء واضحة فى تطوير البحوث بالجامعة، أى أنه كان أكبر من مجرد مدير جامعة يبحث عن تمويل خارجى.

فى هذا الإطار يصبح ترمان شخصية تاريخية مهمة، ولقد كان معجباً بهربرت هوفر - رئيس أمريكا السابق وأحد أوصياء جامعة ستانفورد - وهو ابن لويس ترمان، صانع ومطور اختبارات الذكاء، ولقد سعى ترمان إلى إدخال الصياغة الكمية فى العلوم الاجتماعية. وعند ترمان فإن الحرب الباردة وفرت الفرصة لتحقيق رؤية ناجحة للتنظيم الاجتماعى والاقتصادى، وفى تحقيق نموذج اجتماعى ناجح وجعل الجامعة جزءاً منه وهو ما سماه «مشاركة ثلاثية الطرق» أو علاقة «مكسب، مكسب، مكسب» Relation, Win, Win, Win، بمعنى أن الأطراف الثلاثة - الحكومة الفيدرالية، القطاع الخاص، الجامعة - جميعها تحقق مكاسب من هذه العلاقة بينها.

وأخيراً فإن النتيجة بالنسبة لستانفورد هى سمعة أكاديمية عالية ومال كثير. وبالنسبة للبعض فإن قصة ستانفورد هى قصة ارتفاعها إلى مستوى العظمة، وبالنسبة للبعض الآخر هى قصة انحدار، هى قصة مواهب علمية أهدرت عن طريق دولة الحروب. ■

عبد الرءوف الريدى

هانز بليكس:



■ ■ كان هانزبلكس وزوجته إيفا فى رحلة سياحية بالقطب الجنوبى عند ما جاءه اتصال من وزير الخارجية السويدية أن كوفى أنان أمين عام الأمم المتحدة يطلب إليه أن يكون رئيساً لهيئة التفتيش على الأسلحة العراقية UNIMOVIC بعد إعادة تشكيلها.

كانت تلك هى نقطة البداية فى رحلة أخذت هانز بلكس من القطب الجنوبى إلى قلب العاصفة التى تتابعت حلقاتها حتى انتهت إلى الحرب على العراق، حيث يحكى فى كتابه «نزع سلاح العراق» Disarming Iraq الذى ظهر أخيراً بالأسواق تفاصيل هذه الرحلة بعد أن عاد مرة أخرى إلى بيته وعكف على كتابة مذكراته عن هذه الدراما التى اختتم بها حياة عملية حافلة.

قابلت هانزبلكس أول مرة فى نيويورك عام ١٩٥٨ فى حفل غداء أقامه بروفيسور فيليب جيسيب أستاذ القانون الدولى بجامعة كولومبيا آنذاك ودعا إليه تلاميذه من الدبلوماسيين الشبان الذين درسوا معه. كان هانز قد سبقنى بعدة سنوات فى الدراسة بجامعة كولومبيا وأصبح بعد ذلك أحد المستشارين القانونيين لوزارة الخارجية السويدية.وكنت أنا فى بداية عملى ببعثة مصر لدى الأمم المتحدة بنيويورك، ثم توطدت العلاقة بيننا أثناء عملنا فى تمثيل بلدينا فى اللجنة السادسة «القانونية» للجمعية العامة للأمم المتحدة.. وتوثقت الصلة أكثر ابتداء من عام ١٩٦٤ حيث عملنا سوياً فى لجنة تقنين مبادئ القانون الدولى الخاصة بالعلاقات الودية بين الدول.. وقد نشأت من خلال العمل فى هذه اللجنة علاقة حميمة بين الذين عملوا بها، واستطاعوا فى النهاية أن يتوصلوا إلى صياغة إعلان قانونى مهم تضمن تطويراً للمبادئ القانونية التى تضمنها ميثاق الأمم المتحدة، وقد أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة هذا الإعلان فى عيدها الخامس والعشرين (١٩٧٠).



وفى أواخر السبعينيات تم انتخاب بلكس مديراً عاماً للوكالة الدولية للطاقة الذرية بفيينا. وكان بلكس دائماً هو ذلك «السويدى» البشوش ابن الحضارة الغربية المنفتح على بلدان العالم الثالث وقضاياها.. والمتفهم لمشاعر أبنائها.. وقد اختار بلكس للعمل معه عدداً من المصريين كان من بينهم كل من السفير دكتور محمد شاكر والدكتور محمد البرادعى الذى خلفه فيما بعد فى منصب مدير عام الوكالة، ثم جمعت بينهما مهمة التفتيش على نزع أسلحة العراق فى تلك الفترة الحرجة التى سبقت الحرب، وأصبح هذا الثنائى بلكس - البرادعى وجهاً مألوفاً على شاشات التليفزيون طوال فترة الأزمة السابقة على الحرب.

كان العراق قد عاش طوال فترة الثمانينيات فترة علاقة حميمة مع الولايات المتحدة وكانت تلك هى فترة الأعوام الثمانية التى خاض فيها الحرب مع إيران.. وقد استخدم صدام هذه السنوات فى بناء برنامجه لإنتاج أسلحة الدمار الشامل وكان الغرب يغض الطرف عنه لأنه كان يحارب إيران وكان صدام يشترى معداته وسلاحه من الغرب.. ولم تكتشف الوكالة الدولية آنذاك ما كان يجرى على أرض العراق، ولم تكن الدول الغربية تضغط على الوكالة كما تضغط عليها الآن بالنسبة لإيران لأن تفعل شيئاً لاكتشاف ما يجرى فى العراق ثم انتهى شهر العسل بين العراق والغرب بانتهاء الحرب العراقية الإيرانية، وقيام صدام بعد ذلك بحماقته الكبرى بغزو الكويت، والتى انتهت بهزيمته وبتحرير الكويت ثم كان قرار مجلس الأمن الذى وضع شروطاً أخضع فيها العراق لنظام تفتيش دقيق للتأكد من خلوه من أسلحة الدمار الشامل مع إخضاعه لنظام العقوبات وإلزامه بدفع مبالغ باهظة لتعويض الذين تضرروا من الغزو. إلا أنه بمضى الوقت استطاع العراق أن يخترق صفوف التحالف، وأن يلتف حول نظام العقوبات ثم أعلن فى عام ١٩٩٨ التوقف عن السماح لهيئة التفتيش (انسكوم) بدخول العراق متهماً أعضاء الهيئة بأنهم مجرد جواسيس وهو ما أدى إلى توقف عمل هيئة التفتيش ونشوء أزمة كبيرة بين العراق وبين مجلس الأمن وانتهى الأمر بالمجلس إلى إنشاء هيئة جديدة للرقابة بنظام معدل عرفت اختصاراً باسم UNIMOVIC. هى التى عهد لبلكس برئاستها.

جاء بلكس للعمل فى رئاسة UNIMOVIC (أول مارس ٢٠٠٠) فى وقت كان العراق قد استعاد بعض عافيته وأعلن أنه لن يتعاون مع هيئة التفتيش، إلا إذا تم إلغاء نظام العقوبات.. وبالتالى بقى بلكس فى مكتبه فى الدور الحادى والثلاثين من مبنى الأمم المتحدة دون أن يتمكن هو والفريق الذى شكله من أن يؤدى عمله فى التفتيش على أسلحة الدمار الشامل فى العراق ويكتب بلكس عن هذه الفترة، أنه استمتع فيها بأجواء مدينة نيويورك والتردد على مسارحها ومتاحفها.. وظل الحال كذلك إلى أن وقع الزلزال الأكبر فى نيويورك وواشنطن، أى أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ التى بدلت الحال وبدأت إدارة بوش حربها على الإرهاب، ووجد المحافظون الجدد فى إدارة بوش فرصتهم لتحقيق أحد أهم أهدافهم وهو الحرب على العراق وإسقاط صدام بل وإحداث تغيير فى خريطة الشرق الأوسط بدءاً بالحرب فى أفغانستان. وجرى البحث عن مبرر أو ذريعة للقيام بحرب على العراق، ويعترف بول وولفوتز أحد صقور الحرب بأن موضوع أسلحة الدمار الشامل كان افضل مبرر rationale لهذه الحرب.

ظل العراق حتى بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر يرفض التعاون مع هانز بلكس وكان وزير الخارجية العراقى يصف هيئة التفتيش بأنها مجرد شىء لا قيمة له non entity وأن هانز بلكس ليس إلا أحد التفصيلات details فى هذه الهيئة عديمة القيمة. إلا أنه بعد أن تبين لنظام صدام أن الأمر جد لا هزل، وخاصة بعد صدور قرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١ وبدء الحشود الأمريكية حول العراق، وأن الطريق الوحيد لإمكان تفادى الحرب يكمن فى التعاون مع هيئة التفتيش، عندئذ بدأ العراق فى تغيير موقفه، وقبل التعاون مع بلكس والبرادعى.. إلا أن الولايات المتحدة واصلت حشد قوتها وواصلت حملة التصعيد، وسارت حملة التصعيد الإعلامى والسياسى للحرب على العراق، أما فى مجلس الأمن فقد كان هناك بالطبع الفريق الآخر الذى يرى أن الحرب يجب أن تكون هى الملاذ الأخير الذى لا يتم اللجوء إليه إلا بعد استنفاد مهمة التفتيش وفشلها فى نزع سلاح العراق وإلا بعد الحصول على تفويض صريح من المجلس، ولكن الحرب فى النهاية وقعت دون تفويض من المجلس. وبعد تلك الرحلة الطويلة الصعبة التى خاضها كل من بلكس والبرادعى بنزاهة وشجاعة. عاد بلكس إلى بيته الهادئ فى السويد بعد الحرب وعكف على إعداد هذا الكتاب المهم الذى يروى فيه القصة كما رآها، وظهر الكتاب فى نفس الوقت تقريباً الذى ظهر فيه عدد من الكتب الأخرى مثل كتاب ريتشارد كلارك وكتاب أونيل وزير

Disarming Iraq

(نزع سلاح العراق)

Hans Blix
Bloomsbusy, 285PP., $ 16.99

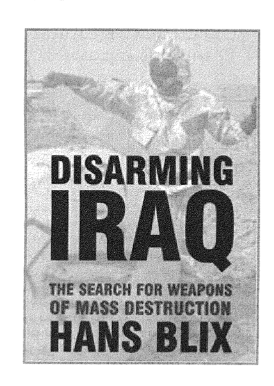
لماذا قامت الحرب؟!

الخزانة السابق وهو يؤيد ما ذهب إليه كلارك من أن فريق المحافظين الجدد كان يعمل منذ مجيئه مع إدارة بوش فى يناير ٢٠٠١ على جر الولايات المتحدة إلى غزو العراق أى قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر.

يرى بلكس أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر كان لها الأثر الأكبر فى دفع إدارة بوش إلى نهج الحرب وعدم إعطاء الوقت الكافى لفريق المفتشين لاستكمال مهمته، وقد ردد بلكس هذا الرأى فى أكثر من موضع من كتابه.. وفى اعتقادى شخصياً أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر لم تكن بذاتها هى التى دفعت إلى الحرب على العراق، ولكنها جاءت لتقدم فرصة ذهبية لفريق المحافظين الجدد بما خلقته من حالة الذعر والرعب لدى الشعب الأمريكى فاستغل المحافظون الجدد هذه الأجواء من أجل تمرير سياساتهم وتسويقها وإقناع الرئيس الجديد والرأى العام الأمريكى بها، فقد كانت الحرب على العراق أحد أهم أهدافهم منذ البداية. وقد تصادف أننى دعيت للمشاركة فى مؤتمر فى واشنطن بعد أسبوعين أو ثلاثة من أحداث الحادى عشر من سبتمبر وعدت من هذه الرحلة واثقاً أن الدور على العراق سيأتى بعد أفغانستان.

فى هذه الأيام كان بول وولفتز نائب وزير الدفاع أحد أهم الصقور يتحدث ليس فقط عن حروب مع دول بل عن إنهاء دول «ending states» ولوكان الأمر متروكاً للمحافظين الجدد بالكامل لما كانوا قد اهتموا كثيراً باللجوء إلى مجلس الأمن للحصول على تفويض الحرب على العراق ولكانوا قد ذهبوا إلى هذه الحرب بدون الأمم المتحدة، ولكنهم لجأوا إلى المنظمة الدولية نزولاً على رأى كل من تونى بلير وكولين باول ولأنهم تصوروا أنهم سيستطيعون استخدام الأمم المتحدة فى الحصول على قرار يضفى الشرعية على الحرب. ومن هنا كانت أهمية فريق التفتيش الذى رأسه هانز بلكس والبرادعى، وأهمية المواقف التى اتخذاها.

كانت المشكلة الرئيسية تتمثل فى أن هناك مواد كان قد ثبت أنها كانت فى حوزة العراق قبل عام ١٩٩١، وهى مواد تكفى لإنتاج كميات من الأسلحة البيولوجية والكيميائية وكان العراق قد ذكر أنه قد تم تدمير هذه المواد ضمن ما تم تدميره من أسلحة دمار شامل فى هذا العام إلا أنه لم يستطع أن يثبت أنه قد قام بالفعل بتدميرها، ولم تكن لديه السجلات التى تؤكد سبق تدميرها، وكان الأمريكان يعتبرون أن عدم تقديم الدليل على تدمير هذه الأسلحة يعنى أن العراق أنتج هذه الأسلحة وأنها فى حوزته، فى حين أن بلكس كان يرى أن عدم وجود دليل على تدمير الأسلحة لا يعنى بالضرورة أن هناك أسلحة دمار شامل لدى العراق. لم يكن بلكس يقول أن عبء الإثبات يقع على الولايات المتحدة طبقاً



لقاعدة أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته، ولكنه كان يقول أن الأمر مازال يحتاج إلى وقت لإجراء مزيد من البحث والتقصى ولا يمكن القفز إلى القول بأن غياب الدليل يعنى أن هذه المواد قد استخدمت فى إنتاج أسلحة دمار شامل، أو أن هذه الأسلحة موجودة بالفعل فى حوزة العراق، كان ذلك هو صلب الخلاف بين فريق الحرب وبين فريق المفتشين. إلى أن قامت الولايات المتحدة بالحرب ثم تبين بعد ذلك أنه لا توجد أسلحة دمار شامل بالعراق.



وفى هذا يتساءل بلكس: ماذا كان يمكن أن يكون عليه الموقف الآن أى بعد أن تبين أنه لا توجد أسلحة دمار شامل بالعراق؟، ماذا كان سيكون عليه الوضع لو أن فريق التفتيش بقيادته وبقيادة البرادعى كان قد انصاع للضغوط وأعلن ما كان يراد منه أن يعلنه من استنتاجات تدعم الادعاء بأن العراق يملك أسلحة دمار شامل فى وقت لم يتبين لهما وجود هذه الأسلحة وفى وقت كانت العراق تبدى كل صور التعاون مع فريق التفتيش من أجل إثبات خلوها من هذه الأسلحة... هذا هو السؤال المهم الذى طرحه بلكس والذى ينبغى أن يظل دائماً فى الأذهان...

ضمّن بلكس كتابه فحوى مقابلاته وأحاديثه مع بوش، وبلير، وتشينى، وباول، وكونداليزا رايس.. وغيرهم كما تحدث عن الاجتماع الأخير لمجلس الأمن يوم ٧ مارس٢٠٠٣ وقد انعقد هذا الاجتماع فى وقت كان العراق قد أبدى فيه تعاوناً كاملاً مع فريق التفتيش، هذا بينما كانت الولايات المتحدة تعمل جاهدة للحصول على قرار من المجلس يفوضها باللجوء للحرب.. وكانت هناك كلمات لو كان بلكس والبرادعى قد تفوها بها لاستغلها فريق الحرب من أجل استصدار القرار الذى كانوا يعملون المستحيل لاستصداره، ولعل هذه المسئولية الكبيرة التى كانت تعنى حرباً أو سلاماً هى التى جعلت الرجلين يحرصان على وزن كل كلمة يتفوهان بها بميزان الذهب.

كان الموقف أكثر وضوحاً بالنسبة للملف النووى.. مما جعل البرادعى يعلن فى المجلس إنه بعد ثلاثة أشهر من التفتيش الدقيق فإن الوكالة لم تجد أى مؤشر على أن العراق قد أعاد بناء برنامجه النووى، وأن الأمر مع ذلك قد يحتاج إلى عدة أشهر أخرى للتيقن تماماً من ذلك.. أما بلكس الذى كان مسئولاً عن الملف البيولوجى والملف الكيميائى فكان الأمر بالنسبة له أكثر تعقيداً خاصة مع عدم وجود أدلة لدى العراقيين تثبت أن هذه المواد سبق تدميرها.. إلا أن بلكس مع ذلك قال فى المجلس أن الأمر لا يحتاج إلى سنوات ولكنه قد يحتاج إلى شهور من أجل التثبت من خلو العراق من هذه الأسلحة... كان المطلوب إذن هو إعطاء مزيد من الوقت لفريق التفتيش، وعدم الاندفاع إلى حرب فى ظل عدم وجود الدليل... ولكن الولايات المتحدة كانت قد حزمت أمرها، وأصبح وجود القوات محتشدة حول العراق عاملاً استغله فريق المحافظين الجدد الذين كانوا يرددون دائماً أنه لا يمكن ترك هذه القوات فى الصحراء حتى بلوغ فصل الصيف إرضاءً لفريق المفتشين والمعارضين إصدار قرار التفويض بالحرب... فكان الاندفاع نحو الحرب...



وقد فند بلكس فى كتابه مجموعة الدعاوى التى أثارها الأمريكان واستخدموها كمحاولة لإقناع مجلس الأمن والرأى العام بامتلاك العراق لأسلحة دمار شامل... وكان أبرز هذه الدعاوى ما جاء على لسان الرئيس الأمريكى فى خطابه أمام الكونجرس عندما قال أن البريطانيين قد علموا أن العراق حاول الحصول على كميات كبيرة من اليورانيوم من إحدى الدول الأفريقية.. ثم اتضح بعد ذلك عدم صحة هذه الدعوى، وقد أوضح البرادعى آنذاك - أن العقد الذى قيل أنه تضمن صفقة شراء يورانيوم بين العراق وإحدى الدول الأفريقية «النيجر» هو عقد مزور.. وقد تبين فيما بعد ذلك صحة ما قاله البرادعى عندما أوفدت الولايات المتحدة أحد سفرائها إلى هذا البلد الأفريقى للتحقق من هذه الواقعة فعاد ليقول أنها غير صحيحة.. بل والأكثر من ذلك عندما اعترف كولين باول بعد الحرب بشهور بأن الكثير مما قاله نقلاً عن المعلومات الاستخبارية فى جلسة مجلس الأمن الشهيرة يوم ٥ فبراير ٢٠٠٣ قد تبين له فيما بعد أنه كان غير دقيق وتلك هى الجلسة التى كان جورج تينت رئيس وكالة المخابرات المركزية يجلس فيها خلف كولين باول أثناء إلقائه بيانه المشهور.

قدم بلكس فى كتابه عرضا شاملاً لتطور موضوع

التفتيش والصراع الذى دار بين الدول الثلاث (الولايات المتحدة وإنجلترا وأسبانيا) التى كانت تدفع فى اتجاه الحرب قبل انتهاء مهمة التفتيش وبين الدول الأخرى التى أصرت على أنه طالما أن المفتشين مازالوا يقومون بمهمتهم فإنه ينبغى تمكينهم من إنهاء هذه المهمة فإذا لم يتمكنوا أو لم يمكنهم العراق من تنفيذها على النحو الأكمل فسيكون من الممكن عندئذ اللجوء للقوة، كان ذلك هو فحوى الصراع بين بوش وبلير من ناحية وبين شيراك وشرودر وبوتين من ناحية أخرى. ولعله مما سيكتب يوماً فى هذا الشأن وسيكون موضع فخر أولئك الذين مازالوا يعتقدون أنه مازال للشرعية الدولية دور فى تسيير شئون العالم أن الولايات المتحدة رغم جبروتها وقوتها عجزت عن أن تحصل على أصوات دول تدور أساساً فى فلكها مثل المكسيك وشيلى... ودول أخرى صغيرة مثل أنجولا والكاميرون للموافقة على قرار يخولها أو يفوضها بالقيام بالحرب، وهو ما بين لنا أو يجب أن يبين لنا أن الطريق ليس دائماً مفروشاً بالورود أمام أصحاب العصا الغليظة، وها هو الزمن يدور دورة أخرى وتجد الولايات المتحدة نفسها اليوم تلجأ إلى الأمم المتحدة «لمساعدتها» فى الخلاص من ورطتها فى العراق!! تلجأ إلى هذه المنظمة الدولية التى طالما احتقرها المحافظون الجدد فى إدارة بوش واعتبروها مجرد «مكلمخانة».

تحدث بلكس فى كتابه مطولا عن أسلوب تعامل العراق مع هيئة المفتشين، سواء فى ذلك هيئة التفتيش الأولى «أنسكوم» التى رأسها أيكيوس (السويدى) ثم رأسها بعده ريتشارد باتلر (الاسترالى) وهى الهيئة التى أنهى العراق التعاون معها فى عام ١٩٩٨ أو الهيئة الجديدة برئاسته وأوضح بلكس أن العراق بدأ فى التعاون معها فقط عندما تبين أن التهديد بالحرب جدى تؤكده القوات المحتشدة والتهديدات الرسمية بما فى ذلك قرار مجلس الأمن رقم (١٤٤١) الذى استخدم عبارة «النتائج الوخيمة» التى تنتظر العراق إذا لم يتعاون مع فريق التفتيش تعاوناً تاماً ويثبت خلوه من أسلحة الدمار الشامل. وكيف أن التعاون العراقى وصل فى مرحلة ما قبل الحرب مباشرة إلى نوع من التلهف على قبول كل مقترحات بلكس والبرادعى بما فى ذلك تدمير صواريخ «صمود ٢» فى سابقة لم تحدث فى التاريخ وهى أن تقوم دولة بتدمير أهم ما لديها من سلاح وهى ترى



لـمـاذا قـامـت الحـرب؟!



لماذا ترك العراق الشكوك لتنمو حول امتلاكه لأسلحة دمار شامل؟ بينما لم تكن لديه هذه الأسلحة؟، لماذا ظل لا يتعاون مع لجان التفتيش لعدة أعوام؟



العدو يحتشد على أبوابها ويستعد لغزو أراضيها...

ويتساءل بلكس بعد أن تبين أنه لم يكن لدى العراق أسلحة دمار شامل، لماذا ترك العراق الشكوك لتنمو حول امتلاكه لأسلحة دمار شامل؟ بينما لم تكن لديه هذه الأسلحة؟، لماذا ظل لا يتعاون مع لجان التفتيش لعدة أعوام؟... ويحاول بلكس أن يجيب على هذا السؤال بطرح عدة أسباب افتراضية.. من بينها أن العراق لم يكن لديه دافع قوى للتعاون مع فرق التفتيش طالما أنه لم يكن هناك ربط بين التعاون وبين رفع العقوبات.. إلا أنه أضاف سبباً آخر أعتقد أنه السبب الأهم لأنه يتفق مع عقلية وشخصية صدام التى أصبحت معروفة منذ بدأ فى ارتكاب حماقاته بغزو إيران عام ١٩٨٠ وهى العقلية التى تسيطر عليها روح الغرور الأجوف والكبرياء الزائفة.. التى اتسمت بها تصرفات صدام. ويتمثل ذلك باختصار فى أن صدام ربما وجد فى ترك الانطباع ينمو بأنه يمتلك أسلحة دمار شامل ما يجعله يظهر وكأن العراق أصبح يستعيد قوته العسكرية مرة أخرى وربما تصور أن هذا الانطباع قد يشكل فى حد ذاته ردعاً عن الغزو.. وأذكر اننى شاهدت طارق عزيز على شاشة التليفزيون قبل أن تقبل العراق التعاون مع فريق التفتيش يقول رداً على سؤال: «من السخف أن تقوم العراق بالتخلى عما لديها من أسلحة دمار شامل فى الوقت الذى قد تتعرض فيه لعدوان من الخارج».. قال طارق عزيز ذلك فى الوقت الذى كان يعلم فيه أنه لا توجد لدى العراق أسلحة دمار شامل.. ولقد شبه بلكس موقف العراق هنا بمن يضع لافتة على مزرعته كتب عليها «احترس من الكلاب» فى الوقت الذى لا توجد فيه كلاب فى المزرعة!!.

يتبين من خلال قراءة الكتاب أن بلكس كان يأمل ويعمل من أجل تفادى الحرب وقد اتبع فى سبيل ذلك سياسة ذات شقين، فهو من ناحية كان يضغط على العراق لإبداء مزيد من التعاون مع فريق التفتيش ويستخدم وسائل الإعلام فى ممارسة هذا الضغط، فكان يقول للعراقيين دائماً إنه لم يتبق سوى دقائق على منتصف الليل (أى ساعة شن الحرب) فى نفس الوقت الذى كان يوضح فيه للجانب الأمريكى والبريطانى أن المعلومات التى قدموها له باعتبارها معلومات استخبارية عن مواقع إنتاج وتخزين أسلحة الدمار الشامل فى العراق هى معلومات فى أغلبها الأعم معلومات زائفة ومغلوطة. ولم يتورع الرجل عن أن يصرح بذلك فى مجلس الأمن حيث كان يصر على أن التفتيش لإزالة أسلحة الدمار الشامل مازال يسير قدما ويحقق نتائج.. ويجب استمراره.. وأنه ليس هناك ما يبرر إيقافه... قبل بلوغ أهدافه طالما أن العراق يتعاون تماما مع فريق التفتيش.

هذه السياسة التى اتبعها بلكس فى الضغط على الجانبين بأمل منع الحرب لم تكن بطبيعة الحال تروق للصقور فى واشنطن الذين كانوا يتحرقون شوقاً لشن الحرب.. بل لقد جلبت عليه غضبهم فصاروا يهاجمونه عن طريق وسائل الإعلام فضلاً عما تعرض له من انتقاد مباشر من جانب نائب مساعد وزير الخارجية جون وولف فى أحد الاجتماعات الخاصة بهيئة التفتيش.

ولقد أذاع بلكس سراً لم يكن معروفاً من قبل وهو أنه حاول إرسال رسالة إلى صدام عندما التقى بعمرو موسى فى الأمم المتحدة. وكان قد أعلن أن موسى سيذهب إلى بغداد لمقابلة صدام.. وكان ذلك قبل الحرب بأقل من أسبوعين... وتمثلت الرسالة فى اقتراح أن يقوم صدام بعمل درامى يجتذب انتباه العالم، بأن يعلن عن استعداده للتعاون الكامل مع فريق المفتشين وأنه سيفتح لهم كل المواقع دون استثناء، وأنه يسمح للمواطنين العراقيين بمقابلة المفتشين والتحدث معهم بدون أى رقيب.. الخ. وانه يدعو بلكس والبرادعى للحضور إلى بغداد ومقابلته لتلقى هذه التأكيدات.. وبعد أن اتفق بلكس مع موسى على هذه الرسالة جاء الإعلان عن إلغاء زيارة بعثة الجامعة العربية لبغداد.

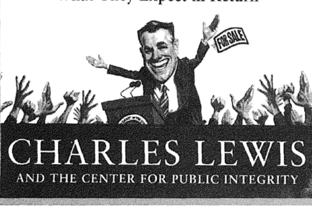
لقد قدم بلكس فى هذا الكتاب شهادة للتاريخ وللرأى العام.. وأبرأ ذمته، ولا شك أن أهمية هذا الكتاب لا تقتصر على قيمته التاريخية... ولكنه يقدم حالة دراسة «Case Study» تدرس فى الجامعات ضمن مواد التنظيم الدولى والقانون الدولى حول الصراعات والضغوط التى يمكن ان يتعرض لها الموظف الدولى International Civil Servant... وما يجب أن يفعله ليحافظ على روح الأمانة والمصداقية التى لو تخلى عنها لعاد ذلك بأوخم العواقب على ما يمثله نظام الأمم المتحدة من قيمة.



ذكرنى كتاب بلكس أثناء قراءتى له... بموقف رجل آخر... هو أيضاً سويدى وكان سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة، وهو داج همرشلد الذى وقف معارضاً العدوان الثلاثى الذى شنته كل من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦.. وقد استخدمت آنذاك وسائل أخرى لتضليل الرأى العام الدولى وتزييف الحقائق... ولكن همرشلد وقف مدافعاً عن أحكام ميثاق الأمم المتحدة. وهدد بالاستقالة من منصبه وكان لموقفه أكبر الأثر فى إعلاء قيمة الأمم المتحدة ونجاحها فى وقف العدوان.. لقد مات همرشيلد بعد ذلك ولكن ذكراه بقيت لا تنسى وأصبحت مواقفه تدرس فى الجامعات والمعاهد ويضرب بها المثل فى الدفاع عن قيمة الأمم المتحدة وميثاقها.

وإذا لم يكن بلكس والبرادعى قد استطاعا إيقاف عجلة الحرب.. فإنهما على الأقل أنقذا مصداقية نظام الأمم المتحدة وما كان يمكن أن تتعرض له من «عار» لو أنهما تخليا عن روح الأمانة. لقد أثبتا للعالم أنه مازال هناك رجال شرفاء... قادرون على التمسك بالقيم والمبادئ ضد أعتى القوى... وفى أصعب الظروف. ■

THE
BUYING
OF THE
PRESIDENT
2004
Who's Really Bankrolling Bush and His Democratic Challengers—and What They Expect in Return



CHARLES LEWIS
AND THE CENTER FOR PUBLIC INTEGRITY



فكــــــرى أنــــــدراوس

The Buying of the President 2004
(شراء الرئاسة الأمريكية ٢٠٠٤)
Charles Lewis, and
Center For Public Integrity
Harper Collins pub., 2004, 507pp

هناك ملاحظتان أود التوقف عندهما قبل البدء فى عرض هذا الكتاب المهم، ومناقشة أفكاره.

أولاهما: الدور المحورى الذى يلعبه اللوبى الأمريكى «جماعات الضغط» فى تسيير شئون السياسة الأمريكية، والدفع بها فى اتجاه معين، على الصعيدين: الداخلى والخارجى، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

لوبى المزارعين، ولوبى الصناعات المختلفة ولا سيما صناعة السلاح، ولوبى العمال وحقوق المرأة، ولوبى المسنين، ولوبى البنوك ورجال الأعمال، واللوبى اليهودى المناصر لإسرائيل.

وتسهم هذه الجماعات إسهاماً كبيراً فى تمويل الانتخابات الأمريكية المهمة كافة، الأمر الذى ينعكس - على نحو واضح - فيما تتخذه دوائر صنع القرار من سياسات إلا أن هذا التمويل ليس إلا رشوة تم تمويهها أو التغطية عليها بأسماء ودعاوى مختلفة، صرفاً للأنظار عن ماهيتها الحقيقية. وإن كنا فى العالم العربى لا نولى اهتماماً يذكر إلا للوبى اليهودى، وذلك لأسباب لا تخفى، إلا أن الفساد السياسى المصاحب لتمويل الانتخابات فى الكونجرس الأمريكى أو فى رئاسة الدولة له تأثير أكبر بكثير من اللوبى اليهودى. غير أن الأخير ليس إلا واحداً من ظواهر عديدة تبين لنا بجلاء كيفية التأثير، وأحيانا التحكم فى عمليات اتخاذ القرار.

ثانيتهما: من المعروف أن هناك فروقاً تقليدية بين الحزبين الرئيسيين: الجمهورى والديمقراطى فى الولايات المتحدة الأمريكية. إذ يمثل الحزب الجمهورى المحافظ مصالح رجال الصناعة والمال والتجارة والصناعات الحربية، بينما يمثل الحزب الديمقراطى مصالح العمال والمدرسين والأمريكان الأفارقة والمرأة، وجهود المحافظة على البيئة وتشجيع البحث العلمى. وهو حزب يتأرجح بين الليبرالية والوسط. غير أن من اللافت للنظر أنه منذ النصف الثانى من القرن الماضى، حدث تحول فى بنية الحزب الديمقراطى وتوجهاته أفضيا إلى اتجاه بعض أعضاء الحزب إلى تمويل حملاتهم الانتخابية من حافظة رجال الصناعة والمال، وأصبحت أفكارهم تنحو منحى الوسط أو اليمين. وقد وضع «رالف نادر» العربى الأصل ومرشح الرئاسة فى الانتخابات الرئاسية المقبلة، كتاباً قيماً أشار فيه إلى التغيير سالف الذكر، وانعكاساته على الحزب الديمقراطى دعاه باسم «Crahsing the party» كما نوه نعوم تشومسكى «الأستاذ الشهير(MIT)» إلى حقيقة مفادها أنه لم يكن هناك اختلاف كبير يثير الانتباه بين مرشح الحزب الجمهورى «بوب دول» وبين «بيل كلينتون» مرشح الحزب الديمقراطى لانتخابات سنة ١٩٩٢، بل إن كلينتون كان المرشح الأفضل والأقرب إلى أباطرة الصناعة الأمريكية الذين دعموه ومنحوه ثقتهم.



نأتى بعد ذلك إلى الكتاب الذى نحن بصدده والذى صدر أوائل هذا العام، واشترك فى تحريره وتجميع مادته خمسون باحثاً وصحفياً، واشتمل على أكثر من ٦٠٠ تحقيق وبحث، عدا مئات الآلاف من التقارير الخاصة بحكومتى الفيدرالية والولايات وقد نشرت المؤسسة المسئولة The center for public integrity قبل صدور هذا الكتاب - مائتين وخمسة وعشرين تقريراً وأحد عشر كتاباً، وحصدت عنها خمس عشرة جائزة من جهات تتمتع بالحيدة والموضوعية، وتحظى بالاحترام من الأوساط كافة.

والكتاب الذى نتناوله الآن، هو الثالث فى قائمة إصدارات هذه المؤسسة عن انتخابات الرئاسة، التى حرصت على أن يأتى تحت العنوان ذاته، إذ كان الكتاب الأول عن انتخابات عام ١٩٦٩، والثانى عن انتخابات عام ٢٠٠٠. وربما لا يعرف الكثيرون أنها مؤسسة لا تستهدف الربح ولا تتاجر فى الكتب، وأغلب مطبوعاتها موجودة على الإنترنت، على الموقع التالى:

(١) www.public integrity. Org
(٢) www.Bob2004.Org

منذ عام ١٩٧٦، يفوز المرشح، الذى يتمكن من جمع أكبر تمويل مالى لحملته الانتخابية، بترشيح الحزب له أو بتصديقه على ترشيحه، بصرف النظر عن مبادئه ومدى مصداقيتها، أو قدرته على الوفاء ببرنامجه



وكتابنا الذى نقدمه اليوم يقع فى خمسمائة صفحة، ويباع بخمسة عشر دولاراً أى بسعر تكلفته. وهو كتاب يثير القلق ويستدعى الخوف على مستقبل الديمقراطية الأمريكية التى يعدها البعض المثل والأنموذج اللذين يتعين على العالم أن يقتدى بها، ويسير على نهجها، فما ورد به من معلومات عن قوائم ممولى الانتخابات لكل مرشح للرئاسة، والأموال المدفوعة فيها، ومدى تأثير ذلك على القرارات التى تتخذها الدولة، وعلى المواطن الأمريكى، يدحض - لاشك - المزاعم التى تدعيها لنفسها فى هذا الصدد، ويكشف محتوى ديمقراطية جاهزة الإعداد والتصدير لشعوب العالم الثالث، وأنها وسيلة من وسائل الضغط على حكوماتها.

بيد أن مأثرة هذا الكتاب الكبرى أنه فى تعرضه بالبحث والدراسة لما يجرى ويدور فى أروقة الحملات الانتخابية للرئاسة، يستدعى إلى الذهن صورة انتخابات الكونجرس الأمريكى التى تعد صورة مصغرة لها، وتجلياً لفضائح انتخابات الرئاسة. وهى أمور تحجم شركات الإعلام الكبرى عن ذكرها، بل تغض الطرف عنها، وتعلم الأوساط الأمريكية أنه منذ عام ١٩٧٦، فإن المرشح الذى يتمكن من جمع أكبر تمويل مالى لحملته الانتخابية، يفوز بترشيح الحزب له أو بتصديقه على ترشيحه، بصرف النظر عن مبادئه ومدى مصداقيتها، أو قدرته على الوفاء ببرنامجه. فالفائز الحقيقى فى الانتخابات هو الممول الذى يقف خلف مرشحه، الذى يرد الدَين له بطريقة أو بأخرى من خلال التسهيلات الممنوحة له، أو المناصب المهمة التى تذهب إليه وإلى أنصاره، أو عبر التشريعات التى تسن لصالحه. وهناك مقولة أمريكية قديمة تقول: «إن أحسن استثمار عندنا هو شراء الكونجرس الأمريكى» «We have a congress the best money can bye».

ومن البديهى أن شراء الرئاسة سيكون أفضل لمن يملك أموالاً أكثر. لكن المؤسف حقاً فى هذا السياق، هو تقلص دور الفرد العادى، وتصاعد نفوذ الأغنياء والشركات الكبرى فى إقرار مجريات الانتخابات الأمريكية وإن كان دور الإنترنت سوف يتعاظم بشدة فى التأثير على مسيرة الانتخابات فى المستقبل، إلا أن هذا سيكون مقصوراً على القادرين على استخدام الإنترنت، مما يؤدى إلى استبعاد الفقراء ومن نالوا قسطاً محدوداً من العلم.

غير أن أخطر ما يلفت النظر فى موضوعنا هذا، هو ذلك الدور الذى تلعبه شبكات التليفزيون والراديو وبعض الصحف الكبرى، التى أصبحت تحت سيطرة شركات كبيرة ذات نفوذ قوى، فى تشكيل وعى المواطن وتعبئته خلف مرشح بعينه، ومن نافل القول إن الإعلان فى التليفزيون يكلف الكثير، ولا يستطيع أن ينهض به إلا من كان يملك التمويل القوى.

أجل.. لقد تغيرت معالم انتخابات الرئاسة منذ النصف الثانى من القرن الماضى، وتغيرت الأساليب التى كانت سائدة فيما سلف من عهود، وتم استبدالها بوسائل الإعلام الحديثة التى أصبحت تهيمن على شتى جوانب الحياة فى العالم. ولعلنا نتذكر ما جرى فى انتخابات سنة ١٩٦٠ بين المرشحين الرئاسيين: نيكسون وكيندى فى الانتخابات التمهيدية، وكيف استطاع كيندى تسويق برنامجه الانتخابى والترويج له بذكاء على شاشة التليفزيون، على الرغم من أنه لم يبدأ حملته إلا خلال أسابيع قليلة قبل ترشيح الحزب له، ولم يزر سوى سبع ولايات فقط، وذلك على عكس ما هو متبع الآن، حيث تستغرق الانتخابات التمهيدية ما بين عام أو عامين، فضلاً عن احتياجها لتمويل مادى كبير، ومؤازرة معنوية ضخمة.



وإن كانت الشركات الكبرى تمول الحزب الجمهورى أكثر من تمويلها للحزب الديمقراطى، إلا أن التمويل قد يتساوى بين الحزبين فى حالة سيطرة الحزب الديمقراطى على الكونجرس، فمثلاً شركات الادوية دفعت مليونين ونصف مليون دولار للجمهوريين سنة ١٩٩٢، و ٢.٤ مليون دولار للديمقراطيين، عندما كانت الأغلبية لهم، وبعد تغير الأمر لصالح الجمهوريين، حيث صارت لهم الأغلبية، قامت شركات الادوية بدفع ١٦.٣ مليون دولار للجمهوريين، و ٤.٤ مليون دولار للديمقراطيين. إن الشركات تدفع للنواب المهمين بصرف النظر عن هويتهم الحزبية، إذا كانوا سيساعدونها والشىء ذاته يقال عن الكثير من الشركات الصناعية. خذ مثلاً آخر على ذلك وهو شركات التعدين التى دفعت ٢.٤ مليون دولار لتمويل انتخابات سنة ٢٠٠٢، ذهب ٩٠٪ منها للجمهوريين، و١٠٪ منها إلى الديمقراطيين، وكانت النتيجة أن الجمهوريين قدموا تسهيلات فى قوانين التحكم فى التلوث البيئى حتى تقل مصاريف الشركات، بالتغاضى عن ٣ بلايين لتر من نفايات تلك الشركات. وقد أصبح المسئول عن لوبى شركات التعدين، أكثر ملوثى البيئة، هو Marc Raciot رئيس الحزب الجمهورى. كما دفعت شركات الجاز مبلغ ٧ ملايين دولار لبوش وللحزب الجمهورى، وحصلت مقابل ذلك على الحق فى استخراج الجاز من الحدائق القومية.



إن تمويل الحملات الانتخابية، والفساد السياسى المرتبط بها، جعلا الترشيحات تكاد تكون مقصورة على الاغنياء. غير أن حوالى ٤٠٪ من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى وبعض محافظى الولايات، مليونيرات، قبل أن يبدأوا حياتهم السياسية. إن أكثر من ٩٩٪ من الشعب الأمريكى لا يملك تلك الثروات الطائلة، للدخول فى مغامرات سياسية، ومن لا يملك التمويل فعليه أن يجده عند آخرين، على أن يدفع المطلوب فى المستقبل. لقد قال جيمى كارتر الرئيس الامريكى الأسبق، والحاصل على جائزة نوبل للسلام: إننا الديمقراطية الغربية الوحيدة التى اصاب نظامها الانتخابى هذا السرطان.

ونتيجة ما يبدو من قلة مشاركة وتأثير المواطن الأمريكى العادى فى الحياة السياسية فقد أحجم ما يقرب من ١٠٠مليون أمريكى (٤٠٪) عن المشاركة فى الانتخابات، وبذلك فقدت الديمقراطية الحقيقية دورها ويبدو أن الكثير من الأمريكان لا يعلمون أو حتى لا يهمهم أن يعلموا ذلك.

لقد أثار تمويل الانتخابات اهتمام الكثيرين داخل وخارج الكونجرس، ورأى الرئيسان السابقان فورد وكارتر وآخرون أن أفضل طريقة للخروج من هذا المأزق، هى أن تمنح شركات الاعلام أوقاتاً ومساحات متساوية لكل مرشح وعلى الرغم من وجاهة هذا الاقتراح، الا أن هناك مشكلتين: الأولى هى: «من هو المرشح الذى يحق له أن يأخذ هذا الوقت الإعلامى بدون أجر؟» والثانية هى: ما الذى يدفع شركات الإعلام إلى منح هذا الوقت أو المساحة الاعلامية بدون أجر؟ علماً بأن الحملات الانتخابية تكاد تكون مستمرة، وتمثل دخلاً كبيراً لشركات الإعلام.

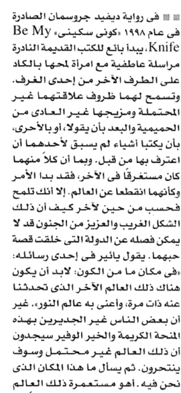
وعلى الرغم من النظرة المتشائمة إلى الديمقراطية الأمريكية إلا أن البعض يرى أنه فى إمكان مجموعات صغيرة من المتحمسين لقضية عادلة ومهمة أن يؤثروا ويصلحوا المسار. إن المجتمع الأمريكى مازال فى دور الشباب، وهو مجتمع ديناميكى، وقد يتمكنون من إيجاد طريقة أفضل لمسيرة الانتخابات، وللحفاظ على الديمقراطية.



هناك سؤالان يهم القارئ العربى معرفة إجابة عنهما. السؤال الأول: ما موقف المرشح الديمقراطى أو الجمهورى من القضية الفلسطينية؟ والكتاب لم يذكر أى شىء عن ذلك. إلا أننى لا أعتقد أن هناك أى فارق كبير بين المرشحين فى هذه القضية، خاصة من لديهم فرصة للفوز. والدليل على ذلك، هو سياسة أمريكا فى نصف القرن الماضى. أما السؤال الثانى فهو: هل النموذج الأمريكى الحالى للديمقراطية هو ما تريد أمريكا أن تفرضه على العرب؟ والإجابة طبعاً: نعم، ليس من جانب أمريكا فقط، بل، أيضاً من جانب الشركات الاحتكارية الكبرى فى ظل نظام العولمة. والسؤال الذى يجب أن نسأله لأنفسنا اذا كنا لا نريد النموذج الأمريكى للديمقراطية فأى ديمقراطية ننشد؟ ■

دولة تحتضر

جاكلين روز



■■ فى رواية ديفيد جروسمان الصادرة فى عام ١٩٩٨ «كونى سكينى» Be My Knife، يبدأ بائع للكتب القديمة النادرة مراسلة عاطفية مع امرأة لمحها بالكاد على الطرف الآخر من إحدى الغرف. وتسمح لهما ظروف علاقتهما غير المحتملة ومزيجها غير العادى من الحميمية والبعد بأن يقولا، أو بالأحرى، بأن يكتبا أشياء لم يسبق لأحدهما أن اعترف بها من قبل. وبما أن كلاً منهما كان مستغرقًا فى الآخر، فقد بدا الأمر وكأنهما انقطعا عن العالم. إلا أنك تلمح فحسب من حين لآخر كيف أن ذلك الشكل الغريب والعزيز من الجنون قد لا يمكن فصله عن الدولة التى خلقت قصة حبهما. يقول يائير فى إحدى رسائله: «فى مكان ما من الكون: لابد أن يكون هناك ذلك العالم الآخر الذى تحدثنا عنه ذات مرة، وأعنى به عالم النور». غير أن بعض الناس غير الجديرين بهذه المنحة الكريمة والخير الوفير سيجدون أن ذلك العالم غير محتمل وسوف ينتحرون. ثم يسأل ما هذا المكان الذى نحن فيه. أهو مستعمرة ذلك العالم العقابية»؟ ربما كل إنسان هنا، «رجلاً كان أم امرأة، لا يهم، عجوزًا كان أم شابًا»، قد انتحر بالفعل.

طوال عقدين تقريبًا يقلب جروسمان فى ذهنه فكرة أن إسرائيل. وهى الدولة المعجزة كما تحب أن ترى نفسها. قد تكون فى واقع الأمر دولة تُحتَضر. وقد قال مؤخرًا فى مناقشة مع عاموس أوز: «كى تحافظ على الثقافة، وكى تحافظ على الديمقراطية بشكل خاص، لابد من نوع ما من الوهم»، وفى إسرائيل الآن تفسخت طبقة الثقافة «مما يجعل الأوهام اللازمة للحفاظ على نسيج حياة محتمل بصورة أو بأخرى أمرًا ممكنًا». فإيمانك بنفسك وبعالمك وهم، مع أنه وهم نحن بحاجة إليه كى نستمر فى حياتنا اليومية. ويرى جروسمان أن هذا يمزق اللحظة التى تشهدها أنت شر ممزق. ومنذ ذلك الوقت غالباً ما يكون الشىء الذى تخشاه، أو ينبغى أن تخشاه، ليس هو احتمال أن تنتهى حياتك نهاية عنيفة فى أى وقت من الأوقات. وهى الخوف الذى بات حقيقيًا الآن بالنسبة لكل مواطن فى دولة كان المقصود بها ان تجعل الشعب اليهودى آمنًا. بل هو أنك مت بالفعل. وهو يكتب فى «الموت طريقةً للحياة»: «دولة بكاملها. ستة ملايين إنسان سمحوا لعقلهم وإرادتهم وحكمهم بالهبوط إلى درك السلبية الإجرامية المستفزة». و«حين نخرج من تلك الشرنقة التى تحتوينا، ربما يكون الوقت قد فات». إن كتابة جروسمان رد على كل من يقولون إنه من السهل إلى حد كبير أن تنتقد إسرائيل من الخارج؛ فهو يسجل من داخل أقدس مدينة فى البلد، وأكثر ما يُتنازع عليه من مدنها، خيبة أمل فى الدولة؛ فإسرائيل دولة تُخَيِّب الآمال.







أحمد اللباد

ولكن ماذا عن الدولة التى لا يمكنها إنقاذ ابنها؟ من المستحيل ألا تقرأ قصة كازيك الطفل المعجزة فى إحدى روايات جروسمان باعتبارها قصة رمزية لمولد إسرائيل ونموها، حيث يجده زوجان عقيمان ويشيخ بسرعة ليصبح رجلاً عجوزًا حين يموت بعد اثنتين وعشرين ساعة. وفى نهاية «كونى سكينى» تخالف ميريام اتفاقها مع يائير وتندفع إلى بيته حين يوضح لها فى مكالمة هاتفية أنه تشاجر مع ابنه، وأن الصبى يتجمد ببطء خارج البيت فى المطر، وأنه لابد أن يحطم إرادة الصبى (ليس واضحًا فى نهاية الرواية إن كان أى من الابن أو الأب قد بقى على قيد الحياة). ويُنظر إلى إسرائيل باستمرار على أنها تكافح من أجل البقاء؛ فهذا هو مبرر وجودها. وعلى عكس الخطاب السائد، يقدم لنا جروسمان دولة يتضح أنها. من خلال سلوكها العنيف والعنيد الذى تضر به نفسها. مصممة على تدمير نفسها.

وما من دولة، وما من ديمقراطية، يمكنها العيش بدون أوهام. وإذا كان جروسمان محقًا فى ربطه بين علل الدولة وعلل أبنائها، فلابد أن نبحث فى شباب إسرائيل. مفخرتها. عن الشروخ التى على السطح وعن الاعتلال الذى فى الروح. وفى الوقت الذى أكتب فيه هذا الكلام، حكمت محكمة يافا العسكرية بالسجن لمدة سنة على خمسة من اليافعين الرافضين لأداء الخدمة العسكرية فى الأراضى المحتلة. وسبب ذلك هو أنهم جهروا بتخلصهم من الوهم

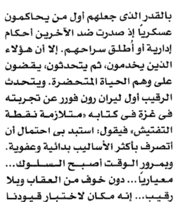
---

١. **Someone To Run With**
(شخص تهرب معه) قصة
David Grossman
Farrar Strous and Giroux 2004

٢. **Israel Ten Years After Oslo: death as a way of life**
(إسرائيل.. عشر سنوات بعد أوسلو)
David Grossman
Farrar Strous and Giroux 2003

بترتيب مع: لندن ريفيو أوف بوكس

ترجمة: أحمد محمود



بالقدر الذى جعلهم أول من يحاكمون عسكرياً إذ صدرت ضد الآخرين أحكام إدارية أو أُطلق سراحهم. إلا أن هؤلاء الذين يخدمون، ثم يتحدثون، يقضون على وهم الحياة المتحضرة. ويتحدث الرقيب أول ليران رون فورر عن تجربته فى غزة فى كتابه «متلازمة نقطة التفتيش» فيقول: استبد بى احتمال أن أتصرف بأكثر الأساليب بدائية وعفوية. وبمرور الوقت أصبح السلوك... معيارياً... دون خوف من العقاب وبلا رقيب... إنه مكان لاختبار قيودنا الشخصية؛ ما مقدار ما يمكن أن نكون عليه من قسوة ومن موت للمشاعر ومن جنون». وهو يصر على أنهم مجموعة توحشت من «الأولاد الطيبين» الذين



تخرجوا للتو من الجامعة. فقد أصبح فورر سادياً. وهو يشعر أن ذلك هو ما كان متوقعاً، دون أن يعلَن عن ذلك شىء من قبل. ولكن ليس هناك من يرغب فى الاعتراف بهذا؛ فلا أحد يرغب فى رؤيته وهو لم ينجح فى نشر كتابه داخل إسرائيل فى العام الماضى إلا بشق الأنفس.

مع أن جروسمان أمضى سبعة أشهر فقط مشاركًا فى المفاوضات التى أدت إلى اتفاق جنيف، الذى كتب هو مقدمة نسخته العبرية، يبدو مهمًا أنه جمَع مقالاته فى اللحظة التى رأى فيها أن الأمل مات وأنه على حافة اليأس («شىء داخلى يموت»). ويبدو الأمر وكأنه بناء على أفضل أحكامه، أو أسوئها، مازال يؤمن بأنه لابد لإسرائيل أن تنظر فى داخل أعماقها كى يمكن انقاذها. وهو يجعل من نفسه معالجاً لروح الدولة، وكأنه محلل نفسى؛ حيث يزخر قاموسه بكلمات من قبيل «الإنكار» و«الكبت». ويغلق الإسرائيلى العادى عقله أمام كل الأشياء التى غالباً ما يحتاج بشدة إلى معرفتها. ذلك أنه ليست لديه أية فكرة عن أعماق المهانة والمعاناة الفلسطينية التى تسببها أعمال إسرائيل فى المناطق.

ولجهله بالتفاصيل، فهو يعتقد خطأً أن أوسلو قدمت للفلسطينيين دولة قادرة على البقاء. وحين يتحدث رابين عن الرغبة فى السلام، تزداد الانطباعات قوة، ويكتب جروسمان فى عام ١٩٩٥، أى بعد عامين من أوسلو، أن الاتفاق «يعنى فى واقع الأمر ترتيبًا أمنيًا موسعًا لحبس الفلسطينيين داخل مناطق حبس تتمتع بالحكم الذاتى تحيط بها وتفصلها عن بعضها شبكة كثيفة من الطرق وحواجز الطرق والمستوطنات الإسرائيلية». (وفى المقال ذاته يتكهن جروسمان بتجدد الانتفاضة فى «المناطق اليائسة المخنوقة، وسوف تتسم هذه المرة بعنف لم نره من قبل».) ويعزل الإسرائيليون أنفسهم عن العرب الذين يعيشون فى وسطهم، مع ما لهم من حق فى الهوية المستقلة. ويضم كتاب «النوم على السلك» الذى كتبه جروسمان عام ١٩٩٣ مجموعة من الحوارات مع فلسطينيين داخل إسرائيل، حيث يقول أحدهم: «لا يعرف اليهود ما يكفى عنا. بل إنهم لا يرغبون فى معرفة أن هناك أمة أخرى فى هذا المكان».

ويرسم جروسمان صورة لعالم من الإنكار والتفكك يعوم فى مخاوفه. لم كانت حكومة نتنياهو تتصرف فى كثير من الأحيان وكأنها «جماعة أقلية مضطهدة»، وكأنها لم تكن تؤمن حقًا بشرعيتها؟ وكتب جروسمان وقتها أن حكومة الوحدة الوطنية عام ٢٠٠١ برئاسة شارون سوف تلملم تسوية لا صلة لها بالواقع، وتعرضها على الفلسطينيين، وهى أن إسرائيل سوف تجرى من جديد مفاوضات افتراضية بين نفسها ونفسها، وبين نفسها ومخاوفها». ولا يهون جروسمان أبداً من ميراث الخوف الرهيب الخاص بإسرائيل، إلا أنه لا يراه ذلك الرد العظيم الذى يُخرِس أى نقد. فالخوف ليس نهاية المطاف؛ بل إنه يفتح الصندوق. فإلى أين يقود هذا الخوف؟ إن جروسمان يعرى جراح النفسية اليهودية ليكشف عن النسيج الندبى الذى لن يسمح للأمة بالتنفس، إن هو تيبس.

وفى تغطية لعقد مضى منذ أوسلو، يخصص جروسمان كثيراً من المقالات فى كتاب «الموت طريقة للحياة» لرسم خريطة لصعود زعيم إسرائيل الحالى إلى السلطة، وانتخابه وإعادة انتخابه، ويشير جروسمان، بشكل جزئى إلى أنه ينضح سلطة. وهو يقول عنه: «ألبسه عباءة وسوف يبدو وكأنه إمبراطور رومانى...(يبدو أن هذه الصورة، بكل إيحاءاتها القوية وبطشها وتاريخها فيها



شىء ما يروق للناس)». وفى ديسمبر من عام ٢٠٠١، ورداً على تفجير انتحارى، أوقف شارون المفاوضات مع عرفات الذى كان مجمعه فى رام الله محاصراً، وأرسل الطائرات لضرب الضفة الغربية. وفى مقالته عن هذه الإستراتيجية، التى يضعها جروسمان مثلها مثل كل ما يختلقه شارون، فى مكان ما بين البشع والفاجع، يستشهد بدراسة نُشرت فى مجلة «نيتشر» Nature عن «آلية خطيرة فى النظام البصرى البشرى» تسمح للمخ برفض تسجيل ما تراه العينان بالفعل. وتقول الدراسة: «منذ اللحظة التى يقرر فيها المخ تأييد تفسير معين للصور التى يتلقاها من العينين، تختفى كل المحفزات التى تدعم أى تفسير آخر فحسب». ولكون عرفات يجرى «محوه»، وهو ما يعنى أن «الشعب الفلسطينى قد مُحى كذلك، ومعه رغباته وطموحاته المبررة» (بالنسبة لهذه العملية صك باروخ كيمرلينج بالجامعة العبرية فى القدس المصطلح politicide أى الإبادة السياسية). وشارون يعْمِى نفسه؛ وهو ما قد يكون طريقة للاعتراف بأنه، كما هو حال أوديب، مرتكب الجريمة الفظيعة. ويقول جروسمان: «لقد أعمت الحرب والعنف عيوننا، وحولت البعض منا إلى قتلة، وجعلت كثيرين غيرهم متواطئين صامتين مع القتلة».



كتب إدوارد سعيد فى صحيفة «نيشن» Nation فى فبراير من عام ٢٠٠٢: «فيما عدا عدد قليل من الإسرائيليين (أحدثهم ديفيد جروسمان)، لم يخرج أحد ليقول صراحة إن إسرائيل تضطهد الفلسطينيين». ولم يتردد جروسمان قط فى إدانة الاحتلال باعتباره «مشوهاً وغير أخلاقى وظالمًا». وليس هناك لف ولا دوران فى الكلام. فتلك هى موهبته الخاصة فى أن يتمكن من عمل ذلك فى نفس الوقت الذى يعترف فيه بذلك الفيض من البهجة والسرور الذى ينتاب الشباب الإسرائيلى حين يتلقى أوراق الاستدعاء إلى الخدمة العسكرية لأول مرة، حتى ولو كان من بين من تظاهروا ضد الاحتلال. (بنفس الروح يستحضر الشحنة الشهوانية الخاصة بدخول أرض الغير والاستيلاء عليها، حين يقول: «الولوج المفاجئ وانتهاك المحظور... أتذكر تمامًا الإحساس الجسمانى، ذلك الإحساس بالقوة». ويبدو أنه يطلب منك أن تفصل نفسك عن إثارتك. غير أن هذا ليس بالأمر الهين. ولم يقلل جروسمان فى يوم من الأيام من قيمة ما يقف ضده الناقد أو المعارض الداخلى. وهو يقول فى «الريح الصفراء»: «فى إسرائيل، الواقع هو أنه أيسر على المرء أن يغير ديانته، وحتى جنسه، من أن يغير آراءه السياسية بأية طريقة حاسمة». وعند محاكمة الخمسة المعارضين لأداء الخدمة فى الأراضى المحتلة بمحكمة يافا العسكرية فى شهر ديسمبر، وصفهم ممثل الادعاء بأنهم «مجرمون أيديولوجيون»؛ من «أسوأ صنف»، بل «الحقيقة أنهم أشخاص مثاليون ولابد من حشد الشخصيات الإيجابية ضدهم بأية طريقة كانت».

تنساب بعض اتهامات جروسمان ضد السياسة الحالية كأنها مناجاة للنفس. فهو يقول إن مفهوم «القنبلة الموقوتة»، الذى يستخدمه الجيش لتبرير سياسته الخاصة بالاغتيالات المستهدفة، ينبغى تطبيقه بشكل عارض فقط حين يكون شخص ما فى سبيله لشن هجوم وإلا فإنه سوف يُنظر الآن إلى كل من يُشتبه فى أنه خطط أو يخطط لهجمات، إلى جانب أى مدنيين محيطين به، على أنه هدف مشروع. وبينما أكتب هذا الكلام، تتمتع جماعة الفوضويين المعارضة للجدار بسمعة سيئة بعد أن صاح أحدهم «لا تطلقوا النار، نحن إسرائيليون»، قبل أن تطلق قوات الدفاع الإسرائيلية النار عليه وتصيبه بجرح خطير. فعند الإيحاء بأنه لا بأس من إطلاق النار على الفلسطينيين وهو الإيحاء الذى ينكره الفوضويون بشدة. عن طريق كشف حقيقة أن الجيش يميز بين «دم وآخر»، وإن لم ينجح فى ذلك دائمًا. تثير هذه الصرخة الفظيعة أزمة الحقيقة.

وتحكى هذه المقالات قصة كارثة. ففى الوقت الذى نصل فيه إلى النهاية، نجد أن إسرائيل «أكثر تشدداً وقومية وعنصرية من أى وقت مضى». فأى نوع من الانتصار مادام بالإمكان القول بأن إسرائيل تضرب الفلسطينيين. ذلك الذى يترك البلاد «أسوأ بكثير مما



كانت عليه طوال الخمس والثلاثين الماضية»، حيث يتدهور الأمن والاقتصاد والروح المعنوية؟ وما نوع ذلك الانتصار الذى يؤدى إلى معاناة ربع الفلسطينيين من سوء التغذية وتزايد عدد الأطفال الذين يقال إنهم يخاطرون بحياتهم بالتسلل عبر الخط الأخضر كى يصبحوا متسولين داخل إسرائيل؟ وفى نهاية «الريح الصفراء»، يطرح جروسمان سؤالاً أخيراً يمكن أن يكون كذلك تقفيلة للمقالات المجمعة فى هذا الكتاب، وهو هل الشعور بأن الموقف لا يمكن أن يستمر للأبد يضمن أنه سوف يتغير فى النهاية؟.



لكن جروسمان لا يدين دولته فحسب وإلا فسيكون هناك خطأ ما إن هو فعل ذلك. فهو مرعوب بشىء واضح من عرفات، ويرى أن الزعيمين حبيسا شبح تشددهما. وبينما يصبح الاتهام الموجه لإسرائيل أعلى صوتاً مع تقدم المقالات، فإن ميزان الحكم يتحول بطريقة تكاد تكون ملحوظة. فبعد اندلاع الانتفاضة الثانية فى عام ٢٠٠٠، نجد أن عدد الفظائع التى ارتكبت ضد إسرائيل والمتضمنة فى المذكرات الافتتاحية للمقالات تزيد على تلك التى ارتكبت على الجانب الآخر. إذ يُعرض قتل اثنين من أفراد الاحتياط، ضلا طريقهما بالقرب من رام الله فى أكتوبر من عام ٢٠٠٠، فى مناقشة لجروسمان مع أوز على أنه لحظة حرجة «بالنسبة لنا جميعاً». وإحدى أعظم مواهب جروسمان هى دقته والمدى غير العادى الذى يقطعه كى يعطى الطرف الآخر الفرصة للتعبير عن رأيه؛ فكل من «الريح الصفراء» و«النوم على الأسلاك» ملتزمان بذلك. وهو يستهل روايته الخاصة بطرد سكان الكهوف فى الخليل فى ديسمبر من عام ١٩٩٩ بقول محمود حمامدة: «لقد ولدت هنا فى هذا الكهف». وبعد ذلك تصبح اللغة أكثر غموضاً؛ فقد رد الفلسطينيون على زيارة شارون لجبل المعبد بـ«اندلاع أعمال عنف لا حد لها»، حيث أدت أعمال الشغب التى اندلعت فى اليوم التالى إلى وفيات كثيرة. وقوبلت موجة العنف التى سادت أنحاء الضفة الغربية وغزة بقوة كاسحة من جانب قوات الأمن الإسرائيلية. ولكن وفيات من؟ هل كان من قاموا بأعمال الشغب مسلحين؟ إن عبارة «موجة العنف» تحتاج إلى فاعل وتتركنا فى حيرة من أمرنا. وفى أبريل من عام ٢٠٠٢ نجد أن الفلسطينيين هم الذين «أحدثوا هذا التصعيد الذى لا يمكن التغاضى عنه. فهو نتيجة لاختيارهم استخدام سلاح التفجيرات الانتحارية ضد المدنيين الإسرائيليين».

يمكن أن تدين التفجيرات الانتحارية بأنها إجرامية وذات أثر عكسى، وهو رأى كثير من الفلسطينيين كذلك، إلا أننا مازلنا نشير إلى أن هناك تراجعاً ما فى اللهجة (وهو دليل آخر. إن كانت هناك حاجة إلى أى دليل. على أن التفجيرات تقوض الأساس الأخلاقى للفلسطينيين، أو «البومرانج» حسب تعبير جروسمان). ولنقارن هذا بما قيل فى عام ١٩٩٧، بعد أول تفجير انتحارى، ولكن قبل أن تترسخ الإستراتيجية: «يصعب اليوم التحدث عن الفلسطينيين على أن لديهم أى أمل. ولا تدرك غالبية الإسرائيليين عمق اليأس الفلسطينى... الذى سببته سياسات الحكومة الإسرائيلية. وفى ظل هذه الظروف، من الواضح الآن أن أحداً لن يطيق أرواح الإسرائيليين بنفس القدر الذى لا تُطاق به أرواح الفلسطينيين».

فما الذى تغير إذن بالنسبة لجروسمان؟ ربما يشعر بأن كتابته أخفقت فى تحقيق ما أراد؛ ذلك أن عقداً من توضيح هذا كله بأقصى جهد ممكن وبكل ما أوتى من شجاعة ليس له أى تأثير على قرائه بالتحديد. وهو يقول: «أعرف جيداً لم انضممت إلى مبادرة جنيف؛ لأننى أشعر أن كل يوم يمر بدون تغيير يدفع إسرائيل سنتيمترات أخرى نحو الهوة السحيقة».

ويؤكد منتقدو اتفاقية جنيف على أن الفلسطينيين تخلوا عن حق اللاجئين فى العودة فى الوقت الذى لم تتحمل فيه إسرائيل مسئولية حل مشكلة اللاجئين (فهو كما أشار إيلان بابا لا يترك للفلسطينيين سوى ١٥ بالمائة فقط من أرضهم الأصلية). وما يدعو للتشاؤم أكثر هو ما قاله البعض عن أن الفرق الوحيد بين الاتفاق وهدف شارون الخاص بالانسحاب من جانب واحد وفرض الأمر الواقع على ضم المناطق هو أن الفلسطينيين يُمنحون فرصة للموافقة على الخطة. كما انتُقد الاتفاق كذلك لإعطائه المشروعية لطابع الدولة الصهيونى. ولكن هذا ليس صحيحاً تماماً، كما أوضح سالم تمارى. فاتفاق جنيف لا يعطى مشروعية لإسرائيل باعتبارها «دولة الشعب اليهودى»؛ فهو يتحدث عن «حق الشعب اليهودى فى أن تكون له دولة والاعتراف بحق الشعب الفلسطينى فى أن تكون له دولة»، دون أى تحيز فيما يخص «الحقوق المتساوية لمواطنى كل من الطرفين» (وهو كما يشير تمارى كذلك صدى بغيض لوعد بلفور يشير إلى الحقوق المدنية والدينية وليس إلى حقوق «الطوائف غير اليهودية الموجودة فى فلسطين»).

وهذه الأيام يتزايد الكلام عن الدعوى إلى ازدواجية القومية؛ وكان ذلك هو الحل الذى رغب فيه إدوارد سعيد فى النهاية. وإذا كان هذا الحل يثير انتقاداً شديداً، فإن له كذلك مؤيدين غير محتملين داخل إسرائيل لا نسمع عنهم كثيراً فى الغرب. أحد هؤلاء الكاتب دانييل جفرون الذى ظهر كتابه «الجانب الآخر من اليأس: العرب واليهود فى أرض الميعاد» فى إسرائيل فى شهر نوفمبر الماضى. ويرى جفرون الذى يسمى نفسه «صهيونى عمالى أرثوذكسى من التيار العام» أن هذه الرؤية تنبع بشكل منطقى من طابع العالم القديم متعدد الأعراق. وهو يقول: «إذا صدقنا التوراة فإن الملك داود استولى على أورشليم من اليبوسيين (قبيلة كنعانية) ثم شاركهم المدينة. كما أنه اتخذ له موظفين من الكنعانيين، وكان لديه قائد حثّيى من بين قادة الجيش، وكانت له علاقات طيبة بالفينيقيين، ونشر وحدات فلسطينية فى جيشه، وهى الجلادون والسعاة». ومع أنه يرغب فى حدوث شىء كهذا الآن، بينما لا يزال اليهود هم الأغلبية ولهم اليد العليا، فهو غير آبه بالمخاوف الديموغرافية، حيث يقول: «لا أرى موقفاً يصبح فيه فجأة للعرب ٦١ عضواً بالكنيست، بينما يكون لنا نحن ٥٩ فقط، وحينئذ يستديرون علينا ويذبحوننا فى فراشنا».

أما جروسمان فيرى أنه لم يعد يبدو الآن أن هناك مجرد احتمال، ذلك أن رغبة الأغلبية اليهودية الواضحة فى الاحتفاظ بالتفوق العددى هى الرغبة التى تنبض فى قلب كل أمة... ولا أريد أن أكون ضمن أقلية يهودية فى إسرائيل. وهو يعترف بأن هذا «تباين لا حل له» فى الديمقراطية التى يرغب فيها الشعب اليهودى. وبسبب الخطر الذى يمثله حق الفلسطينيين فى العودة لطابع الدولة اليهودى الذى لا رجعة فيه، فإن هذا الحق هو النقطة التى يتوقف عندها جروسمان؛ و«نقطة اللاعودة» هو عنوان مقال كتبه فى يناير من عام ٢٠٠١ اقتبس بعض ما جاء فيه. فهو يقول فى النهاية «لا بد لنا من» محاولة «تحقيق عدالة جزئية لكلا الطرفين». وقد نعيد الصياغة لتصبح: العدالة جزئية. وحتى إذا كانت العدالة فى صف أحد الجانبين. أى فى جانب الفلسطينيين، وهو ما يتضح أنه كذلك فى ظل القانون الدولى. فلا يمكنك تحقيقها، لأنها ستدمر حلمى أنا. وبما أن الحلم يتحطم أو يتلاشى باطراد، كما تبين هذه المقالات، فإن هذا يزيد من كونه ليس الأقل اقناعاً. فقد كانت إسرائيل معجزة وفرصة سانحة، واليوم يعيش الإسرائيليون على



طوال عقدين تقريباً يقلب جروسمان فى ذهنه فكرة أن إسرائيل ـ وهى الدولة المعجزة كما تحب أن ترى نفسها ـ قد تكون فى واقع الأمر دولة تُحتَضَر





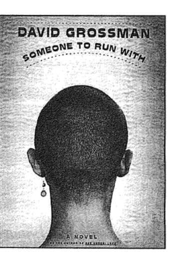
طريق الحياة الجانبي الذي كان مخصصاً لنا، ولابد من تذكيرهم بما كانوا عليه في يوم من الأيام. «هل هناك حالياً من الإسرائيليين من يحيا الحياة التي يريدها؟» يبدو الأمر وكأن البلاد قد جرى تحويلها عن مسارها بشكل مؤقت. «هذه العاصفة... تجعل بوصلتنا تضل الاتجاهات». وكأن العنف كان انحرافاً وليس جزءاً أصيلاً من إنشاء إسرائيل باعتبارها دولة قومية، حيث كان جروسمان أول من يعترف بذلك.

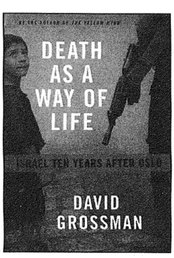


شقت اللغة في التاريخ اليهودي كلا الطريقين. ويرى جروسمان أن خطر معاداة السامية المتجددة هو أنهم يعيدون اليهودي إلى رمز خاص به. ويقول جروسمان في مناقشته مع أوز: «اليهودي الذي جاء إلى أرض إسرائيل وبنى دولة كي يرتبط...بوجود ملموس، أصبح فجأة رمزاً لشيء آخر من جديد. وعلى أية حال فقد كان اليهودي دوماً ضرباً من المجاز... إذ لم يتصوره أحد قط الشيء نفسه». وهذا الخطر وجودي، إلا أن هناك كذلك ضرراً أصاب العقل اليهودي. فالإحساس المخدر الخاص بالمصير القرباني يعود ويحجب العالم، إذ «يبدو أن الأحاسيس المأساوية الخاصة بالمصير تتكالب علينا من جديد» (في لندن، وصف جروسمان العام الماضي الإحساس اليهودي بكون الإنسان ضحية على أنه «إغراء»). وتتعلق الجماعة بنفسها بقوة وتشبث. وكان فرويد قد كتب في عام ١٩٣٠ إلى حاييم كوفلر رئيس الوكالة اليهودية: «كان الأمر سيبدو لي أكثر معقولية لو أننا أقمنا وطناً يهودياً على أرض أقل عبئاً من الناحية التاريخية. فأنا لا يمكنني أن أثير تعاطفاً بأي حال من الأحوال مع تدين أسيء توجيهه يحوِّل قطعة من سور بناه هيرودس إلى أثر قومي».

إن جروسمان عالمي النزعة. ففي «الموت طريقة للحياة» تنشُر من حين لآخر تقريباً ملاحظات من قبيل «أنا لا أنتمي إلى هؤلاء الذين يعتقدون أن الهولوكوست كان حدثاً يهودياً صرفاً. والأمر كما أراه هو أن على كل الأشخاص المتحضرين وأصحاب العقول النزيهة أن يطرحوا على أنفسهم أسئلة جادة بشأن الهولوكوست. وهذه ليست أسئلة يهودية. إنها أسئلة عالمية». وفي ذلك ما يخالف السمة الأساسية للتفكير اليهودي. ورغم كل الطاقة التي كرسها لاتفاقية جنيف، فهو لا يؤمن فعلاً بالحكومات. وهو يكتب في آخر «الريح الصفراء»: هناك أرض متنازع عليها، وهي مكان ميت، مما يفصل الألم الشخصي، أي الإنسان ومشاعره، عن ذلك المكان الذي تقرَّر منه الأشياء وتُصاغ فيه الاتفاقيات وبرامج الأحزاب وكلمات المديح الرسمية». وهو يكره الجماعات. فهو يقول فيما يتعلق بالهولوكوست: «هناك أسئلة بشأن الروح الإنسانية التي يسهل منعها من الكلام بصفتها «أنا» وجعلها تبدأ في الحديث بأعلى صوت عن «نحن».

وشيئاً فشيئاً، أو بالأحرى فيما بين السطور، يمكن سماع صوت شديد الاختلاف صادر عن الشخص الذي يعلن عن تحقيق إسرائيل لأسوأ مصير لها. إنه صوت جروسمان، كاتب الروايات





الرائعة التي «تذيب» و«تزعزع» كل أفضل دفاع في حياته. والرواية ليست تعزية، بل إن «حرية الفنان نفسها هي التي تحرمه من الخيالات التي تعزيه». ويجعل هذا رأي جروسمان عن الرواية أقرب إلى تصوره عن الحرب. ولكن الرواية تنقذ كذلك. وهو يقول: «حين أكتب لا أكون ضحية للحظة». ذلك أن الكتابة «عمل من أعمال تعريف الذات في وضع يهدد بمحوى بالمعنى الحرفي للكلمة». وعلاوة على ذلك، يجبرك الأدب على الدخول في عقول الناس. وهو يجبرك على إقامة الصلات. فالقدس مدينة بها مركز للكلاب الضالة وليس بها مركز للأطفال التائهين؛ وكان كشف هذه الحقيقة بشأن الحياة الحديثة في إسرائيل هو إلى حد ما السبب وراء كتابة جروسمان لأحداث روايته. وإذا كانت تمار تنقذ روحها، فليس ذلك بإنقاذ شقيقها فحسب، بل بالغناء في حالة من الرعب لأغراب في الشارع. وهي تقول: «ليس لدى الشجاعة كي أفعل ذلك. لست بقادرة على التخلي عن نفسي كهذا للأغراب». ولكنها تغني. ولأنها تغني، وتغني بشكل جيد، فإن حيلتها تفلح. إذ يلتقطها المجرمون الذين استولوا على كل أطفال المدينة الفنانين ومنهم شقيقها وينقلونها في سيارة.

تقع رواية «شخص أفر معه» ضمن فئة روايات اليافعين. وقد حققت نجاحاً كبيراً في إسرائيل، وربما كانت أكثر أعمال جروسمان نجاحاً من الناحية التجارية، حيث بيع منها ١٠٠ ألف نسخة على الفور. وبما أنه يكتب عن الأطفال منذ البداية، يبدو من اللائق أن يكون الأطفال. أو بالأحرى من لم يعودوا أطفالاً. هم جماعة القراءة المستهدفة الخاصة به. فهل سيعيش هذا الجيل من بعد موت آبائه؟ هذا سؤال خاص بأية ثقافة، ولكنه سؤال له أهميته الملحة في حالة إسرائيل. فقدس جروسمان مدينة للفارين ومدمني المخدرات والمتسربين من التعليم، الذين هجر معظمهم أولياء أمورهم، سواء أكان ذلك نتيجة خيبة الأمل أو بسبب الإهمال. ومرة أخرى تخيب الدولة آمال ابنها. فلا أحد ينظر. ذلك أن العمى الأبوي يحاكي عمى الدولة. والرائي الوحيد في الكتاب هو تيودورا، الراهبة اليونانية التي لا ترى شيئاً في الواقع لأنها حُبست في منزل بوسط المدينة منذ اختيارها وهي طفلة صغيرة كي تسافر إلى الأرض المقدسة وتنتظر حجاج ليكسوس (الذين لن يأتوا أبداً، لأن الجزيرة اختفت تحت البحر في عام ١٩٥١). ولكنها الشخص الوحيد الذي يفهم تمار وعساف اللذين يعثران على بعضهما بشكل غير متوقع ويالتعاقب عند بابها.

ورغم ذلك فهذه إحدى أكثر روايات جروسمان شدة في تفاؤلها؛ فإذا كان هؤلاء الأطفال مفقودين، فقد أطلق سراحهم كذلك (لقد فشلنا، والآن جاء دوركم). وربما كانت الحقيقة المجردة الخاصة بالكتابة لهذه المجموعة من القراء هي طريقته الخاصة بضمان مستقبل يزداد هو نفسه. استناداً إلى مقالاته. شك فيه. وسوف تجد صعوبة كبيرة في التعرف على القدس الخاصة بالمقالات من هذه الحكاية. فكل شيء يتحرك بسرعة كبيرة (إحدى الطرق كي توفر على نفسك عناء اليأس السياسي، أو أي نوع من اليأس في الواقع، هي ألا تثبت أبداً في مكانك). وتبدو «شخص ما أفر معه» وكأنها دعوة ملحة ضد أشد مخاوفها سوءاً. إذ يُنقَذ شقيق تمار، وتعثر هي على الحب وعلى كلبها المفقود. وفي ذروة الدراما، تخرج تيودورا إلى الشارع حين يبدو أن حياة تمار في خطر. بينما لم تفلح ١٩٦٧ ولا اغتيال رابين في عام ١٩٩٥ في اقناعها بالحركة. «كأنها طفلة صغيرة شاخت على الفور دون ان تمر بمراحل الحياة»، ذلك أن تيودورا تكرار لكازيك في «انظر أسفل، إنه الحب». ذلك أن من ذوت وشاخت قبل الأوان يمكن أن تعثر على الحياة. وسوف تبقى المدينة؛ وإن لم يكن هذا ما تريده الأمة للمدينة (حين يوشِّح جروسمان بين تيودورا وتمار وعساف، فهو يقترب في ذلك من خيال جويس الخاص بـ «اليهودي اليوناني» في رواية «عوليس»).

ولا يتظاهر جروسمان بأنه سعيد. فقد يكون الاغتباط درجة من درجات الاكتئاب، إلى جانب كونه المقابل له. وقد ظهرت «الموت طريقة للحياة» و«شخص ما أفر معه» في العام الماضي. وتتسم كتابة جروسمان بالغزارة ويحزنها المثير للدهشة. وليس انتقاداً له أن يشار إلى أنه يبدو في بعض الأحيان وكأنه الطفل الذي خاب أمله. وفي رأيي أنه ليس هناك إسرائيلي آخر تُرجمت أعماله إلى الإنجليزية يقترب كل هذا الاقتراب من لُب الموضوع. ■



إســرائيل الكبــرى؟؟

إيـــلان بـابيـــه

بعد يومين من اغتيال زعيم حماس فى غزة عبد العزيز الرنتيسى، أجرت الإذاعة الإسرائيلية حوارا مع يوفال شتاينتز. وهو الليكودى رئيس لجنة الشئون الخارجية والدفاع فى الكنيست. وقبل ذلك كان يدرس الفلسفة الغربية فى جامعة حيفا حيث كانت رؤيته المعرفية للعالم قد تشكلت بفضل قوميين رومانسيين أمثال جوبينو وفخته اللذين كانا يؤكدان على نقاء العرق كشرط للتميز القومى.

إن تطبيق هذه الأفكار الأوروبية حول التفوق العنصرى على إسرائيل أصبح واضحا حالما سأله المحاور حول خطط الحكومة بالنسبة لبقية الزعماء الفلسطينيين. وقد ضحك المحاور والضيف واتفقا على أن السياسة ستكون كما ينبغى أن تكون، وهى اغتيال أو طرد الزعامة الحالية برمتها: أى كافة أعضاء السلطة الفلسطينية - حوالى ٤٠ ألف شخص. قال شتاينتز:« أنا سعيد جدا أن الأمريكيين قد عادوا أخيرا إلى صوابهم وبدأوا يدعمون سياساتنا بالكامل».

وعلى شاشة التليفزيون كرر بينى موريس من جامعة بن جوريون دعمه للتطهير العرقى للفلسطينيين مدعياً أن هذه هى أفضل الوسائل لحل الصراع فى فلسطين. وكانت صحيفتا نيويورك تايمز ونيو ريبابلك من بين المنابر العديدة التى دعى إليها موريس ليردد وجهات نظره.

إن الآراء التى كانت تعتبر هامشية فى أفضل حالاتها وجنونية فى أسوأ حالاتها، أصبحت الآن جوهر الإجماع اليهودى الإسرائيلى وتنشر من قبل أكاديميى المؤسسات فى أوقات الذروة التليفزيونية باعتبارها الحقيقة الوحيدة. إسرائيل فى ٢٠٠٤ هى مجتمع عصابى يقوده صفوة من السياسيين المتطرفين المصممين على إنهاء الصراع بالقوة والدمار مهما كان الثمن الذى يدفعه المجتمع الإسرائيلى أو الضحايا المحتمل سقوطهم. وعادة لا يدعم هؤلاء الصفوة سوى الإدارة الأمريكية، فى حين أن بقية العالم يتفرج مذهولا بدون حول أو قوة.

مثل إسرائيل اليوم مثل طائرة تطير بالطيار الآلى. خط السير مرسوم مسبقا وكذلك السرعة. الوجهة هى خلق إسرائيل الكبرى والتى ستضم نصف الضفة الغربية وجزءاً صغيراً من قطاع غزة (حوالى ٩٠ ٪ من فلسطين التاريخية) وهذا ما يجعلها إسرائيل الكبرى بدون تواجد فلسطينى ومع جدران عالية تفصلها عن السكان الأصليين لفلسطين الذين سيحشرون فى معسكرى سجن كبيرين فى غزة وما بقى من الضفة الغربية. أما الفلسطينيون داخل إسرائيل فأمامهم إما المغادرة والانضمام إلى ملايين اللاجئين الذين يذبلون فى المخيمات أو يخضعون إلى نظام ابارتهايد ينطوى على التمييز العنصرى والإذلال. فى أجزاء كثيرة من العالم الغربى مازالت وسائل الإعلام تصف هذا بأنه الطريق الأفضل للسلام والاستقرار. وتبدو محادثات السلام التى تضطلع بها الرباعية: الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى وروسيا والأمم المتحدة - منذ وجدت خارطة الطريق، وكأنها تغشى عيون العديد من المراقبين الموضوعيين الذين مازالوا يعتقدون أن هذا النهج معقول. ولكن كان يجب أن يكون واضحا منذ زمن بعيد أن إسرائيل تتجه نحو كارثة.



كان اقتراح اريل شارون الأخير - وهو خطة مدمرة أخرى تتنكر بقناع خطة سلام - ملائما بشكل طبيعى لتاريخ محادثات السلام فى فلسطين منذ أوسلو. بدأت العملية بجهد صادق لخلق دولتين مستقلتين فى فلسطين وإسرائيل ولكن تحولت إلى الوسط الصهيونى فى إسرائيل ليفرض رؤيته حول إسرائيل الكبرى مع بانتوستين فلسطينى بجانبها بدون أن يكون للفلسطينيين حق العودة. فى صيف ٢٠٠٠ طالبت إسرائيل والولايات المتحدة الفلسطينيين بدعم هذه الرؤية لمستقبلهم.

قد لاتكون خطة شارون للسلام بعيدة كثيرا عن الخطط الصهيونية السابقة ولكن يبدو أن الأمور فى إسرائيل آخذة فى التدهور خلال الأسابيع القليلة الماضية. ويعتبر اغتيال الشيخ ياسين والرنتيسى مع دعم أمريكا لخطط شارون مؤشرات مرعبة. مثل الشعور بأنك محصور فى طائرة تتبع خط سير سوف ينتهى بكارثة للمواطنين الإسرائيليين فى الطائرة وسوف يصفى فى طريقه الفلسطينيين.

ومع ذلك يبدو أن هذا النهج قد حظى بموافقة واشنطن ولم يعد يثير الجدل فى إسرائيل. فالأصوات المعارضة داخل وخارج البلاد وهنت أو تلاشت، والمحاولات السابقة لفرض رؤية إسرائيل الكبرى تحت ذريعة خطة سلام قد انتهت: اعتاد الكثيرون على رفض تلك السياسات أو على الأقل التردد قبل دعمها علنيا. ولكن هذا قد تغير: لقد تلاشت الغرائز النقدية للمثقفين والصحفيين فى السنوات الأربع الماضية. وهناك الآن فراغ أخلاقى يسمح للحكومة بالمضى فى قتل الفلسطينيين العزل وتجويعهم بفرض منع التجول والإغلاق لفترات طويلة. وأسوأ من ذلك أنها تشجع السياسيين والمثقفين المعروفين للدعوة إلى التطهير العرقى والمزيد من الخراب لفلسطين وشعبها.

كانت الحكومات الأمريكية السابقة تساند سياسات إسرائيل مادامت تحوز على الإجماع اليهودى ودون الأخذ بعين الاعتبار تأثيرها على الفلسطينيين أو كيف ينظر إليها هؤلاء. ولكن هذه المساندة كانت على كل حال تتطلب مفاوضات وبعض الأخذ والعطاء. وحتى بعد اندلاع الانتفاضة الثانية فى أكتوبر ٢٠٠٠ حاول البعض فى واشنطن أن يبعد أمريكا عن ممارسات إسرائيل تجاه الانتفاضة. ولفترة بسيطة بدا الأمريكيون وكأنهم غير مرتاحين حول حقيقة مقتل العديد من الفلسطينيين فى اليوم الواحد لاسيما أن أغلبهم من الأطفال. كذلك كان هناك شعور بالحزن لاستخدام إسرائيل العقاب الجماعى وتهديم المنازل والاعتقالات. ولكنهم اعتادوا على ذلك وعندما أجمع الشعب اليهودى على تأييد العدوان العسكرى فى الضفة الغربية فى أبريل ٢٠٠٠ - وهى واقعة وحشية غير مسبوقة فى تاريخ الاحتلال البشع - عارضت أمريكا فقط الأفعال التى من جانب واحد لضم المستوطنات التى كانت محظورة فى خطة الطريق التى صادقت عليها الولايات المتحدة وبريطانيا. والآن بعد سنتين تماما طلب شارون مساندة أمريكية بريطانية لخطة الاستيطان فى الضفة الغربية. وهذه التى تعتبر فى إسرائيل خطة سلام، رفضها الأمريكان أول مرة باعتبارها غير مثمرة (وقد أدانها بقية العالم بأوصاف أشد). ولكن الإسرائيليين يأملون أن التشابه فى السلوك الأمريكى فى العراق والسياسات الإسرائيلية فى فلسطين سوف يدفع الموقف الأمريكى إلى التغير.

لقد وقفت طائرة شارون فى المطار ثلاث ساعات و شارون داخلها يرفض الانطلاق إلى واشنطن قبل أن يحصل على الموافقة الأمريكية على خطته الجديدة. قال إنه لن يكون قادرا على توحيد الشعب اليهودى الإسرائيلى خلف برنامجه لفك الارتباط بدون الدعم الأمريكى. كان الأمر فى الماضى يستغرق بعض الوقت حتى تخضع الولايات المتحدة لحاجة السياسيين الإسرائيليين للإجماع (وفى هذه الحالة حاجة شارون إلى إقناع الرأى العام الإسرائيلى للوثوق به فى وجه المحاكمة القادمة التى قد يحكم عليه فيها بجريمة الفساد الشخصى) ولكنه هذه المرة لم يستغرق الأمر سوى بضع ساعات.

وكان يجب على الإدارة الأمريكية أن تأخذ المزيد من الوقت من أجل هذا. ففى جوهر الأمر كان شارون يطلب من بوش أن ينقض كل ما التزم به الأمريكيون تجاه فلسطين. والخطة تعرض انسحابا إسرائيليا من غزة (رغم أن الإسرائيليين غادروها منذ ١٩٩٣) وإغلاق بعض المستوطنات التى بقيت هناك إضافة إلى العديد منها فى الضفة الغربية مقابل ضم معظم المستوطنات فى الضفة الغربية إلى إسرائيل. وهذا سوف يحدث فقط بعد أن تعزل إسرائيل كامل الضفة الغربية بجدار سيستغرق إنهاؤه سنوات والذى تعتقد معظم الدول أنه يشكل انتهاكا لحقوق الإنسان الفلسطينى. وقد طالب شارون أيضاً برفض أمريكى واضح لحق العودة للفلسطينيين - وهو حق

بترتيب مع لندن ريفيو أوف بوكس
ترجمة: بثينة الناصرى

أقرته الأمم المتحدة فى ديسمبر ١٩٤٨. ولأول مرة أعطت واشنطن دعمها لخارطة طريق تترك معظم الضفة الغربية فى أيد إسرائيلية وبقاء كل اللاجئين فى المنافى.



لقد تأثر بوش بالصهاينة المسيحيين الذين يرون فى الخطة الإسرائيلية خطوة أخرى باتجاه تحقق سيناريو يوم القيامة الذى سوف يعجل بالظهور الثانى للمسيح. أما مستشاروه من المحافظين الجدد الأكثر علمانية فهم معجبون بالحرب ضد حماس التى تواكب وعود إسرائيل بالطرد والسلام، ويرون فى عمليات إسرائيل التى تبدو ناجحة دليلا ضمنيا على أن حرب أمريكا على الإرهاب سوف تنتهى بالنصر. ولكن (نجاح) إسرائيل الذى يطبل له كل يوم وزير الدفاع هو تشويه للحقائق على الأرض. فالانخفاض النسبى لأعمال العنف والإرهاب قد تحقق بسبب حظر التجول والإغلاق وبسجن أكثر من مليونى شخص فى منازلهم بدون عمل أو طعام لفترات طويلة من الوقت. حتى المحافظين الجدد يجب أن تكون لهم القدرة على رؤية أن هذا ليس حلا طويل المدى للعداء والعنف الذى تثيره السلطة المحتلة سواء فى العراق أو فلسطين.

لقد وافق خبراء التآمر فى إدارة بوش على خطة شارون حيث يستطيعون أن يقدموها على أنها خطوة أخرى فى سبيل السلام إضافة إلى أنها تصرف الأنظار عن الفشل فى العراق. وقد تكون مقبولة أيضا للمستشارين الأكثر اعتدالا الذين بلغ يأسهم لرؤية أى تغيير إلى أن يقنعوا أنفسهم بأن الخطة تقدم فرصة للسلام والمستقبل الأفضل. لقد نسى هؤلاء الأشخاص منذ زمن بعيد التمييز بين القوة السحرية للغة والواقع الذى تريد أن تصفه هذه اللغة. فمادامت الخطة تحتوى على الكلمة السحرية (انسحاب) فلا بد أن تكون شيئا طيبا كما يراها الصحفيون فى الولايات المتحدة وكما يراها أيضا زعماء حزب العمل الإسرائيلى (والذين يميلون إلى الانضمام إلى حكومة شارون باسم الإجماع المقدس) وحتى كما يراها الزعيم المنتخب حديثا لحزب اليسار الإسرائيلى يوسى بيلين.

لقد أوضح اثنان من أساتذة العلوم السياسية فى جامعة تل أبيب، أن حماس نقلت مقرها الرئيسى إلى دمشق، وهكذا - ويرجعانه إلى مصادر موثوق بها - على إسرائيل أن تعمل هناك أيضا (نشرت هاآرتز تقريراً مماثلاً). وقد قدرا أيضا أنه مادام الأمر يستغرق سنوات لإنهاء بناء الجدار حول الضفة الغربية، فلن يكون هناك انسحاب حقيقى من قطاع غزة لمدة طويلة. والخبر الجيد هو أن الانتفاضة قد انتهت وأن إسرائيل لديها الوقت لتقرر بدون أى ضغط خارجي خاصة من قبل الولايات المتحدة، ماهى أفضل طريقة لبناء مستقبلها بعد أن قضى على فلسطين إلى الأبد.

إن مفتاح الأمور هو (ضغط خارجى).

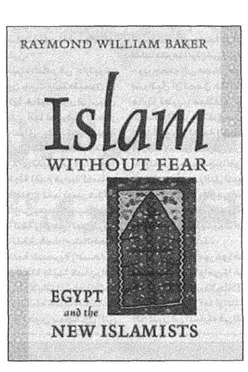
فحكومات أوروبا وأمريكا غير راغبة أو غير قادرة على إيقاف الاحتلال ومنع تصفية الفلسطينيين. أما أولئك الإسرائيليون الراغبون فى المشاركة فى الحركة المناهضة للاحتلال فهم قليلو العدد، وعاجزون فى وجه هيمنة الإجماع. إن المسئولية تقع على عاتق المجتمع المدنى فى أوروبا والولايات المتحدة لعمل كل مايستطيعه من أجل إفهام الإسرائيليين أن سياسات مثل تلك التى ينتهجها شارون لها ثمن: من المقاطعة الأكاديمية إلى العقوبات الاقتصادية، و يجب الأخذ بعين الاعتبار كل وسيلة يمكن استخدامها فى الغرب: إن حكوماتهم ليست أقل مسئولية من إسرائيل عن الكوارث الماضية والحاضرة والمستقبلة التى حدثت وتحدث للشعب الفلسطينى. يجب فعل ذلك ليس لأسباب أخلاقية أو تاريخية ولكن أيضا من أجل أمن أوروبا وحتى ديمومتها. وكما أوضح لنا العنف الذى أعقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وبشكل مؤلم أن الصراع الفلسطينى يمكن أن يقوض النسيج متعدد الثقافات للمجتمع الأوروبى، حين يدفع الولايات المتحدة والعالم الاسلامى شيئا فشيئا إلى كابوس لاينتهى. إن فرض ضغوط على إسرائيل هو ثمن بخس لشراء السلام العالمى والاستقرار الإقليمى والمصالحة فى فلسطين. ■

مـــــــازن الـنـجـــــار

■■ مع انحسار المد الاستعماري الغربي في أواخر القرن العشرين، بدأت العلوم والدراسات الاجتماعية والإنسانية في الغرب في التحرر من تحيزاتها القديمة إزاء العالم الثالث، سواء تلك التي تعود إلى التمركز حول الذات الأوروبية أو تلك التي لا ترى تاريخ العالم وحضاراته إلا في سياق الحضارة الأوروبية والتاريخ الأوروبي. فلا يمكن فصل السياق التاريخي للدراسات الاجتماعية الغربية بأي حال عن التجربة الاستعمارية (الأوروبية)، ودور تلك الدراسات في المشروع الاستعماري. ولعل الأنثروبولوجية هي النموذج الأوضح على دور تلك (الدراسات) في خدمة المشروعات والإدارات والممارسات الإستعمارية. ورغم ضآلة الدور الذي تلعبه دراسات الشرق الأوسط في الغرب في تشكيل السياسات الغربية (والأمريكية خصوصا) إزاء هذه المنطقة من العالم بسبب تجاهل مؤسسات صنع القرار لها واعتمادها توجهات صراعية ونافية في التعاطي مع العرب والمسلمين، إلا أن هذه الدراسات هي المثال الأكثر بروزا على التحرر من التحيز باتجاه فهم موضوعي لتاريخ المنطقة وحضارتها وقضاياها. لذلك أصبحت أقسام دراسات الشرق الأوسط في الولايات المتحدة هدفا للمحافظين الجدد المسيطرين على الإدارة والسياسة الأمريكية. فمع مطلع هذا العام، شن أكاديميون صهاينة كدانيال بايبس (الذي عينه الرئيس الأمريكي رئيسا لمعهد السلام في غيبة الكونجرس) ومارتن كريمر وأضرابهم هجوما متعدد الجبهات على أقسام دراسات الشرق الأوسط في الجامعات الأمريكية ومن فيها من أكاديميين وباحثين، واتهموهم بالإخفاق والفشل والتبرير للأصوليين الإسلاميين، كما طعنوا في وطنيتهم بسبب عدم مشاركتهم في ما يسمى بالحرب على الإرهاب، وبسبب تبنيهم لأفكار ومناهج تدرك خطورة وخطل تفكير ومقولات الاستشراق التقليدية. بل وصل الأمر إلى حد أن شهادات الأكاديميين الصهاينة أمام لجان الكونجرس الأمريكي تعرضت بالطعن والإسفاف لأطروحات المفكر الفلسطيني - الأمريكي الراحل إدوارد سعيد حول دور الاستشراق في بناء وتشكيل التحيزات الغربية إزاء الشرق، وهذه الأطروحات لقيت قبولا عاما في الأوساط الأكاديمية الغربية. بل إن تعديلا قانونيا (عرف بالمادة السادسة Article 6) في التشريعات - التي تنظم المنح الدراسية - قد ضيق كثيرا من الميزانيات المتاحة لتدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية في الجامعات وكذلك المنح المقدمة لطلاب هذه الدراسات.



Islam Without Fear: Egypt and the New Islamists
(إسلام بلا خوف: مصر والإسلاميون الجدد)
Raymond William Baker
Harvard University Press,
2004, 309PP.



أحمد كمال أبو المجد


طارق البشري


فهمي هويدي


محمد سليم العوا

محمد الغزالي


يوسف القرضاوي



مؤلف هذا الكتاب هو الدكتور ريموند وليم بيكر، وهو أستاذ العلوم السياسية في كلية ترينيتي وفي الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وأقام بها سنوات من حياته الأكاديمية. لم يأت هذا الكتاب خارج سياق موضوعه وزمانه؛ فمنذ أواخر عام ٢٠٠٢، تم إطلاق عدد من المبادرات الأمريكية والأوروبية للإصلاح الديمقراطي والاجتماعي والثقافي في الشرق الأوسط كان أهمها المشروع الأمريكي المعروف بمبادرة الشرق الأوسط «الكبير». انطلقت بعض هذه المبادرات من تفكير مفاده أن أحداث سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ وما وراءها من تطرف وعنف لدى بعض المسلمين هو نتاج لثقافة تعصب وانغلاق ورفض، لا تؤمن بقيم الحضارة العالمية المعاصرة من حوار وتسامح وقبول بالآخر وديمقراطية سياسية وتحرير للمرأة، وغيرها. غطت المبادرات الرسمية على عدد من الجهود غير الرسمية لمؤسسات البحث ومراكز التفكير في أوروبا والولايات المتحدة، والتي قدمت بدورها مقاربات موازية لقضايا تعزيز الديمقراطية والمشاركة السياسية وتحرير الاقتصاد والمرأة. تناولت بعض تلك الجهود إصلاح الفكر والخطاب الإسلامي، بينما حاولت جهود أخرى أن تتحاور مع «إسلاميين» يؤمنون بالتعددية السياسية والثقافية والتداول الديمقراطي على السلطة والتسامح إزاء المرأة والأقليات ودور المجتمع المدني. دعت هذه المحاولات عددا من رموز التيار الإسلامي الإصلاحي غير مرة من أجل الحوار حول تلك القضايا وغيرها.

في المـنـهـج

يأتي منهج هذا الكتاب على عكس كل المقاربات «القمعية» التي لا تسمح للظواهر بالتحدث عن ذاتها أو الإفصاح عن مضامينها، بل هي في بعض جوانبها محاكاة للآخر البعيد، وقد تشي - أحيانا - بدوغما أيديولوجية. ينطلق المؤلف في تعاطيه مع الظواهر الإسلامية والعربية والمصرية من إدراك عميق لخصوصيات كل ظاهرة ومحاولة لاستكناه سياقات ومعاني تلك الظواهر. فبينما يوظف محمود إسماعيل أدوات التحليل الماركسي - خاصة مفهوم صراع الطبقات - في مشروعه الفكري لفهم الإسلام في أطوار النشوء والازدهار، يحلل سامي زبيدة العلاقة بين الإسلام والدولة والجماهير باستخدام أدوات التحليل السوسيولوجي، فيما يستخدم نصر حامد

والإسـلاميون الجـدد

أبو زيد أدوات المنهج البنيوى كمفاهيم السياق والتأويل فى مقاربة النص القرآنى. وقد سبقهم محمد عابد الجابرى الذى استخدم أدوات ميشيل فوكو فى تحليل الخطاب العربى والإسلامى، ومحمد أركون الذى كان بمثابة صدمة ثقافية حين طبق المنهج ما بعد البنيوى والتفكيكى فى التعامل مع الفكر الإسلامى فى توقيت يكاد يكون معاصراً لديريدا نفسه وبطريقة تبسيطية ومباشرة فى ذات الوقت.

يتجاوز المؤلف فى سعيه لتقديم ظاهرة «الإسلاميين الجدد» بمنهجيته ورؤيته وبصيرته معظم تلك المحاولات القاصرة، فهو يسعى حثيثا إلى استنطاق هذه الظاهرة وقراءتها فى مختلف سياقاتها التاريخية والثقافية والسياسية، وتحليلها على أكثر من مستوى، وبدون التعسف الذى تشى به الدراسات الأكاديمية ذات الأجندة السياسية، أو تلك الدراسات المتمحورة حول ذات وتجربة المركز الغربى، أو غيرها من الدراسات التى تنطلق من نظريات أو مناهج بحث يراد تطبيقها على كافة التجارب بصرف النظر عن محدوديتها أو قصورها أو عدم قدرتها على التفسير.

وعندما يصف المؤلف كتابه فى المقدمة بأنه «قصة» الإسلاميين الجدد، فإن ذلك يشير إلى أنه لا يتعامل مع موضوعه بصفته مجرد باحث فى الأوراق يكتب عن الإسلام نتيجة تراكم معرفى أو معلوماتى أو لمجرد توافر المصادر والمراجع التى يعود إليها الباحثون فى توثيق موضوعاتهم ومقولاتهم، بل إنه عاصر كثيراً من القصص والأحداث التى يتناولها بالسرد والتحليل. فالكتاب يتخذ شكلا سرديا يسّر للمؤلف عرض أفكار الإسلاميين الجدد من خلال سجالاتهم ونقاشاتهم مع ممثلى التيارات السياسية والفكرية الأخرى. وفى هذا أيضاً نلمح إصرار هذا الأستاذ الأمريكى على الخروج على المناهج الغربية التقليدية ليقترب من المناهج العربية والإسلامية فى دراسة الظواهر الحضارية والتاريخية، وذلك من ناحية إبراز سلطة النص ومحاولة استنطاقه واستكشاف مختلف سياقات وآليات إنتاجه. تفصح هذه الطريقة فى البحث والتأليف عن نقلة نوعية فى المناهج والأدوات رافقت تلك النقلة الكمية فى الكتابة عن الإسلام منذ بداية الثمانينيات الماضية، وهى تعبير آخر عن انحسار الإمبريالية الأكاديمية. المفارقة أن هذه النقلة النوعية فى المنهج والأدوات لدى الباحثين الغربيين لم تجد طريقها بعد إلى مؤلفات وأعمال الكثير من الباحثين والأكاديميين العرب.

أسـلـوب الـعـرض

يتخذ المؤلف من الحوارات والنقاشات التى خاضها الإسلاميون الجدد، مع التيارات الفكرية والسياسية المصرية الأخرى، ساحة أو منصة لسرد أو عرض أفكار ورؤية الإسلاميين الجدد فى مصر فى مختلف القضايا. فهذه الأفكار - كما يؤكد - تظهر خلال الحوارات والنقاشات التى يشتبك فيها الإسلاميون الجدد مع بقية التيارات الفكرية والسياسية فى مصر. فإذا أردنا رسم أو تحديد الموقع الفكرى للإسلاميين الجدد فسوف نجده فى المناظرات التى تدور بينهم وبين ممثلى أقوى تيارين فى الساحة الفكرية والسياسية المصرية، وهما تيار العلمانية وتيار التطرف (الدينى). وقلما تجد المؤلف يستخدم مصطلح «الأصولية» فى كتابه، ولا حتى مصطلح «العلمانية» فى محاولة واعية منه لعدم اختزال مضامين المذاهب الفكرية فى الأشخاص أو التيارات السياسية، ولتجنب الخوض فى جدالات نظرية، يمكن أن تذهب به بعيداً عن واقع الحالة الفكرية وتسلمه إلى عزلة فكرية مجردة. فمن الجلى أن الدكتور بيكر يفضل بدلاً من ذلك أن يقدم صورة حية عن المناظرات الفعلية التى جرت بين الإسلاميين الجدد مع كل من العلمانيين والمتطرفين. وحتى عندما قام بتصوير هذه المناظرات فإنه قلما سمح لنفسه بالخروج عن سياق ما حدث فعلياً خلال هذه المناظرات، ليتحول نحو مناقشة مجردة لوجهة النظر المذهبية لكل فريق. بل حاول بشكل يدعو للتقدير أن يلتزم بنص العبارات والكلمات وتسلسل ورودها خلال المناظرة، ورغم أن الكاتب قد حرص فى تصويره للمناظرات والحوارات التى قدمها على تجنب التحيزات التى قد تصدر عن صلاته الشخصية الطيبة مع كثير من الإسلاميين الجدد، ورغم أنه قد يتوافق - أحيانا على الأقل - مع موقف الإسلاميين الجدد بشكل شخصى، إذ تشيع بين سطور الكتاب لمسة من المحبة الشخصية للموضوع بصورة لا تخطئها العين. ومن الواضح أن الكاتب قد تابع بنفسه الكثير من المناظرات والحوارات التى صورها فى كتابه، مما فرض عليه عبئاً كبيراً فى مسألة التوثيق والاسترجاع. ولذا فقد جاءت استشهاداته واقتباساته من أقوال شخصيات الكتاب فى كثير من الأحيان خلواً من التوثيق التقليدى.

يخلو تصوير المناظرات والحوارات بين الإسلاميين الجدد وممثلى بقية التيارات الفكرية والسياسية من الملل أو الإرهاق الذهنى. فقد وفق المؤلف لأسلوب سلس لا يمله القارئ، من ناحية. كما تجنب التعمق الزائد عن الحد والذى قد يفضى بالقارئ العادى إلى الإرهاق الذهنى. ويخلو متن الكتاب تماما من الهوامش أو الحواشى، وهو ما يدل على إصرار الكاتب على اتباع أسلوب السرد القصصى الحر ورفض تقنيات التحليل العلمى (التقليدية) بشكل متعمد.

لا يخفى المؤلف أن اهتمامه بدراسة مصر يأتى نتيجة إدراكه لأهميتها ومحوريتها فى العالم العربى والإسلامى معاً. فهى من أكثر الدول العربية تحديثا، فضلاً عن كونها ملتقى لكثير من الحضارات المختلفة التى تعاقبت عليها عبر العصور. فأفواج الزوار التى تأتى إلى مصر فى العصر الحالى؛ والحملات العسكرية التى نزلت إليها فى العصور السابقة قد أدت إلى نشوء عملية احتكاك وتفاعل بين المصريين والآخر الأجنبى. كانت هذه الاحتكاكات هى السبب الرئيسى فى ظهور عدد من التيارات الفكرية والسياسية المهمة التى هبت للدفاع عن الهوية الإسلامية والقومية لمصر. فمنذ الحملة الفرنسية والمفكرون المصريون تشغلهم قضية الاحتكاك مع الآخر بشكل قلما تجده فى أى دولة أخرى. وعلى صفحات الجرائد المصرية تجد أخبار الآخر تطغى على أخبار المحليات. لذا فإن دراسة تطور الحركات الإسلامية فى مصر هى بمثابة استشراف لمستقبل الحركات الإسلامية فى عالم تسوده ظاهرة العولمة. وذلك على عكس ما يجده الباحث من دراسة الإسلام فى أى منطقة أخرى كأفغانستان مثلاً. فدراسة الإسلام فى مصر تمنح الباحث فرصة جيدة للإجابة عن السؤال الهام التالى: ما هى محصلات تفاعل الإسلام مع المسائل الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى يفرزها النظام العالمى الجديد؟

دراسـة تطـور الحـركات الإسلامية فـى مصـر هى بمثابة اسـتشراف لمستقبل الحـركات الإسـلاميـة فى عـالم تسـوده ظاهـرة العـولمـة

خـارطـة الـكـتـاب

ينقسم الكتاب إلى مقدمة وثلاثة أبواب رئيسية، هى:

١. الثقافة، وهو يتناول رؤية الإسلاميين الجدد فى مبحثين رئيسيين حول إصلاح التعليم وتبنى الفنون.

٢. المجتمع، وهو يتناول وجهة نظر الإسلاميين الجدد فى مبحثين حول بناء المجتمع (المسألة الاجتماعية) وصياغة نظام اقتصادى (المسألة الاقتصادية).

٣. السياسة، وهو يتناول وجهات نظر الإسلاميين الجدد فى مبحثين حول النضال من أجل تجديد إسلامى (فى الممارسة السياسية الداخلية مع التركيز على الأحزاب والديمقراطية والحقوق والحريات المدنية)، والتعاطى مع العالم (أى الممارسة السياسية الدولية من ناحية قضايا الهوية القومية والإسلامية والاستجابة للهيمنة الغربية والأمريكية).

صدّر الدكتور بيكر بداية كل باب من هذه الثلاثة بصفحة فكاهية وضع فيها طرفة قصيرة ساخرة عن حالة كل من الثقافة والمجتمع والسياسة فى مصر. فافتتح بداية باب الثقافة بطرفة للكاتب أحمد بهجت عن تدنى الحالة الثقافية فى مصر إلى الاقتصار على الثقافة الشعبية التى تركز على الراقصات والفنانات أكثر مما تركز على المفكرين والمصلحين.

وصدر بداية باب المجتمع بوصف مقالة ساخرة كتبها «جلال أمين» عن نبوءاته لحالة المجتمع المصرى فى العام ٢٠٤٠، حيث لاحظ كيف أن انتشار الحجاب بين الفتيات المصريات فى السبعينيات سرعان ما جر وراءه انتشار النقاب، حيث تأثرت الفتيات واقتدين ببعضهن فى ذلك. ومن هنا تخيل جلال أمين أنه فى عام ٢٠١٠ بدأ الرجال أيضاً يفكرون فى تغطية أجسادهم دفعاً للإغراء واقتداء بالنساء فقرروا لبس الحجاب الرجالى، الذى ما لبث أن جر وراءه النقاب الرجالى، حتى أصبحت القاهرة بحلول عام ٢٠٤٠ عبارة عن خيام متحركة. فقد تغيرت طريقة اللباس بينما لم يتغير أى شىء آخر فى أذهان الناس.

وصدر باب السياسة بوصف مقال للدكتورة منار الشوربجى تتكلم فيه عن ظهور ما تصفه بحزب جديد هو حزب الصابون، الذى يجوب مندوبوه الأحياء الشعبية باحثين عن مواطنين يحتفظون بأكياس فارغة لإحدى ماركات الصابون ليمنحوهم عنها جوائز من ذهب. فهى ترى أن هذا الحزب يمنح أتباعه الأمل فى الحصول على جوائز ذهبية. وهذا ما تفشل غالبية الأحزاب الأخرى فى منحه للناس.

من هم الإسلاميون الجدد؟

الإسلاميون الجدد الذين يحددهم الكاتب هم: أستاذ القانون/ أحمد كمال أبو المجد - الكاتب والصحفى/ فهمى هويدى - المحامى/ محمد سليم العوا - الشيخ/ محمد الغزالى - المستشار/ طارق البشرى - الشيخ/ يوسف القرضاوى. شكل هؤلاء الإسلاميون تيارا فكريا جديدا تميز بوسطيته، وبأنه امتداد حقيقى للتيار الإسلامى الأوسع. وتنطلق هذه المجموعة من رؤية إيجابية تستند إلى أكثر التقاليد الإسلامية رسوخا على مستوى الفكر والممارسة بدلا من التفكير المتخندق فى المخاوف. وقد حرص الكاتب على وضع صورة فوتوغرافية لكل منهم فى الكتاب فى الصفحات التى يتكلم فيها عنهم وعن سجالاتهم ومناظراتهم مع بقية التيارات الفكرية فى مصر. وهو يؤكد أن كل واحد من هؤلاء يتمتع بشهرة طيبة للغاية فى العالم العربى والإسلامى، مما يعنى أنهم يقدمون ما يشبه القدوة لجيل قادم إن لم يكن للجيل الحالى من المسلمين فى المنطقة العربية. أعلن الإسلاميون الجدد عن صياغة اتجاههم فى بيان أصدروه فى بداية الثمانينات، وتداوله المثقفون آنذاك بشكل واسع. وبسبب الظروف غير المواتية، لم يجد ذلك البيان طريقه إلى النشر إلا عام ١٩٩١ بواسطة مؤلفه الرئيسى الدكتور أحمد كمال أبوالمجد، فقيه القانون الدستورى المعروف دوليا. أثار البيان (كتاب «رؤية إسلامية معاصرة») مناقشات وأصداء واسعة.

وكمثال على شخصية ومنهج تفكير الإسلاميين الجدد، يذكر المؤلف قصة اعتداء المتطرفين الإسلاميين على الكاتب الروائى الكبير نجيب محفوظ، وكيف أن الإسلاميين الجدد سارعوا وبقوة إلى إدانة المتطرفين الذين ارتكبوا ذلك الاعتداء. وقد سارع الشيخ محمد الغزالى إلى زيارة نجيب محفوظ فى المستشفى للاطمئنان عليه، واعتبر الاعتداء «جريمة ضد الإسلام»، رغم أن أنه ذاته كان قد انتقد رواية نجيب محفوظ «أولاد حارتنا» التى كانت الدافع وراء اعتداء المتطرفين. من ناحيته، يرى المؤلف

الإسلاميون الجـدد









أن جذور مثل هذا التطرف تكمن فى قصور النظام التعليمى ومؤسساته من مدارس وجامعات عن مواكبة حركة التربية والتعليم فى العالم أو تأهيل الخريجين للحصول على فرص عمل جيدة. ويكشف المؤلف عن سعى العلمانيين المتطرفين لقمع منهج الاعتدال الذى يدعو له الوسطيون عن طريق تصنيفهم أو اعتبارهم فى نفس السياق مع المتطرفين. وحيث أن مثل هذه المشكلات الاجتماعية لا يمكن حلها بين ليلة وضحاها، يقترح الإسلاميون الجدد مشاركة الناس بدعم المدارس والمستشفيات والانضمام إلى جهد جمعى فى إصلاح المجتمع. كما يرفضون التأويلات الضيقة التى تهمش دور المرأة فى المجتمع، وينتقدون «الدراويش» الذين يركزون على العبادات الفردية ويغفلون المجتمع. وبسبب الارتباط بين الدراويش والصوفية، لا يخفى موقفهم النقدى من التصوف (فى عهود انحطاطه على الأقل).



وعلى مدى صفحات الكتاب الممتدة، يبين المؤلف، وبإعجاب واضح، كيف يجادل الإسلاميون الجدد من أجل تأويل عقلانى معاصر للقرآن الكريم رافضين الدروشة وكل ما يمكن اعتباره غير عقلانى بالنسبة للعقل المعاصر. ورغم أن موقفهم النقدى من الدروشة والاقتصار على العبادات الفردية والسلبية إزاء قضايا إصلاح المجتمع له ما يبرره، إلا أن حاجة العالم المادى الاستهلاكى المعاصر إلى التصوف الحقيقى لا زالت قائمة، ولعل إقبال بعض الغربيين على الإسلام من باب التصوف والروحانيات دليل على ذلك.

ويعارض الإسلاميون الجدد أولئك الذين يسلمون بالوجود العسكرى الأمريكى فى العالم الإسلامى، كما يخالفون الذين يدعمون بشكل مطلق كافة أشكال المقاومة لذلك الوجود العسكرى. بل تتسم مناقشتهم لهذه القضايا بالعمق والحنكة، وعلى نفس المستوى الذى يقدمه معلقون سياسيون من أمثال نعوم تشومسكى. لكن موقفهم لا يقبل التوسط عندما يتعلق الأمر بالقدس؛ فالقدس بالنسبة لهم ليست مجرد مدينة فى بلاد تدعى فلسطين، بل إن فلسطين هى بلاد فى مدينة تدعى القدس. وتتوازن الرؤية أكثر لدى فهمى هويدى الذى يقول أنه إذا كان التخلى عن القدس من الخطورة بمكان، فإن التخلى عن حق العودة هو أخطر من ذلك.

الإسلاميون الجدد والعلمانيون

ترصد مقدمة الدكتور بيكر السجال الذى دار بين المفكر المصرى السيد ياسين ومؤلف الكتاب (الدكتور أبوالمجد) على صفحات جريدة الأهرام. نوه السيد ياسين بأن الإسلاميين الجدد (وعلى العكس من غيرهم) لا يدعون أنهم الناطقون باسم الإسلام وأنهم يقدمون أفكارهم على أنها ببساطة وجهة نظر قائمة ومطروحة للنقاش؛ لكنه لم ير شيئا «جديدا» أو حتى «إسلاميا» بشكل خاص فى الكتاب؛ كما عاب السيد ياسين على مؤلفى الكتاب (البيان) ثلاث نقاط أساسية غالباً ما تثار لدى انتقاد الإسلاميين المعتدلين، وهى:

- السكوت على العنف الصادر عن بعض الجماعات الإسلامية المتشددة، وعدم إدانته، والسلبية فى مواجهته.
- النزعة الانتقائية والتوفيقية التى تسود أفكار الإسلاميين الجدد؛ ذلك أنهم كثيراً ما يبدو أنهم يحاولون التوفيق أو التقريب بين اتجاهات متناقضة أو متعارضة.
- الإخفاق فى بلورة نظرية متكاملة للأمن القومى المصرى تصلح للتعامل مع عالم اليوم الذى يتسم بالتعقيد والإضطراب وتشابك المصالح وتشوش التحالفات.

رد الدكتور أبو المجد على الانتقادات بأن البيان هو نداء من أجل الإنقاذ، وأسف لأن السيد ياسين أخفق فى الاستجابة للطرح الذى يقدمه هذا البرنامج المعتدل مفضلا القيام بهجوم جديد على المتطرفين. وأكد أن السيد ياسين يعرف عن مؤلفى البيان موقفهم الرافض للعنف. وهنا يرى بيكر أن هذا السجال المشحون بين الكاتبين يفصح عن القضايا الرئيسة للتدافع حول الإسلام بين المسلمين العلمانيين والمعتدلين والمتطرفين العنفيين. استقطب السجال على الفور انتباه الطبقة السياسية فى مصر.

يبدو أن مأزق المتطرفين العنفيين هو تركيزهم على الغاية دون الوسيلة. فالغاية التى يسعون إليها من إرساء القيم الإسلامية فى المجتمع غاية نبيلة، ولكنهم فشلوا فى اختيار الوسيلة المناسبة للوصول إليها. وهنا يختلف الإسلاميون الجدد عن غيرهم من التيارات الفكرية فى مصر. فالإسلاميون الجدد يركزون على الغاية والوسيلة معاً، ولا يضحون بإحداهما فى سبيل الأخرى. فهم على خلاف المتطرفين العنفيين، يرون أن وسيلة العنف لا تتلاءم مع رقى الغاية التى يسعون إليها والتى هى إرساء القيم الإسلامية فى المجتمع. كذلك لا يرى الإسلاميون الجدد إعطاء اليد العليا للوسيلة على حساب الغاية، مثلما يفعل العلمانيون، الذين يركزون على طبيعة الوسائل (سلمية وعقلانية)، ويغفلون عن الغايات والقيم الإسلامية الأساسية التى يجب أن يقوم عليها المجتمع وتؤدى إليها الوسائل.



من ناحية أخرى، يرى بيكر أن ظاهرة الإسلاميين الجدد قد جاءت تعبيراً عن إخفاق أو جمود جماعة الإخوان المسلمين عند مرحلة لا تتلاءم مع متطلبات العمل والتغيير السياسى المعاصر. ورغم أن الإسلاميين الجدد يدينون بالكثير لجماعة «الإخوان المسلمون»، وكثيراً ما يعبرون عن تعاطفهم مع أفكار حسن البنا (مؤسس الجماعة)، إلا أنهم يرفضون إستراتيجية الحركة فى تغليب التوجهات الشعبوية (التعبوية) على النزعات العقلانية. فالإسلاميون الجدد يرفضون الشعارات الشعبوية شكلاً وموضوعاً. لدرجة أنهم لا يقبلون الشعار الأكثر شهرة (الإسلام هو الحل)، ليس لما يحمله من مضمون ولكن لما يعبر عنه من قطعية وحصرية.

مـنـاظـرات

الإسلاميين الجدد

يعرض الكتاب لإحدى أهم المناظرات بين الإسلاميين الجدد والعلمانيين، وهى مناظرة الشيخ محمد الغزالى والكاتب المصرى فرج فودة ضمن فعاليات معرض القاهرة الدولى للكتاب عام ١٩٩٢. وليس خفياً على الكثيرين ما دار فى هذه المناظرة، إلا أن المؤلف فى عرضه للمناظرة عمد إلى تصوير مشاعر الجماهير التى حضرت المناظرة، ورد فعل الشيخ محمد الغزالى إزاءها. فقد شرع الحضور يهتفون ببعض الشعارات الإسلامية تعبيراً منهم عن رفض موقف فرج فودة، إلا أن الشيخ الغزالى طلب منهم التوقف عن الهتاف، ليسود المناظرة جو من الموضوعية بدلاً من أن تسيطر عليها الروح الغوغائية. وبذلك يلمح الكاتب إلى حقيقة مفادها أن الإسلاميين الجدد يتمتعون بقدر لا بأس به من تأييد الجماهير، لكنهم لا ينساقون وراء ذلك، بل يعمدون إلى كبح جماح الجماهير عندما تسيطر عليهم النزعات الديماجوجية التى

تجعلهم يحيدون عن قواعد الحوار الموضوعى مع الآخر المختلف، وقد يتبنون موقفاً لاعقلانياً يقدم الانفعال على الإقناع. وقد ساد الكتاب كثير من تفاصيل ما حدث خلال مناظرات الإسلاميين، وكان أكثرها يبرز موقف الإسلاميين الجدد على أنه «وسط» بين موقف الجماهير وموقف المعارضين لهم. وهو فى ذلك يقدم للقارئ - ربما بشكل غير مباشر - انطباعات أو صور من ملامحها:

- أن الجماهير أكثر تشدداً فيما يخص المسائل الدينية من الإسلاميين الجدد، وهذا يؤكد على وجود قدر من الاختلاف بين وجهة نظر الجماهير ووجهة نظر الإسلاميين الجدد، وخاصة فيما يتعلق بأسلوب وروح الحوار. (يذكرنا هذا بثنائية التقليد الإسلامى التى طرحها إرنست جلنر فى دراساته الأنثروبولوجية منذ عقدين وهى تتكون من التقليد العلمى أو النخبوى الذى يمثله العلماء والمفكرون المسلمون عبر التاريخ الإسلامى، وتقليد التدين الشعبى الذى يمثله العامة بمختلف فئاتهم.) وعلى ذلك فالإسلاميون الجدد ليسوا قادة شعبويين. ككثير من رجال الدين. ولكنهم مصلحون؛ وهم لا يمارسون الخطابة، بل يمارسون الإقناع.
- أن الإسلاميين الجدد يقومون بتهدئة الجماهير بدفعها إلى العقلانية والحوار ونبذ العنف.
- أن الإسلاميين الجدد ينبذون وسائل استثارة الجماهير والغوغاء التى يبرع فيها بعض من يعملون تحت مسمى الإسلام.

لا يذكر المؤلف هذه الانطباعات صراحة، ولكنه يضمنها حكاياته عن سير المناظرات والحوارات بين الإسلاميين الجدد والتيارات الفكرية الأخرى. وهذا يؤكد على اختياره الحاسم لأسلوب القص والسرد المنبسط الذى تتسلل عبره الانطباعات بشكل عفوى وطبيعى، وذلك عوضاً عن الأسلوب الأكاديمى الذى يستخدم التحليل الواعى.

لم تسفر مناظرة محمد الغزالى وفرج فودة عن خروج طرف منتصر وآخر يجر أذيال الهزيمة، إلا أن أهم ما فى الأمر هو أن الجماهير استمعت إلى وجهتى النظر المختلفتين بصدد الإسلام والسياسة، والدين والعلمانية. وبهذا هدأ الحماس الشعبوى وبدأت روح الموضوعية والحوار تسرى بين الناس. وهذا فى حد ذاته إنجاز كبير، وهو ما يؤكد عليه المؤلف. ورغم أنه يفيض كثيراً فى سرد تفاصيل الحوار بين الإسلاميين الجدد والمفكرين الآخرين، إلا أننا نلحظ من وراء ذلك كله أنه لا يقصد مجرد تدوين أو توثيق ما حدث بقدر ما يقصد إلى التأكيد على روح الحوار والموضوعية التى يتسم بها الإسلاميون الجدد، والتى يبدى إعجابه الشديد بها، ويرى فيها - وليس فى أفكارهم ذاتها بالضرورة - التجديد الأصيل الذى يحسب لهم. فما يراه ريموند بيكر فى الإسلاميين الجدد هو وسطيتهم واعتدالهم واعتمادهم لغة الحوار بدلاً من العنف، الذى يظن الغرب أنه قرين الإسلام. ونلمس فى كتابه رغبة صادقة فى تصحيح صورة الإسلام والإسلاميين لدى الغرب.

الوسطية الإسلامية

يؤكد المؤلف على أن أفكار الإسلاميين الجدد تنبع من اتخاذهم موقفاً وسطاً بين الإسلاميين المتشددين والعلمانيين. فهم يتخذون الوسطية مذهباً لهم، يعينهم على تحديد مواقفهم بدقة؛ لكن هذا يتم بالطبع مع التزام مسبق بمبادئ الإسلام. والوسطية كحركة وفكر ترفض كلا من التطرف الإسلامى والعلمانى، وتقدم الإسلام فى سياق حديث هو بدوره مفارق لرؤية التقليديين. ففيما يتعلق بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية يؤكد الدكتور بيكر على رأى الدكتور أبوالمجد من أن القوانين المصرية الوضعية تتفق فى كثير من نصوصها وروحها مع الشريعة الإسلامية. وأن دعوة بعض المتشددين الإسلاميين لإلغائها واستبدالها بالشريعة الإسلامية لا لزوم لها. فقد يكون هناك حاجة لتعديل بعض نصوص القوانين «الوضعية» المصرية، ولكن يجب أن يتم ذلك تدريجياً وبشكل ديمقراطى فى ظل المؤسسات والظروف الحالية، دون حاجة إلى زعزعة استقرار المجتمع والمؤسسات التشريعية.

كذلك يوفق الإسلاميون الجدد بين قيم الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية. وهم فى ذلك يتبعون فكر الإمام محمد عبده فى محاولته للتوفيق بين «الإسلام والمدنية». فهم يدعون العالم الإسلامى إلى الاستفادة من منجزات الحضارة الغربية فيما يتعلق بقيم حقوق الإنسان والديمقراطية والتفكير العلمى التى طورها الغرب عن أصل تلقاه من الحضارة الإسلامية. فمثلا لم يجد الشيخ محمد الغزالى غضاضة فى كتابه «جدد حياتك» من الاقتباس من أفكار «ديل كارنيجى» والإعجاب بها صراحة.

وعلى العكس من التيارات الإسلامية المتشددة التى «تفرعت» عن فكر سيد قطب، والتى تدعو إلى تكفير مؤسسات الدولة وتحض أتباعها على مقاطعة (الجاهلية) من بنوك وقطاعات السياحة وبعض مظاهر العصر، فإن الإسلاميين الجدد يحضون على الأخذ بأسباب الحضارة المعاصرة، لكن مع عدم الوقوف منها موقف التقليد التام، بل مع تطويرها وتوجيهها لما فيه مصلحة المجتمع الإسلامى.



هكذا يرى المؤلف أن الإسلاميين الجدد باتجاههم الوسطى يختلفون كثيراً سواء فى تفكيرهم ووسائلهم واستراتيجياتهم عن ما يعتقده الغرب عن الإسلاميين الذين يرفضون الحوار ولا يعرفون سوى العنف بديلا.

البديل عن العنف

يبدو أن معرض القاهرة الدولى للكتاب فى العام ١٩٩٢ كان المناسبة التى خرج فيها الاتجاه الإسلامى الجديد عن صمته فأعلن عن وجوده للجماهير فى المجال العام وبشكل مكثف. وفى هذا يستشهد المؤلف بآراء الدكتور أبوالمجد فى كلمته التى شارك بها فى هذا المعرض حول أولئك الذين يخلطون بين الإسلام وموجة التطرف التى شهدتها مصر فى عقد الثمانينيات وبداية التسعينيات، ويبخسون التيار الإسلامى المعتدل حقه كثيراً. فليست الساحة الإسلامية مقصورة على المتطرفين الذين يسيئون لصورة الإسلام وقيمه الحضارية، بل إن بديل الوسطية الإسلامية موجود على الساحة وبشكل متزايد يصعب إنكاره. فليس التطرف سوى الوجه الغاضب لمجموعات من شباب المسلمين الذين ضلوا طريقهم إلى التغيير والإصلاح بلجوئهم إلى التكفير والعنف. ومن هؤلاء يذكر حالة المتطرف التائب عادل عبد الباقى، ٣٣ سنة، الذى انخرط فى عدد الجماعات الإسلامية المتطرفة لمدة ١٦ سنة، مارس خلالها أشكال مختلفة من العنف ضد المجتمع المصرى، حتى تم اعتقاله، وظهر على شاشة التليفزيون المصرى، فى مارس/آذار ١٩٩٤، ليجهر بتوبته، ويحذر الشباب من الوقوع فى مصيدة التطرف التى اكتوى بنارها. وفى حديثه التليفزيونى ندد عادل عبد الباقى بممارسات المتطرفين وأفكارهم، التى هى ليست من الإسلام فى شىء.



على مدى صفحات الكتاب الممتدة، يبين المؤلف، وبإعجاب واضح، كيف يجادل الإسلاميون الجدد من أجل تأويل عقلانى معاصر للقرآن الكريم رافضين الدروشة وكل ما يمكن اعتباره غير عقلانى بالنسبة للعقل المعاصر



وعندما سئل عادل عبدالباقى عن أفضل وسيلة للقضاء على خطر التطرف، أوضح أن هناك نوعين من المتطرفين: النوع الأول يشمل ذوى الأذهان الضعيفة والنوايا الحسنة، وهؤلاء يتسمون بضعف التفكير وليس بضعف النفوس، فنفوسهم بريئة ولكن أفكارهم المغلوطة قادتهم إلى العنف. والنوع الثانى يشمل ذوى النفوس الخبيثة والأفكار الملتوية وهؤلاء ينخرطون فى الجماعات المتطرفة حبا فى ممارسة العنف والتسلط والتكسب باسم الإسلام. قد تكون أفضل طريقة للتعامل مع النوع الأخير هى العنف المضاد من قبل الدولة؛ أما النوع الأول فهو لا يحتاج إلا إلى تصحيح أفكاره، وذلك عن طريق تطوير برامج ومناهج التربية والتعليم واستخدام لغة الحوار. وتلك بالضبط هى الوسائل التى يدعو الإسلاميون الجدد إلى اعتمادها فى عملية الإحياء الإسلامى.



لقى كتاب «إسلام بلا خوف» قبولا حسنا لدى القراء الغربيين فى الشهور الأولى لصدوره. فمن بين مئات الكتب الصادرة عن الإسلام والمتوافرة لدى شركات توزيع الكتب على شبكة الإنترنت الدولية، حظى هذا الكتاب بمكان بين الكتب الأربعين الأكثر مبيعا. ولعل بساطة العرض وسهولة اللغة والنمط السردى القصصى الشيق الذى غلب على فصوله وموضوعاته دور مهم فى إتاحته للجمهور العريض من قراء الإنجليزية بسهولة ويسر. ولعل للتوقيت دلالته أيضا؛ فبعد أحداث سبتمبر/أيلول ٢٠٠١، والحملة الهائلة التى روجت لها دوائر ومؤسسات ووسائل إعلام غربية عديدة ضد الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية، كانت الساحة فى أمس الحاجة إلى مثل هذا الكتاب. ومن عوامل نجاح هذا الكتاب قيام دار نشر عريقة هى مطبعة جامعة هارفرد باختياره وتقديمه لقراء الإنكليزية، كإسهام معرفى لا جدال فى قيمته وأثره.

غير أن هذه السهولة واليسر فى أسلوب الكتاب وطريقة عرضه لم تكن بلا ثمن. فتوجه المؤلف نحو القارئ غير المتخصص، وانصرافه عن المصطلحات المركبة التى تميز مختلف مدارس الفكر الإسلامى، وتجنبه الخوض فى الأصول الفكرية والفقهية لتيار الوسطية وهى راسخة فى التقليد الإسلامى أدى إلى شخصنة الأفكار والاجتهادات وربطها بشخصيات الإسلاميين الجدد بدلا من أصولها الأكاديمية والمذهبية. ويخشى أن يكون ذلك أيضا سببا لزهد المختصين (بالدراسات العربية والإسلامية) فى الكتاب، فهم يتوقعون تأصيلا أوسع للأفكار والآراء وإطارا تنظيريا مركبا لتفسير الظواهر وتحليل الحركات الاجتماعية والتيارات الفكرية.

وفى كل الأحوال، يقدم الكتاب قراءة ثقافية واجتماعية وسياسية هامة لمصر المعاصرة، وخارطة لمختلف تياراتها واتجاهاتها الثقافية والسياسية، وعرضا لأهم قضايا الصراع حول روح الإسلام ومصر بين المسلمين العلمانيين والمعتدلين والمتطرفين. وإن كان لسائل أن يسأل فى أعقاب أحداث سبتمبر/أيلول ٢٠٠١: هل هناك مسلمون معتدلون؟ وهل يتوافق الإسلام مع العالم المعاصر؟ فإن ريموند وليام بيكر قد أجاب على هذه الأسئلة وغيرها بجدارة. ■

أبيض وأسود وجوه ذلك الزمان

■■ كما السينما.. وربما قبلها، تظل الصورة الفوتوغرافية شاهدًا على العصر. شخوصه، ومشاهيره، وأزيائه، ومقاييس جمال حسناواته. بل وبعض من ملامح ثقافته التى تسمح أو لا تسمح..

لسبعين عامًا كاملة من القرن الفائت ظلت عدسة هذا المصور ترسم بالضوء والظل وجوهًا من هذا الزمان.

شيئًا من تلك الظلال، جمعته الجامعة الأمريكية بالقاهرة فى كتاب.. ومعرض وقصة الواقف خلف الكاميرا صورها فيلم تسجيلى عن الرجل.

(المحرر)



رنا حايك

فيليب. أرماند. غارو. فان ليو. وصورة بالأسود والأبيض معلقة على جدار ماضٍ قريب فى أستوديو معتم فى أحد شوارع القاهرة الصاخبة.

آخرهم كان هو (نفسه) ليفون إسكندر بويارجيان، الأرمنى الأصل، المصور الذى نزحت أسرته الأرمنية من تركيا إلى القاهرة، هربًا من أبشع مذابح القرن العشرين.

كعادتها، سقت القاهرة بذور الموهبة ونمتها. وكعادة الوافدين الممسوسين بالفن، أبدع فان ليو فى ربوعها. فهنا، فى إحدى عمارات شارع ٢٦ يوليو، كان ستديو حبس فان ليو نفسه فيه بين سنة ١٩٤١ وسنة ١٩٩٧ حين اعتزل. هنا أرخ، من خلال صور البورتريه المستطيلة الشكل الشديدة الخصوصية فى محتواها، لنماذج من شرائح اجتماعية مختلفة ومن جنسيات متنوعة عكست أهم التحولات الاجتماعية والسياسية التى عرفتها مصر خلال هذه الفترة الغنية بالتأملات.

فان ليو رصد تنوع البشر، وداعب أحلام النساء المتعطشات للظهور بمظهر فاتنات هوليوود كفيفيان لى أو سكارليت أوهارا، وذلك من خلال تلاعبه بالإضاءة وبالظلال لإضفاء رونق هوليوود على بورتريهاتهن. فقد قصدته الكثيرات ممن حلمن بمجد الفن لأخذ بورتريهات لديه بأزياء وأوضاع مختلفة تصلح لتقديمها لمخرج ومنتج يملك مفتاح الشهرة، وتضمن إبراز صلاحيتهن لأداء الأدوار المختلفة. صور الكثيرات، منهن شريهان وداليدا وبرلنتى عبد الحميد.. ورجاء محمد سراج (وصفها البعض بملكة جمال) وميرفت أمين، التى قال أن وجهها هو أحلى وجه صوره لأنه يحتمل التصوير من جميع الزوايا دون أن (تؤثر) الزاوية على مستوى جمال الوجه.

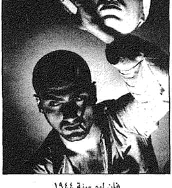
وفان ليو عشق السينما، وفتش طويلاً فى غرفة التحميض المعتمة خاصته، عن التأثير الضوئى لمشهد تحول جيكل إلى هايد فى فيلم «جيكل ومستر هايد» التى تجسد تحقيق مبدأ حرية الفرد بعد فصل جانبيه المظلمين. وعندما وجدها، كانت صورة صديقه الأرمنى نوبار.

صور فان ليو أفراد الجيش الإنجليزى والفنانين الأجانب الذين أتوا للترفيه عنهم عندما حولت الحرب العالمية الثانية القاهرة إلى مركز استقطاب فنى.

ثم رحلت الملكية ورحلت معها الجاليات الأجنبية، فاقتصر زبائن فان ليو على المصريين، بسطائهم ورموزهم فى السياسة والفن والمجتمع، و... الحركة النسوية، فصورة إحدى رائدات الحركة، درية شفيق التى أخذتها عدسة فان ليو، أصبحت أشبه بالصورة الرسمية لها.

لكن الأفراد لم يحتكروا البطولة فى صور فان ليو. فالحضارة الفرعونية أسرته. وكذلك فعل تراكم الحضارات المتجسد فى تراث المدينة المعمارى، فكانت صورة أهرامات الجيزة التى أخذت من استراحة ميناهاوس، من الغرفة ذاتها التى التقى فيها قادة العالم خلال الحرب العالمية الثانية: روزفلت، تشرتشل وستالين.

وكانت صور أخرى لقلعة صلاح الدين ومدرسة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وغير ذلك... فان ليو خلف عالمًا من النور والعتمة، وأضاء من حوله مساحة من الوهج كانت كافية لتحقق له شهرة لدى

فان ليو سنة ١٩٤٥

فان ليو سنة ١٩٤٤



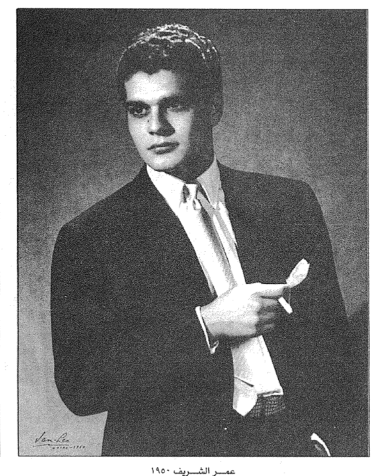

رتـــوش

Van Leo: Portraits of Glamour
ڤان ليو: وجوه من السحر
A Zeitouna Book,
The AUC Press, 1997

Her + Him, Van Leo
هى + هو، فان ليو
Akram Zaatari
Video Still, 32 min. 2001

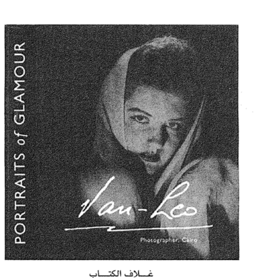


دريـة شـفيق ١٩٥٠



عمـر الشـريف ١٩٥٠

رشــدى أباظــة



غـلاف الكتـاب

المواطنين العاديين من حوله ولو تخللهم بعض الرموز.

وككل مبدع فى العالم العربى، حاز فى حياته مكانته التى يستحقها فى الضمير الجماعى للأفراد الذين أحاطوا به وأولئك الذين عرفوا بأمره من خلالهم فقصدوه. وذلك كله فى غياب دولة ومؤسسات.

فمن أدرك فان ليو قبل رحيله؟

أدركته المؤسسة العربية للصورة سنة ١٩٩٩ حين زاره المخرج اللبنانى أكرم زعترى فى إطار مشروع كانت تقوم المؤسسة من خلاله بدراسة أعمال أهم المصورين فى العالم العربى فأسفرت المقابلة عن إنتاج فيلم أخرجه أكرم بعنوان Her + Him + Van Leo، كما أسفرت الأبحاث عن ترشيحه لجائزة الأمير كلاوس فى التصوير التى حصل عليها سنة ٢٠٠٠.

ثم أدركته مكتبة الكتب النادرة فى الجامعة الأمريكية فى مصر حين تنازل لها عن مجمل أعماله ليضمن حفظها وإعادة ترميمها بعد مماته. فكان المعرض الذى أقامته له سنة ٢٠٠١ ثم كان الثانى سنة ٢٠٠٢، قبل وفاته بعدة أشهر.

وأدركته هى، إحدى الصديقات التى زارته فى الأستديو بعد أن رأت أعماله فى المعرض فأعجبتها.

قرعت الجرس ذات يوم وانتظرت بضع دقائق. فُتِحَ الباب. ووقف هو بوجه عابس:

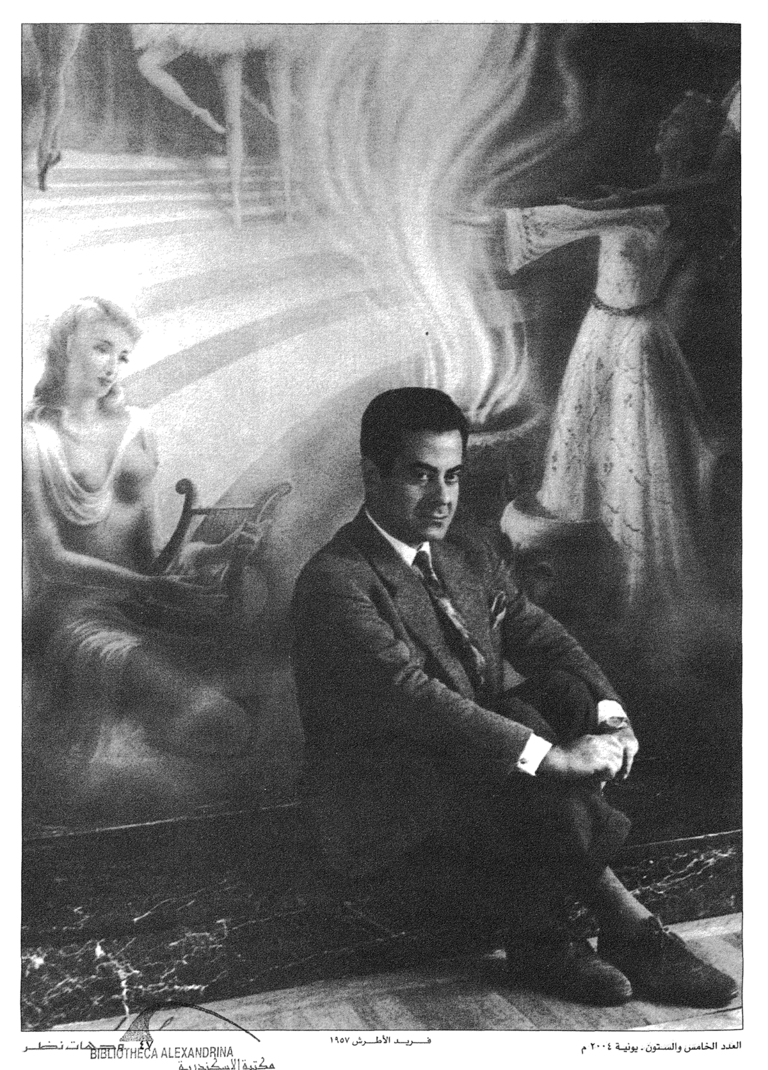
. عايزة إيه؟

حافظت على رباطة جأشها وقالت له: بورتريه.

. حيكلفك. بعدين أنا بصور أبيض وأسود والمصريين مابيحبوش ده.

فقالت له وهى تبتسم: بس أنا مش مصرية.

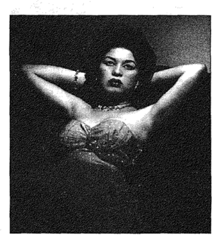
كان ذلك فى أوائل التسعينيات. بعد أن شهد هذا الكهل مراحل كثيرة انتهت بهبوب عاصفة الانفتاح والتحديث التى جلبت معها



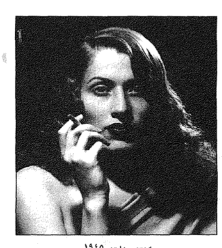
فــريــد الأطــرش ١٩٥٧



فاطمة رشدى ١٩٥٠



رجاء ١٩٥٨



مرسيدس ١٩٤٥

شريهان ١٩٧٦

أبيض وأسود

بدعة الألوان لمجال التصوير الفوتوغرافى فحاول التماشى معها رغماً عنه، مع احتفاظه بفئة صغيرة من الزبائن الذين مازالوا يقدرون صورة الأبيض والأسود.
هذه المقابلة التى بدأت مشحونة بقدر كبير من الجفاء من قِبَلِه انتهت «بدردشة» «حميمة» وبتبادل أرقام الهاتف.

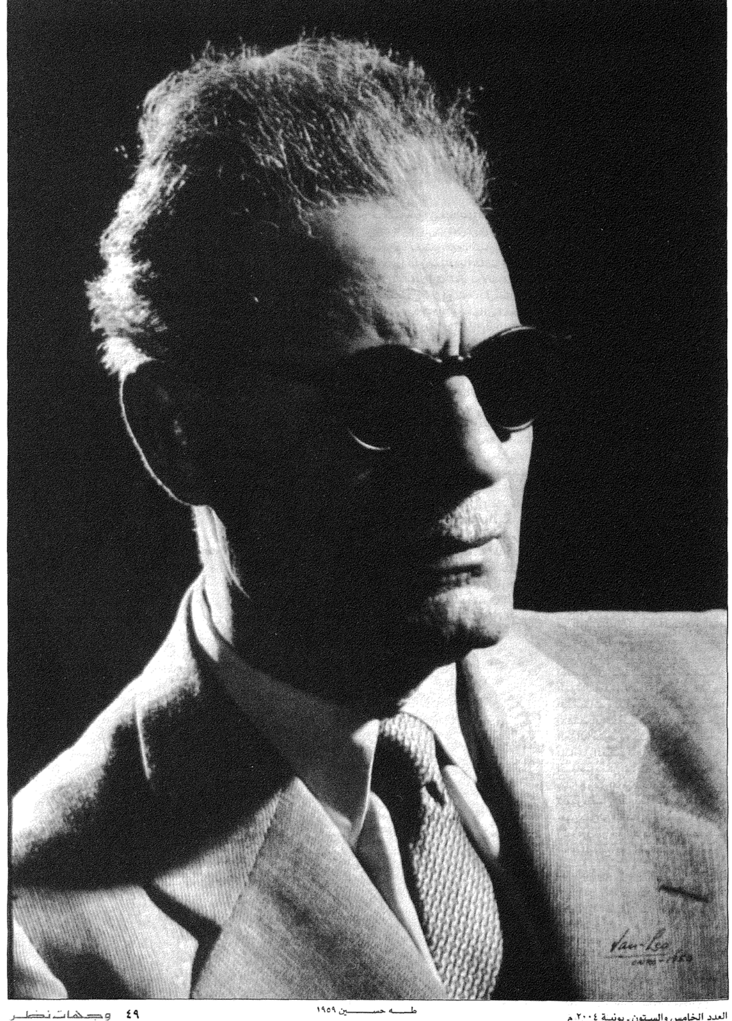
فان ليو فعل الشىء نفسه مع أكرم حين ذهب هذا الأخير لمحاورته. لعله مزاج الفنان بشكل عام. أم لعله التجسيد الجزئى لثقافة الأقليات الانعزالية التى ترتدى قناعاً من الجفاء يخفى قدراً كبيراً من التأقلم يفرض نفسه رغم جهود إخفائه.

قال فى الحوار المصور الذى شكل المادة الأساسية فى الفيلم الوثائقى «Her + Him + Van Lioå»: سنة ٥٢ ولعوا البلد، خلصنا من ده، بعد ٦ شهور عملوا ثورة ومشوا الملك. خلصنا من دول، طلعت لنا حكاية فلسطين. كل شوية. عملوا ٣ - ٤ حروب مع إسرائيل ما كسبوش حاجة. طيب. غير كده، الإرهاب آخر ١٠ سنين بالبلد. البلد مش ماشى طبيعى. أنا مامشيتش عشان الأستديو بتاعى هنا. بس أنا بحب مصر. بحب تاريخها ومتعود أعيش فيها. كان عندى ٣ سنين لما هربنا من تركيا ووصلنا الإسكندرية.

فان ليو تكلم بثلاث لغات خلال الحوار، يتقن اثنتين منها تماماً ويتلعثم فى الثالثة التى هى العربية. عاش فان ليو بثلاث لغات، زبائنه كانوا فى كل بلدان العالم، جاليات أجنبية فى مصر أو أجانب قصدوه فى الخارج.

لكنه مات مصرياً. مات إنساناً.

ولم يفرق الموت، الذى عاش معه خلال مشواره الإبداعى الطويل ظلالاً على صوره وهاجساً فى داخله وأسود كاحل فى غرفة التحميض بين لغاته الثلاث وانتماءاته التائهة، فالموت وطن لا لغة فيه ولا حوار. ■



طـــه حســـــين ١٩٥٩

الـــــــرّق

ذكرت وزارة العدل الأمريكية أن عصابات الجريمة المنظمة تجلب نحو ١٧ ألفًا و٥٠٠ شخص سنويًا إلى الولايات المتحدة، وأن هؤلاء الأشخاص يضطرون إلى ممارسة الأعمال الشاقة والدعارة أو كخدم فى المنازل الأمر الذى يشير إلى أن الرق لازال موجوداً فى الولايات المتحدة رغم إلغائه رسمياً منذ ١٣٠ عاماً. وقالت الوزارة، فى تقرير لها، إن الإتجار فى البشر جريمة مروعة وانتهاك لحقوق الإنسان.

رويترز - ١٩ مايو ٢٠٠٤

■■ مع إعلان تحرير العبيد الذى أصدر عقب نهاية الحرب الأهلية الأمريكية فى ستينيات القرن التاسع عشر، اعتقد العالم أن ممارسة الرق التى استمرت آلاف السنين انتهت إلى غير رجعة. ورغم مرور ما يقرب من قرن ونصف على هذا الحدث المهم إلا أن كيفن بيلز يقدم فى كتابه الجديد «أشخاص يمكن التخلص منهم: الرق الجديد فى الاقتصاد الكونى» الحجة على أن الرق مازال قائماً، وأنه فى وقتنا هذا أزمة على نفس القدر من الإلحاح الذى كانت عليه فيما مضى. ويقدر بيلز أنه يوجد حالياً ما يزيد على ٢٧ مليون عبد؛ وهو رقم يزيد على عدد كل الأفارقة الذين نقلتهم تجارة الرق عبر الأطلنطى. فقد تطور الرق فى العصور الحديثة، إلا أنه مازال وحشياً وخالياً من المشاعر الإنسانية. كما أن العنف والقهر من عناصره الأساسية، فى الوقت الذى تلاشت فيه البنى الشكلية والملحوظة. وهكذا نجد أن هذا الرق الجديد على قدر من المخادعة والمطاوعة يزيد عما كان عليه سابقه، وهو بذلك أكثر قدرة منه على البقاء. لقد ولت أيام الرق من المهد إلى اللحد التى كان الجنوب الأمريكى نموذجاً لها. إذ حل محله شكل مختلف من الرق. ذلك أن الرق الحديث فرع فاسد من فروع الرأسمالية، وهو يعطى قيمة كبيرة جداً لتحقيق الأرباح عن طريق اعتصار كل زيادة فى قيمة العمل من القوة العاملة (الأسيرة) بغرض تقليل النفقات. وبناء على ديموغرافيا الاقتصاد الكونى الجديد، أصبحت العمالة متوفرة بكثرة فى العديد من المناطق الفقيرة، وبذلك بات العمال أشخاصاً يمكن التخلص منهم. ويلخص بيلز جوهر الرق الحديث باستعماله تعبير «يمكن التخلص منهم». ذلك أنه حين يمرض العمال أو يصابون، أو حين يتمردون، أو حين لا يصل إنتاجهم إلى الحد المتوقع، فإن أسيادهم يتخلصون

Disposable People: New Slavery in the Global Economy

(العبودية الجديدة فى اقتصاد العولمة)

Kevin Bales

University of California Press, 2000

بترتيب خاص مع

National Strategy Reporter

ترجمة: أحمد محمود





... هل انتهى؟!

جوزيف جيليوتى

منهم فحسب. ومن المؤسف أن هذا «التخلص» كثيراً ما يكون له جانب مميت؛ وبالتالى دائم.

ويرى بيلز أن أحد أسباب استمرار الرق الحديث الأساسية هو أن أحداً لا يكاد يصدق أنه موجود. فالناس فى الغرب يفكرون فى الرق على أنه ظاهرة تاريخية؛ أى أنه مؤسسة محيت فى القرن التاسع عشر.

وهذا هو السبب الذى دعا بيلز إلى أن يكتب هذا الكتاب. فالغرض منه هو دحض ذلك الافتراض الشائع رغم خطئه. وكما سنرى لاحقاً، فإن بحث بيلز يثير قضايا مؤلمة بالنسبة للقارئ فى مجتمعات أمريكا الشمالية وأوروبا المادية التى تنعم بالراحة.



يعرض الكتاب ثلاثة أنواع من الرق، وذلك بشىء من التفصيل فى فصله الأول. والرق المنقول هو أول هذه الأنواع، وهو الشكل الحديث للرق القديم. وهو ينطوى على علاقة من المهد للحد بين العبد وسيده ويستلزم كل معايير الملكية والأملاك المعروفة لأى دارس للجنوب الأمريكى فى فترة ما قبل الحرب الأهلية.

وتشكل عبودية الدَين (بين الدائن والمدين)، وهى توليفة من نظام المزارعة التقليدى والقمع العنيف، الشكل السائد للرق، وهى بذلك النموذج الذى يركز عليه بيلز فى كتابه. وأحد ملامح عبودية الدَين الغريبة هو أنه بينما لا يزعم «السادة» أنهم «يملكون» ما لديهم من «عبيد»، يضمن تحويل الدَين بقاء ذرية العبد أملاكاً للسيد، مثلهم مثل الذين ولدوا فى ظل الرق المنقول.

وأخيراً يستخدم الرق التعاقدى العقد الحديث وسيلةً لاستعباد من لا يخامره الشك، وبالقانون. وطبقاً لهذا النظام، يتعاقد الناس. وهم فى الغالب من أهل الريف الذين يسهل على عديم الضمير خداعهم، على العمل ويُخضعون لشروط استعبادية. وفى حال احتجاج هؤلاء العمال لا يكون هناك سوى إلقاء القبض عليهم بواسطة قوة شرطة متواطئة فى كثير من الأحيان لمخالفتهم شروط العقد.

ويقدر بيلز ما يولِّده حوالى ٢٧ مليون عبد فى أنحاء العالم من أرباح سنوية تبلغ ١٣ مليار دولار أمريكى. ولكى لا يبدو هذا الرقم زهيداً، حيث يعترف بيلز بأنه يقل عما ينفقه الهولنديون سنوياً على السياحة. فالأمر يستحق أن نستذكر أثر أسعار الصرف. فعندما نعتبر أن العامل المستعبَد فى الهند يمكن استعباده بمبلغ زهيد (بالمعيار الأمريكى) قدره ٣٩ دولاراً، فإن مبلغ الثلاثة عشر مليار دولار يمثل قدراً لا يُصدق من النفوذ الاستغلالى.

ويُستخدم العبيد للقيام بمجموعة كبيرة من الأعمال تبدأ من الدعارة إلى رعاية الأطفال إلى التشييد والبناء إلى التصنيع. ويبدو أن القائمة لا تنتهى. والملمح الأساسى لأشكال الرق كافة هو أن الأشخاص فى كل الحالات يُحتجزون بالعنف وضد إرادتهم بغرض الاستغلال. وبهذا المعنى يحتفظ الرق الحديث بصلته بالصورة القديمة للرق. إلا أن ما يختلف فيه الاثنان هو أن الفروق القديمة التى كانت تُستخدم للتمييز بين السيد والعبد، وأبرزها الجنس race، قد اختفت. فبدلاً من ذلك، أصبح المال هو الذى يرسم الحدود الجديدة. فمن يملك المال يستعبد غيره، ومن لا يملكه يصبح هو العبد.



ويعكس هذا الشكل الجديد فى جوهره نتائج العولمة المدمرة. فبينما تتعدى الروابط الاقتصادية الحدود القومية بشكل متزايد، يُلْقَى بتلك الدول العاجزة عن التنافس فى جحيم الفوضى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ويرى كثيرون فى تلك الدول «النامية» أن التطور بمثابة نذير بانهيار الشبكات الاقتصادية والاجتماعية التقليدية. فكما تُطعِم الزراعة الحديثة المزيد والمزيد من الناس، على سبيل المثال، فإنها تزيد كذلك من عدد السكان. ونعرف أن تعداد سكان الهند زاد بمقدار ٦٠٠ مليون نسمة على مدى الخمسين سنة الماضية ليصل حاليًا إلى ٩٥٠ مليونًا. وكانت نتيجة ذلك انخفاض قيمة العمالة، وندرة الأراضى الصالحة للزراعة، كما زاد عدد الفقراء من سكان المناطق الحضرية زيادة سريعة. وسرعان ما تعدت ضغوط إطعام تلك الأعداد الضخمة وإيجاد فرص عمل لها قدرة حكومات تلك الدول النامية، لتخلق بالتالى مناطق رمادية فى المجتمع جاهزة لأن يستغلها الجشعون.

ويشير بيلز إلى ملمح من ملامح الرق الحديث الأساسية، وهو طابعه الدولى. فبينما استعبد الأمريكيون الأفارقة فى يوم من الأيام لإنتاج القطن والأرز وغيرهما من السلع، يستعبد التايلانديون الآن التايلانديين، تماماً مثلما يستعبد الباكستانيون الباكستانيين والبرازيليون البرازيليين. وكثيراً ما يتحدث الاقتصاديون عن كيفية تحريك المنافسة الشرسة «السباق نحو القاع»، حيث تسعى الشركات إلى منافسة بعضها فى الأسعار، لتكسب بالتالى حصة فى السوق. وقد نشأ الرق الحديث، بالمعنى شديد الواقعية، من عجز الدول النامية عن مجاراة المستحدثات التكنولوجية الخاصة بالاقتصادات الصناعية الحديثة. وبما أنه لم يتبق لدى اقتصادات بكاملها سوى الميزة الاقتصادية الوحيدة التى بحوزتها، وهى العمالة الرخيصة. فقد أصبح توجهها نحو الاستغلال.

ويتضمن كتاب بيلز دراسات حالة عن الرق فى تايلاند وموريتانيا والبرازيل وباكستان والهند. وهى ذات قيمة كبيرة لنفاذها داخل ثقافات تلك الدول بقدر ما، لكشفها لنوع الرق الذى نحن بصدده من قيمة. ويمزج بيلز فى كل هذه الدراسات رواياته الشخصية بالوصف التحليلى كى ينسج صورة غنية للبلد موضع البحث. ولما يتسم به بيلز من دقة، فبإمكان القارئ رؤية الرق من منظور العبد ومن زاوية من يملكه. ويتجمع الغذاء ووجود الشرطة والدين والطائفة والنوع gender لتخلق جميعاً صورة حية لما يعنيه أن تكون عبداً وسيداً.

العيب الوحيد فى تلك الروايات المفصلة هو أن بيلز يُحمِّل إحساس القارئ بالغضب ما لا يطيق. فبعد استيعاب الحكاية الخاصة بالشابة التايلاندية التى بيعت فى سوق البغاء، على سبيل المثال، تبدو حياة العبد الموريتانى المنقول أقل مأساوية إلى حد ما. وبالمثل تبدو عبودية الدَين الخاصة بالفلاح الهندى أشبه باتفاق عمل ينطوى على الاستغلال أكثر من كونها عبودية. ومن الغريب أن الخدرة التى يبدأ القارئ فى التعود عليها مع تقدم الكتاب تثبت حجة بيلز. ذلك أن الرق الحديث باق فى الغالب لأنه من الصعب على المراقبين الخارجيين إدراك حجم الأزمة وإدماجها فى تصورهم الخاص بالتراتبات الاقتصادية فى العالم النامى. كما أن خطر العنف (وتكرار استخدامه) هو القاسم المشترك فى دراسات الحالة. إلا أن هناك الكثير من المتغيرات والفروق فى تصور بيلز الخاص بالرق الحديث بحيث يصعب تقدير حجم الرعب والقمع. وتقدم كل دراسة حالة نمطاً مختلفاً من أنماط الرق: سواء عن طريق التصنيف، مثل الرق المنقول مقابل عبودية الدين، أو طبقاً لنوعية العمل، مثل صناعة الطوب مقابل الدعارة. والأثر النهائى لهذا العرض هو جعل الرق أكثر غموضاً فى طابعه، وبالتالى أقل خطورة.



أخيراً، يبين بيلز الضرورة الأخلاقية لاستمرار السعى للقضاء على الرق. كما أنه يقدم الخطوط العامة للإجراءات العملية الخاصة بتحقيق هذا الهدف. وتعتمد حجة بيلز من الناحية الأخلاقية على لفت النظر إلى أن المجتمع الحر الذى يسمح بوجود الرق ليس مجتمعاً منافقاً فحسب، بل إنه ليس بمجتمع حر حقاً. ومن الناحية العملية، يحدد بيلز جوهر قوة بقاء الرق الحديث على أنه المال. ويقول بيلز إنه لولا الربحية لمات الرق.

وتعد العقوبات التى فرضت على النظام العنصرى الحاكم فى جنوب أفريقيا، وما أعقب ذلك من زوال التفرقة العنصرية، النموذج المثالى الأساسى الذى يستند إليه بيلز. وتتضمن حجته كذلك المزيد من النماذج المحددة، مثل حملة Rugmark «رجمارك». وبما أن الهدف منها هو محاربة الرق بين نساجى السجاد فى دول مثل باكستان، فقد أصر الموزعون البارزون فى الولايات المتحدة وأوروبا (بينما كانت بريطانيا استثناءً ملحوظاً وغريباً، نظراً لتاريخها فيما يخص معارضة العبودية) على التعامل فقط مع المصانع التى تلتزم بمعايير العمل التى حددتها «رجمارك». وبعد ذلك كانت تلك السلع توضع عليها بطاقات تدل على هذا، ومن ثم تسمح للزبائن باستبعاد المصانع التى لا

تلتزم بتلك المعايير. وكان هذا الشكل من الاحتجاج باستعمال الشخص لحافظة نقوده هو وصفة بيلز الأساسية للقضاء على الرق، وهى وصفة جيدة.

إلا أن الشىء الذى نلاحظ غيابه هو الترويج لاستراتيجية «المبادرة المباشرة» للقضاء على الرق. فطوال الكتاب يكرر بيلز حقيقة أن الناس فى أنحاء الأرض يعيشون فى ظروف مزرية وربما مميتة (وهو ما يتضح بشكل خاص فى الفصل الذى يتحدث فيه عن صانعى الطوب الباكستانيين) لأنهم مدينون بأجورهم تلك الأجور تعد ضئيلة للغاية بالنسبة لأى أمريكى عادى من الطبقة الوسطى. وما يقيد الغالبية العظمى من عبيد الدَين. سواء أكانوا عاهرات أم فلاحين أم صانعى طوب. هو أن الواحد منهم مدين بما يقل عن ٥٠ دولاراً أمريكياً. ومع أن بيلز يستعرض لقارئه أسعار الصرف المختلفة، فإن العلاج الواضح الذى لم يأت له ذكر فيما قال هو: «اشتروا الدَين عن المستعبدين».

وبالنسبة للغربيين الذين يرغبون حقاً المساعدة فى القضاء على الرق، قد لا تكون المقاطعة وفرض العقوبات هى الإجراء الوحيد. فتسديد ديون العمال المقموعين من خلال تجميع للقروض الصغيرة أو المنح غير المشروطة. وبالتالى تحريرهم. هو الحل الذى لا يبحثه بيلز (على الأقل ليس فيما يتعلق بتدخل المجتمع الدولى). ويكون هذا السهو هو الأبرز حين نأخذ فى اعتبارنا أن ما قاله عن الهند لا يبحث جهود الحكومة (إحدى أكثر الحكومات تقدميةً فى الحرب على الرق) للقضاء على عبودية الدَين بإلغاء الديون ومنح قروض للعمال.

ربما كان السبب فى سهو بيلز عن إستراتيجية شراء ديون المستعبدين هو أنه غير مستعد لعبور الحد الفاصل بين المحلى والدولى. فبيلز راض كل الرضا عن توبيخ المجتمعات والحكومات الأجنبية لسماحها بهذه الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان داخل حدودها. كما أنه يكيل الاتهامات بالفساد والعجز ضد الكثير من النُخَب فى تلك المجتمعات. إلا أن بيلز لم يربط بين حقوق الإنسان العالمية ومسئوليات حقوق الإنسان العالمية. فالرق مازال موجوداً بسبب مبدأ الرأسمالية القاسى الخاص بالميزة النسبية وبسبب آثار النزعة الكونية التى تتسم بالفوضى على المجتمعات المحلية.

وحيثما يتفسخ نسيج المجتمعات التقليدية تحت الضغط الاقتصادى الدولى، وحيثما يصبح الفساد وسيلة لإدارة الأعمال التجارية بدلاً من أن يكون عائقاً فى سبيلها، وحيثما يصبح العنف هو العملة السائدة، فإن الرق ينتعش. ورغم ذكر بيلز لميراث الرق فى الولايات المتحدة وبريطانيا وأوروبا، فإن تركيزه الحقيقى على الدول النامية؛ أو «العالم الثالث». فهناك الدول والمجتمعات التى لا يمكنها التعامل مع هذا الموقف والغارقة بشدة فى طغيان لا يعرف القوانين. وتلك المجتمعات على وجه التحديد هى التى ينبغى استهداف المجتمع الدولى لها بالتدخل إذا كان يريد بالفعل القضاء على الرق.

ولا يؤيد بيلز التدخل إلا بالمعنى الاقتصادى شديد التجرد. فشراء السجاد الذى يحمل علامة «رجمارك» من باكستان لفتة لا بأس بها، ولكنها ليس إلا لفتة فحسب. والواقع أن النزعة الاستهلاكية التى يحركها الضمير لدى الأمريكيين والأوروبيين لا يمكنها فى واقع الأمر تغيير حال الرق فى المجتمعات التى على ذلك القدر الذى عليه المجتمع الباكستانى أو الموريتانى من تحطم. وفى

تاريـــخ.. وفلســـفة.. وعقـــائد

مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة

الجزء الأول: من نشأة الرق حتى مطلع الإسلام

المؤلف: أحمد فؤاد بلبع

الناشر: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣

■ الكاتب العجوز أحمد فؤاد بلبع، عرفناه قبل عشرات السنين مترجماً، لكنه مترجم من نوع خاص، إذ أنه لا يكتفى بالترجمة، إنما هو يلحق بها تعقيبات وتعليقات وحواشى وذيولاً، ولا يتوقف عند إضاءة النص، بل يملأ فراغا، ربما يغيب عن ذهن المؤلف نفسه. ثم إنه فى هذه المترجمات المتنوعة يحلق فى عوالم شتى، تاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية وأنثروبولوجية، ولا تشعر وأنت تطالع مترجماته بكونها مترجمات، وقد يساورك هاجس بأنها مؤلفات، وهذه فضيلة.. وأية فضيلة.

لعل من أهم مترجماته كتاب «الإسلام والوثنية» لمؤلفة السردار بانيكار، وإنى لأعجب كيف تمر ترجمة هذا الكتاب . وقد نشر قبل عشر سنوات . دون تنويه من أحد، فمع كونه كتاباً كلاسيكياً تقادم العهد به، إلا أنه لا يزال مصدراً لا غنى عنه لتاريخ القارة السوداء. وقد بذل المترجم جهداً فائقاً فى ترجمته تلك، لأن الكتاب يغص بنقول من مصادر عربية، طبعت منذ سنوات بعيدة، ويعسر الظفر بها، كما أن المؤلف لم يهتم كثيراً بتوثيق هذه النقول، مما أهم المترجم لأن يردها . وهى حفيلة . إلى أصولها.

تمضى سنوات العمر، ويشعر الفارس . وقد استبدت به الترجمة بحاجته . لأن يدلى بدلوه فى مجال التأليف، فيتطرق بجسارة إلى موضوع صعب مرتقاه، ربما يحتاج إلى أعمار عدة، وليس عمراً واحداً.. وهو موضوع الرق. والحق إننى . ومن منطلق التخصص . أشفقت عليه لدى ولوجه موضوعاً يضرب فى الزمان وفى أعماق المكان، تتعدد مساربه، وتتباعد مذاهبه، ويكتنفه الغموض فى أحيان لنزارة المادة، ويكتنفه الغموض فى أحيان أخرى لغزارتها، وربما يحار المؤلف، فلا يدرى من أين يبدأ وكيف يبدأ، وإلى أين ينتهى به المسير، والأهم أنه يجد نفسه مضطراً إلى أن ينهل من موارد معرفية متباينة بطبيعتها، وتتطلب قدرات خاصة فى التعامل معها، وهو أمر ليس بيسير، ثم إنه . إلى ذلك . يطرق أبواب موضوعات مسكوت عنها، فظاهرة الرق التى صاحبت التاريخ الإنسانى حتى نهاية القرن التاسع عشر، جاورتها ديانات سماوية









كل البلاد التى تناولها البحث، سوف يكون حل مشكلة الرق الحقيقى هو التدخل لفرض معايير حقوق الإنسان العالمية التى تدعم حجة الكتاب. إلا أن هذا هو جوهر المشكلة. ذلك أنه إذا كان لابد للمجتمع الدولى (أو بالأحرى الغرب) أن يتدخل فى بلد مثل البرازيل أو الهند، اللتين حُكم على كل منهما بأنها ديمقراطية مستقرة إلى حد ما، ألن يكون ذلك عملاً ينطوى على الغزو؟ وهل يجب فرض حقوق الإنسان العالمية على حساب آلاف السنين من التراث؟ وهل لابد من التضحية بالثقافة لمصلحة المعايير «العالمية»؟

يجب أن تكون الإجابة عن تلك الأسئلة هى «ربما». فالإيمان بحقوق الإنسان العالمية فى الأصل ترف خاص بالغرب المزدهر. ذلك أن الحديث عن الكرامة الإنسانية العالمية والفرصة السانحة يكون أسهل بكثير حين يكون الشخص منتمياً إلى إحدى الدول الغنية والمزدهرة كالولايات المتحدة، أى ذلك الشخص الذى لم يكن فى يوم من الأيام ضحية للغزو المتكرر (الهند) أو الكوارث الطبيعية المخيفة (موريتانيا) أو العنف الدينى المستمر (باكستان). ففى كثير من الأحيان تطورت الأنظمة السوسيواقتصادية لتلك الدول بالشكل الذى تطورت به بسبب ظروف معاكسة استمرت قروناً. والإعلان أن كل الكائنات البشرية لها «حقوق عالمية» فحسب هو التزام ذو مبادئ سامية والتزام يجب ألا نتخلى عنه لمجرد أن تنفيذه يبدو صعباً. ولكن مثل هذه الإعلانات قد تتسم بالغطرسة وبالخواء. فهى قد تكون متغطرسة بمعنى أن الظروف السوسيواقتصادية ليست متعدية؛ إذ إن ما هو ممكن فى الولايات المتحدة أو غيرها من الديمقراطيات الصناعية قد لا يكون ممكناً فى العالم النامى. فهل من الإنصاف أن نتوقع من تلك الدول الالتزام بمعايير يفرضها عليها الأغراب الذين يفتقرون فى الغالب إلى فهم العادات والتقاليد المحلية؟ وعلى سبيل المثال، كم من الأمريكيين يفهم حق الفهم معنى كراهية شخص ما لمجرد أنه ينتمى إلى الميثودية وليس المعمدانية؟ بينما الشيعة والسنة يقتلون بعضهم كل يوم فى باكستان بسبب الخلافات الدينية. وبناء على ذلك فمن الخطأ افتراض أن مجرد إعلان معيار عالمى لحقوق الإنسان سوف يكون له أى أثر مستدام. فكثير من الثقافات مهتمة بانقسامات المحلى بالقدر الذى يمنعها من التفكير فى معايير العالمى.

ويمكن أن تبدو تلك الإعلانات خاوية لسببين. أولاً: هناك الحقيقة التاريخية التى تقول إن نمو أمريكا الشمالية وأوروبا اعتمد إلى حد ما على العمال العبيد. ولا تزال العنصرية موجودة فى كثير من تلك المجتمعات. ثانياً: لابد أن نسأل أنفسنا فحسب ما هو الشوط الذى لدى الغرب الاستعداد لقطعه كى نقضى على العبودية. ونظراً للتحديات التى نواجهها فى الداخل، وهى التشرد والفقر شديد الوضوح، ناهيك عن ٤٤ مليون مواطن بلا رعاية صحية مناسبة، هل من الواقع الإشارة إلى قبول الأمريكيين للمخاطرة أو التضحية الضخمة كى يضغطوا على الدول الأخرى لتمحو الرق بكل أشكاله؟ فما الذى بقى لنا إذن فى النهاية؟ وإذا كنا باعتبارنا مجتمعاً دولياً لا نستطيع التدخل لوقف الظروف الاجتماعية المعاكسة التى تشجع على نمو الرق، أو لسنا على استعداد لذلك، فهل لا يزال الأمر يستحق منا عناء الاحتجاج على الرق فى سياق حقوق الإنسان العالمية؟ بكل تأكيد. فمن غير المحتمل أن توصم الحكومات المتواطئة مع تلك الانتهاكات بالعار. ذلك أن الدول لا ترغب فى النظر إليها على أنها منبوذة؛ حتى وهى تعترض على التدخل الخارجى. وحينئذ لا ينبغى النظر إلى كتاب «أشخاص يمكن التخلص منهم» على أنه بيان لمشكلة مستعصية، بل على أنه تذكير بأن الاعتماد الاقتصادى المتبادل يحمل فى طياته مسئولية أخذ كل تكاليف إنتاج السلعة. البشرية والنقدية . فى الاعتبار.

إن «أشخاص يمكن التخلص منهم» كتاب يستحق الاهتمام، ليس بسبب أبحاثه المفصلة لثقافة الرق وعلم اجتماع الرق فحسب، بل كذلك لبحثه المتأنى للفروق داخل المجتمعات التى لم يزل الرق قائماً فيها فحسب، بل يزدهر. ويقوم بيلز بعمل رائع يوازن بين الحجج من الناحية الأخلاقية وبين الجوانب العملية الخاصة بالتصدى لهذا التحدى. والكتاب قصة إنسانية زاخرة بالألم والمعاناة، ولكن بيلز يترك القارئ وقد اقتنع بأن نهاية القصة. أى القضاء نهائياً على الرق. قد تُروى فى يوم من الأيام. ■

مؤسسة الرق

عبادة كحيلة

وغير سماوية، اتخذ بعض من ينتمون إليها أو يقومون عليها مواقف من هذه الظاهرة، قد لا يرضى عنها ذوو الضمائر المهمومون بالإنسان وحقوق الإنسان، مما يفضى إلى حرج لكاتب ينتمى إلى إحدى هذه الديانات.

المحزن فى الكتابة عن الرق، شأنها شأن الكتابة عن الغجر (وكاتب هذه السطور معنى بهؤلاء الأواخر) أنه لا تتوافر لدينا. على الأقل فيما يختص بالعصور القديمة. مصادر منسوبة إلى الرقيق أنفسهم، لأنه لم تتوافر لديهم إمكانية الكتابة عن أنفسهم، وربما توافرت هذه الإمكانية فى عصور تالية، فثورة شهيرة كثورة العبيد بزعامة سبارتاكوس، نقف على أخبارها كلها عند خصومهم الرومان.. لذا فلا مندوحة من الاعتماد على كتب الأغيار من الأحرار، وبعضهم يصدرون فيما يكتبون عن منازع عنصرية أو غير موضوعية يشوبها الانحياز من غير جهة.

أخيراً فالموضوع. بطبيعته. يفرض على الكاتب أن يكون محلقاً، لا أن يكون محدقاً، لكن الغريب أنه جمع الخصلتين معاً، فكان محلقاً بقدر ما كان محدقاً.

قبل أن تغرب شمس العام ٢٠٠٣ صدر السفر الأول من هذا العمل الكبير، ويختص بالعصور القديمة، أى العصور السابقة لظهور الإسلام، باعتباره نقطة مفصلية فى تاريخ البشرية.

يبدأ المؤلف كتابه بفقرة ربما تكون دالة على ظاهرة الرق وموقفه منها فيقول: «الرق ليس ظاهرة تاريخية عبرت ثم ولت، ولا هو ظاهرة عاشت على حواشى المجتمعات البشرية، دون تأثير فاجع وملموس أو تبعات لا يؤبه بها، وإنما هو ظاهرة لازمت البشرية منذ فجر حضاراتها، وضربت بجذورها عميقة راسخة فى بنيتها الاجتماعية، وأصبحت أحد معالمها الصارخة، وذلك منذ أن استقر الإنسان، وأصبح له وطن، ومنذ أن أدرك قيمة العمل، وتبين له أنه سبيله إلى تحقيق حياة أفضل، ومنذ أن اكتشف القوى أن بإمكانه أن يعفى نفسه من أعباء العمل ومشاقه، وأن يلقى بها على عاتق غيره.

«والرق مازالت له حتى يومنا آثار وتداعيات همجية وبغيضة وشائبة ورواسب وبقايا مروعة، خفية ومقنعة، جلية وفاضحة، مما يؤرق كل ضمير حى، ويستصرخ كل همة تقاعست عن دورها وخانت ضميرها، وتخلفت عن مسئولياتها».

بطبيعة الحال تكون البداية هى تعريف الرق، ويأتى الكاتب بتعريفات عدة، المشترك بينها هو أن الرقيق إنسان مملوك لغيره، يعامل معاملة السلعة المملوكه، مع بضعة فوارق تقتضيها الطبيعة البشرية.

لما كان الرق ظاهرة تاريخية، فهو ظاهرة حادثة وليست أزلية، وهى مسئولية الإنسان المتحضر، وليس الإنسان البدائى، فقبل التاريخ لم تكن ثم عبودية، لأن الإنسان يجد حاجاته متوافرة فى الطبيعة حوله، وليس من ضرورة لجهد كبير يبذله فى سبيل الوصول إليها، وعليه فلا ضرورة كذلك لأن يستعبد غيره، وحتى عندما كانت تحدث صراعات على الموارد، فإن المنتصر كان يكتفى بأكل لحم المنهزم دون أن يسترقه.

بعد عملية تاريخية طويلة، شرع الإنسان فى الاستقرار، وازدادت أعداده، ولم تعد الموارد متاحة كما هى، سيما بعد اختراع الزراعة واكتشاف المعادن، وتوجب عليه بذل جهد أكبر، حتى يؤمن لنفسه ما يحتاجه، وبذا عدل عن أكل لحم المنهزم، واستبدل به استثماره كقوة عمل.. ومن هنا ظهر الرق.

ظهور الرق إذن تحدد بظهور أول مصادره وهو أسير الحرب، وقد ظل الأسر على مدى التاريخ مصدراً مهماً للرق، بل المصدر الأهم فيما يختص بالعصور القديمة.

ترتب على هذا المصدر مصدر آخر، هو أرقاء الميلاد، أى الأرقاء الذين ولدوا فى الأسر، بعد استرقاق آبائهم الأسرى.

بيد أن هذين المصدرين . أسرى الحرب وأسرى الميلاد . لم يعودا بكافيين لمجتمع استمرأ الاسترقاق، وأضحى جزءاً من نسيجه، فظهرت مصادر أخرى داخلية وليست خارجية، أى أن يكون الأرقاء من أبناء المجتمع نفسه، وليسوا وافدين عليه، فقد يبيع الفقير نفسه أو أولاده، من أجل أن يكفل له ولهم حاجاتهم الدنيا، أو أن يبيع المدين نفسه، لأنه لا يستطيع أداء دينه، أو أن يبيع المجتمع السارق عقوبة له على جريمة ارتكبها.

بمرور الوقت ظهر مصدر آخر هو الاختطاف الذى تطور إلى ما يعرف بتجارة الرقيق، وقد أضحت هناك منافسة بين هذه التجارة والحرب كمصدر أهم للرقيق، فربما يتم افتداء الأسير، وربما تنقطع الحرب سنة أو سنوات على أنه فى أحيان كان يتجاور المصدران، فكان النخاسون . لا سيما اليهود . يتبعون الجيوش الغازية، ليتولوا هم بأنفسهم بيع أسرى الحرب.

فى عصر الإمبراطورية الرومانية أحرزت جزيرة ديلوس اليونانية شهرة عالية باعتبارها المركز الرئيسى لتجارة الرقيق فى العالم القديم، وكان يباع بها كل يوم ألف عبد، وفيها كما فى المدن الكبرى كان النخاس يعرض بضاعته البشرية فى مكان مخصوص، ويعلق فى رقبة الواحد من الرقيق قطعة من الجلد (الرق) تتضمن خصائصه ومزاياه، ويبذل ما وسعه من جهد للتعمية على عيوب بضاعته، حتى يتسنى له بيعها بالثمن الذى يريده.

هذه هى المصادر الأصلية للرقيق، وهى مصادر مشتركة بين الحضارات القديمة جميعها، لكن هذه المصادر فى حضارة منها، كانت تتسم بملامح خاصة، تختلف عنها فى حضارة أخرى، ففى فارس كان الرقيق فى معظمهم يؤتى بهم من خارجها، فتوجب على كل ولاية من ولايات الإمبراطورية أن تمدها بحاجتها منهم، وكانت الحال فى مصر قريبة من ذلك، أما عن العبرانيين فلم يكن يجوز استرقاق أحدهم، إلا لأسباب محددة ولمدة محددة، وعلى نحو مشابه كانت الحال فى بلاد اليونان، حيث كان مكروهاً استعباد اليونانى لليونانى، أما فى روما فكان الأصل أن المواطن لا يسترق داخل أسوارها، وإذا كان لابد من استرقاقه، فليكن خارج هذه الأسوار.

من عجب أن الفلاسفة ساروا على نهج مواطنيهم فى نظرتهم إلى الرقيق، وهم لم يقفوا عند حد قبول هذه الظاهرة وتبريرها، إنما دعوا إلى الصرامة فيها



فى بلاد الهند ارتبط الرق فى مجمله بنظام الطبقات، وهو نظام له وشائجه بالعقائد الدينية السائدة، فكان المجتمع ينقسم إلى أربع طبقات، كانت الطبقة الرابعة وهى طبقة الشودرا تنظم الصناع والخدم والعبيد، إلى جانب من لا طبقة لهم، وهم المنبوذون وجميعهم عبيد.



قبل أن تكتمل مصادر مؤسسة الرق كانت قد بدأت تتضح معالم مؤسسة الرق، ولم تكن هذه المعالم موحدة فى الأحوال كافة، إنما كانت تتفاوت بين مجتمع ومجتمع آخر، ثم بين حضارة وحضارة أخرى. على أنه فى بداية العهد بهذه المؤسسة لم تكن أعداد الرقيق كبيرة، إذ كانت الحياة ماتزال بسيطة، كما كان الرقيق يعامل كأنه فرد من أفراد الأسرة.

فى بلاد ما بين النهرين (العراق) كان هناك رق عام يضم غالب الأرقاء، فيصيرون ملكاً للمعابد أو للقصر. ورق خاص، وكان الابن يتبع فى حال الحرية أو الرق حال أمه دون أبيه، وهو تقليد أخذه عنهم العبرانيون، على أن حمورابى أكد أن من يولدون من جارية السيد يصيرون (وأمهم) أحراراً بعد موت أبيهم، وهو نظام قريب من النظام الإسلامى. كما اعترفت الشرائع بقدر من الشخصية القانونية للرقيق، فيصير من حقه مقاضاة الآخرين، والاستقلال بسكن خاص والتزوج بامرأة حرة، وله أن يحتفظ ببعض مما يتكسبه من عمله.

إذا انتقلنا إلى مصر، فلن يكن الرق فى معظم عصورها مؤسسياً، لأن الزراعة ذات التكنولوجيا المتقدمة لا تستقيم مع وجود الرق، ويذهب البعض إلى أنها لم تعرف الرق الخاص، وإن عرفت الرق العام من أسرى الحرب الأجانب، وكانت أعدادهم قليلة، ومع ظهور الإمبراطورية فى عصر الدولة الحديثة ازدادت أعداد الرقيق مع استمرار كونهم أجانب، وصاروا عرضة للبيع والشراء، مما أفضى إلى ظهور الرق الخاص. وقد أتاحت الشرائع للرقيق بعضاً من التصرفات القانونية كالمثول أمام القضاء وحقه فى الاحتفاظ بأسرته، كما كان يجوز رفع الأمة إلى مرتبة الزوجة، ولم يكن فى إمكان أحد من العوام قتل عبده، فقد كان ذلك من حق النخبة حكاماً وكهنة، وعلى عكس ما كانت عليه الحال فى بابل، فالابن يتبع فى حال الحرية أو الرق حال أبيه دون أمه.

وصاحب الرق تاريخ العبرانيين منذ نجومهم، ووردت بشأنه آيات فى سفر التكوين، وهو أول أسفارهم، بيد أنه لم يعم انتشاره إلا فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، عندما أغاروا على بلاد كنعان فاسترقوا أهلها، وبخلاف ما كانت عليه الحال فى العراق وفى مصر كانت الشريعة اليهودية شديدة القساوة على الرقيق، وإذا كان مشرعوهم قد أعطوا الرقيق فى بعض الأحيان بعض الحقوق، مثل أن يستريحوا فى اليوم السابع، فقد كان منطلقهم هو أن يعطوا . أى الرقيق . أفضل ما عندهم. وكانت عبوديتهم فى معظمهم مؤبدة، وقد اتخذت هيئة عنصرية، فلا يجوز استرقاق اليهودى، وفى حال حدوثه فإن استرقاقه لا يدوم سوى ست سنوات، أو ينتهى بحلول سنة اليوبيل اليهودى.

أما عن العرب قبل الإسلام فلم تكن مؤسسة الرق عميقة الجذور بينهم، لأن قلة الموارد لا تسمح بإعالة أعداد كبيرة من الرقيق، لكنه عندما كانت تتوافر هذه الموارد على نحو ما فى المناطق الحضرية، كان الرقيق يزاولون الزراعة وغيرها من الأعمال التى يأنف منها سادتهم المتفرغون للحرب، ودرجت الحال على أنه لدى قتل الحر عبداً، فلا قصاص وإنما دية أو تعويض يؤدى إلى مالكه.

استكملت مؤسسة الرق أركانها فى بلاد اليونان، وصار الرقيق يشكلون غالب سكانه، بحيث لم يكن اليونانى يتصور مدينة يونانية واحدة تخلو منهم، وكان هو نفسه يمتلك رقيقاً واحداً أو اثنين وربما أكثر. وفى زمن أفلاطون فى القرن الرابع قبل الميلاد، وصلت أعداد الرقيق فى أثينا وحدها إلى أربعمائة ألف، فى مقابل المائة ألف من المواطنين الأحرار، وأنيطت بهؤلاء الرقيق الأعمال كافة، فى حين حرموا من الحقوق كافة، فليست للواحد منهم شخصية قانونية ولا ذمة مالية.

من عجب أن الفلاسفة ساروا على نهج مواطنيهم فى نظرتهم إلى الرقيق، وهم لم يقفوا عند حد قبول هذه الظاهرة وتبريرها، إنما دعوا إلى الصرامة فيها. وكان أفلاطون. ومن بعده أرسطو. من منطلق إيمانه بالتفاوت الطبيعى بين البشر يؤمن بأن على الفرد مزاولة العمل الذى تؤهله له طبيعته، بل إنه أدان النظام الديمقراطى فى وطنه أثينا، لتهاونه فى التعامل مع رقيقه، وبلغت به العنصرية مداها، إذ لم يكن يتصور استرقاق أحد من أبناء قومه على أيدى أبناء قومه، حتى لو كان أسير حرب.

وعلى نهج اليونان سار الرومان، بل إن مؤسسة الرق عندهم صارت أكثر اتساعاً، مما كانت عليه لدى سابقيهم. وإذا كان أفلاطون يعتبر الرق نظاماً طبيعياً، فإن سنيكا اعتبره حالة نفسية من حالات الضمير، فيمكن للعبد إذا كان عاقلاً أن يعيش حراً فى الواقع، أما العبد الحقيقى، فهو من كان أسير شهواته.

وصلت الحال بالرقيق عند الرومان إلى أن تم التوسع فى حقوق السادة تجاه عبيدهم، بل حقوقهم فى قتلهم، كما وصلت الحال إلى دفعهم لمنازلة الوحوش الضارية أو منازلة بعضهم البعض حتى الموت فى احتفالات المجالدين التى كان الإمبراطور ورجال دولته وجمهور شعبه شغوفين بمتابعتها، ولم تفلح قوانين سنها أباطرة متأثرون بالفلسفة الرواقية كأنطونينوس بيوس (الورع) فى الحد من هذه الظاهرة.








مع مقدم المسيحية بدت بوادر تحسن تطرأ فى أحوال الرقيق، فقد كان المسيح عليه السلام وتلامذته يحضون الناس إلى أن يعاملوا الناس بما يحبون أن يعاملوا، وكانت الكنيسة فى الصدر الأول تحث على عتق الرقيق، بل إنها أتاحت الفرصة لهم للانخراط فى صفوف الرهبان، فيصيرون أحراراً حالما يدخلون الدير.

على أن هذه الأفكار المثالية لم تلبث أن فارقت الواقع فى عصور تالية، فصارت المساواة عند الكنيسة مساواة فى الروح أمام الله، أما الجسد فعليه أن يخضع لكل ذى سلطان. ولم يعترض القديس أوغسطين. ومن بعده القديس توما الأكوينى. على الرق، بل إنه كان يزكيه، ويردد مقولات أرسطو بكونه حالة طبيعية، أما القديس أيسيدور فكان يذهب إلى أن المسيحى باسترقاقه، يصير حسابه يسيراً يوم القيامة، لأنه خدم مولاه الذى فى السماء، مثلما خدم مولاه الذى فى الأرض.. وظلت هذه حال الكنيسة حتى القرن التاسع عشر.



وترتبط ظاهرة (أو مؤسسة الرق) بمجموعة من الظواهر (أو المؤسسات)، أولاها ظاهرة الخصاء، وهى ظاهرة نشأت نشأة مستقلة، فقد كان من الأحرار من يتم خصاؤهم لأسباب دينية (قمع الشهوة) أو عقابية (الزنى) إلا أن الكثرة الغالبة من الخصيان صاروا يتخذون فيما بعد من الرقيق. وكانت للخصاء طريقتان، طريقة «الجب» وهى قطع القضيب والانثيين، فيعرف الخصى بالمجبوب و«الوجر» أى سل الانثيين فقط، فيعرف الخصى بالموجور، وكانت توكل إلى المجابيب من الخصيان مهام حفظ النساء. وقد بلغت أعداد الخصيان فى بعض العصور مبلغاً كبيراً، فكانت بابل تدفع إلى فارس فى عهد إمبراطوريتها بخمسمائة من الخصيان فى كل عام.. وجدير بالذكر أنه مثلما برع اليهود فى تجارة الرقيق، فقد برعوا كذلك فى مهنة الخصاء.

ثانية هذه الظواهر هى ظاهرة القنانة، وكان يجرى أحياناً الخلط بين الظاهرتين للتشابه الواقع بينهما. ويختلف القن serf عن العبد slave بكونه يقع فى المنزلة بين المنزلتين العبودية والحرية، وهى حال تفرد بها غالب الفلاحين فى غالب

ارتبطت ظاهرة الرق بظاهرة الحجاب، فقد كان الأصل عند المرأة هو السفور، لكنه مع ظهور مؤسسة الرق وازدياد أعداد الأرقاء من النساء، أضحت هناك ضرورة للتمييز بينهن وبين الحرائر، فبدأت ظاهرة الحجاب

المجتمعات الزراعية.. وكان هؤلاء الأقنان يحوزون الأرض حيازة انتفاع من السيد، نظير رسوم ثابتة تؤدى عيناً أو نقداً، أو على هيئة خدمات، وللسيد حقوق أخرى على أقنانه لا تقابلها بالضرورة حقوق لهم تجاهه، وقد ظل هذا النظام موجوداً إلى أن انتهى فى غضون القرن التاسع عشر مع نهاية الرق.

ترتبط ظاهرة الرق كذلك بظاهرة العنصرية، وهى ظاهرة لم يعرفها الإنسان فى عصوره التاريخية المبكرة، لكنه مع تفشى الاسترقاق وازدياد أعداد الأرقاء صار يؤتى بهم أحياناً من بلاد بعيدة ومن أعراق غالباً ما تختلف عن أعراق الأحرار من السكان، وكتبرير لاستمرار هذه الظاهرة. ظاهرة الرق. بعد أن أضحت ضرورية فى مجتمع كالمجتمع اليونانى أو المجتمع الرومانى، صارت هناك علاقة عضوية أو تطابق بين مفهوم الأرقاء وبين مفهوم البرابرة (الأجانب) من حيث كونهم المستودع الذى يأتى منه الأرقاء.. وبذا لازمت العنصرية مؤسسة الرق، ثم عاشت بعدها، ولا نزال نحن نعانى من تبعاتها.

لا يخفى أيضاً ما جرى من ارتباط بين ظاهرة الرق وبين ظاهرة أخرى هى ظاهرة البغاء، وقد نشأت بدورها شأنها شأن الخصاء. نشأة مستقلة، وتتصل مثلها ببعض الممارسات الدينية القديمة (عاهرات المعبد) إلا أنه مع تنامى مؤسسة الرق صارت هذه المؤسسة رافداً، بل الرافد الأهم للبغاء، وزاد منها ما شاع فى بعض المجتمعات من امتهان للمرأة، حتى لو كانت حرة، وأضحى السادة يرغمون إماءهم على ممارسة البغاء كوسيلة لجلب المال، وكن عند العرب قبل الإسلام يضعن على أبواب بيوتهن رايات تيسر الوصول إليهن.

أفضت ظاهرة البغاء بدورها إلى ظاهرة أخرى، هى شيوع الترف والانحلال وتفشى علل اجتماعية وأدواء، كان لها أثرها المدمر فى بنية الحضارات القديمة، خصوصاً الحضارتين اليونانية والرومانية، وأعان على تفاقمها ما درجت عليه الحال من الركون إلى الرقيق فى مزاولة ما ينأى عنه الأحرار من أعمال، يقوم على أساسها المجتمع ورفاهة هذا المجتمع.

أخيراً فقد ارتبطت ظاهرة الرق بظاهرة الحجاب، فقد كان الأصل عند المرأة هو السفور، لكنه مع ظهور مؤسسة الرق وازدياد أعداد الأرقاء من النساء، وتحدد وضع بعضهن كسرائر أو حظايا، وتحدد وضع بعضهن الآخر كبغايا، أضحت هنالك ضرورة للتمييز بينهن وبين الحرائر، فبدأت ظاهرة الحجاب التى كانت قصراً عليهن (أى الحرائر) دون غيرهن. وربما كانت البداية الأولى للحجاب فى فارس، حيث ألزم الأرقاء من النساء بالسفور، كما ألزم الأرقاء من الرجال بحلق شعور رءوسهم وذقونهم وشواربهم، تمييزاً لهم جميعاً عن الأحرار.



ومع ما شاع من كون الرق حالاً مؤبدة، إلا أنه ظهرت فى لحظات بعينها ضوابط هيأت الفرصة لعتق الأرقاء أى تحريرهم، وأقدم تشريع تناهى إلينا فى هذا الشأن يعود إلى حمورابى الذى يقرر بأن أبناء السيد من أمته يعتقون مع أمهم عند موته، كما يتيح الفرصة للعبد لاتباع حريته، ويحدد استرقاق المدين بثلاث سنوات يطلق بعدها. ووصل العتق إلى مرحلة متقدمة فى مصر، إذ كان من حق الرقيق الذى يشكو من معاملة سيده أن يهرب منه، ويلوذ بأحد المعابد، فتتحقق له حريته، وأجاز العبرانيون تحرير العبد إذا أصابه سيده بعاهة، وإن ذهب البعض من فقهائهم إلى تحديد هذا المبدأ بالعبيد من العبرانيين دون سواهم.

عندما ظهرت المسيحية كانت تحض فى البداية على عتق الرقيق، خصوصاً من كانوا يدينون بها، لكنها لم تعد تكترث بهم فى عهد قوتها، بل إن البابا جريجورى الأول (أو الكبير) كان يمتلك أعداداً كبيرة من الرقيق يقدرهم البعض بالمئات.

عندما كان يتم تحرير الرقيق، فإنه كان ينتقل من مؤسسة الرق إلى مؤسسة أخرى هى مؤسسة الولاء، أى تصير له علاقة من نوع ما مع سيده السابق، فكان من واجبه أن يؤدى إليه بعض الخدمات، كما كان من حق هذا السيد أن يرده فى أحيان إلى حاله الأولى، حال الرق. وكان العتقاء فى بلاد اليونان لا يكتسبون حقوق المواطنة، وإنما يعاملون فى المدينة اليونانية معاملة الأجانب الغرباء.

لم تصبح ظاهرة العتق ظاهرة شائعة، فكان مقرراً على العبيد فى معظمهم أن يظلوا عبيداً مهما طال بهم الزمن.. لذلك بزغت فى فترة مبكرة ظاهرة إباقهم، وقد تصدت بابل لمواجهتها، فكان من المتوجب وضع علامات معينة على أجساد العبيد لإعاقة هربهم، كما أمر حمورابى بعقوبة القتل على من يؤوى أحداً من العبيد الآبقين.

ظاهرة الإباقة إذن كانت ظاهرة محدودة، وكان البديل عنها هو الثورة، ونعلم أن لها شروطاً من الواجب توافرها لقيامها ثم لنجاحها، وهو ما لم يتيسر فى معظم الأحوال، لذلك فليست لدينا معلومات عن ثورات قام بها العبيد فى حضارات الشرق القديم، لكن لدينا معلومات عن ثورات قاموا بها فى إيطاليا فى عهد الجمهورية الرومانية، أهمها الثورة التى تزعمها سبارتاكوس فى سنة ٧٠ ق. م. وبدأت شرارتها فى مدرسة من مدارس المجالدين بمدينة كبوا أسفرت عن هرب أعداد من العبيد، ولحق بهم إخوان لهم من أنحاء شبه الجزيرة، إلى أن وصلت هذه الأعداد إلى مائة وعشرين ألفاً.

قاد سبارتاكوس جموع العبيد، وزحف بهم شمالاً إلى جبال الألب، يحدوه الأمل فى إعادتهم إلى أوطانهم التى أتى بهم منها، لكنه وجدهم غير جادين فى تحقيق هذه





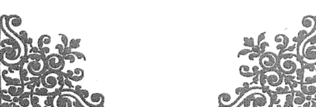
كتاب الزاوية

٣ - حياتى

أسباب ضعف المسلمين

تعرضت مرة وأنا فى السنة الثالثة لحادث خطير كاد يفصلنى من المدرسة التى لم أدخلها إلا بعد عناء. ذلك أنه أقيم سنة ١٩١٠ احتفال فى المدرسة لعيد رأس السنة الهجرية، وعهدت إلىّ لجنة الاحتفال اختيار موضوع، فاخترت «أسباب ضعف المسلمين» وبنيت محاضرتى على أن أسباب ضعفهم ترجع إلى شيئين رئيسيين: الأول فساد نظام الحكم فى البلاد الإسلامية وما جرّه ذلك من ظلم للرعية وعسف بحريتها، واستغلال الحكام لمالها وتسخيرهم قواها لملاذهم الشخصية، والثانى رجال الدين فقد شايعوا الحكومات الظالمة وأيدوها، وتآمروا معها وبثوا فى نفوس الشعب الرضا بالقضاء والقدر والاعتماد على نعيم الآخرة إذ حُرموا نعيم الدنيا. كل هذا أضعف من نفوس المسلمين وأذلهم وأنهك قواهم، ولا أمل فى صلاحهم إلا بصلاح رجال الحكومة ورجال الدين إلخ.

فلما أتممت الخطبة دوى المكان بالتصفيق، ولكن راعنى أن استدعانى عاطف بك إلى جانبه، وقال لى: هل جننت؟ أمثل هذا يقال؟ وطلب منى المحاضرة فسلمتها إليه ورأيته يسر إلى الشيخ الخضرى كلامًا، فيقوم يعقب علىّ ويقول إن المحاضر - بالطبع - يقصد الحكومات الماضية ورجال الدين الماضين، أما الحكومة الحاضرة فلا مأخذ عليها، وهى العادلة الحازمة، وهى التى رعت مدرسة القضاء وأنفقت عليها وعلمت طلبتها وغمرتهم بالخيرات، وأما رجال الدين اليوم فمثال للنزاهة والطهر والرقى.



الغاية، بل إنهم انصرفوا إلى أعمال السلب والنهب حيثما ذهبوا، دون هدف محدد يصبون إليه، مما اضطره إلى أن يعدل وجهته إلى الجنوب ليعبر البحر إلى صقلية وأفريقيا، وصمد أمام الهجمات التى شنها ضده القائد الرومانى كراسوس، وبعد أن توافت إلى هذا الأخير تعزيزات من القائد بومبى دارت معركة انتهت إلى هزيمة سبارتاكوس، وصلبه صحبة ستة آلاف من العبيد على طول الطريق من كبوا إلى روما.

وبعد.. فهذا عرض سريع لكتاب من الكتب المقتحمة.. لدينا بعده وقفة مع الكاتب، فقد نهج فى كتابه نهجًا مكانيًا، إذ يبدأ رحلته من اليابان فى أقصى المشرق، ويمضى منها إلى أقصى المغرب، وعليه فهو يجعل ما كتبه عن الرق عند العرب قبل الإسلام سابقًا لما كتبه عن الرق عند قدماء المصريين. وهذا نهج لا نحبذه، والأوفق منه أن يكون نهجًا زمانيًا يرتبط بالزمان أو موضوعيًا يرتبط بموضوعات الكتاب. ومع اعترافنا بكون اليابان ثم الصين حضارتين قديمتين، إلا أنه من المتفق عليه عند الجمهور أن بلاد الرافدين (العراق) ومصر هما الأقدم فى مجال الحضارة، لذا يكون من المنطقى أن يبدأ الكاتب بهما ثم يثنى بغيرهما مما أتى بعدهما.



ومع حرص الكاتب على معاودة مصادر أصلية ووثائق تتصل بموضوعه، إلا أنه كان ينقل مادته فى أحيان من مراجع حديثة (راجع على سبيل المثال الصفحات ٧٨، ٩٧، ٩٨، ١٢٣، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٦، ١٨٩) ربما نهج أصحابها فى تعاملهم مع مقتبساتهم من الأصول نهجًا انتقائيًا، يأخذون ما يتواءم مع أفكارهم المسبقة وانتماءاتهم ويتركون ما عداه.

الكاتب.. إلى ذلك يتطرق إلى موضوعات معينة، استغرقت مساحات واسعة من كتابه، وكان الأجدى له أن يأتى عليها باختصار، أو أن يشير إليها من بعيد، فموضوعنا هو الرق بالمعنى الفنى الدقيق لهذا المصطلح، وهذه الموضوعات وإن تقاطعت فى أحيان مع موضوعه، إلا أنها بذاتها موضوعات مستقلة، مثل الزواج والطلاق والمرأة والأسرة وطبقات المجتمع وأمراضه من تمييز واضطهاد دينى وبغاء واغتصاب ولواط وما إلى ذلك. وإذا سار المؤلف على هذا النهج فى السفر الثانى من كتابه، لاتسع موضوعه ليشمل الاستعمار الذى هو فى جوهره استغلال الإنسان للإنسان، مثلما الرق هو استغلال الإنسان للإنسان.

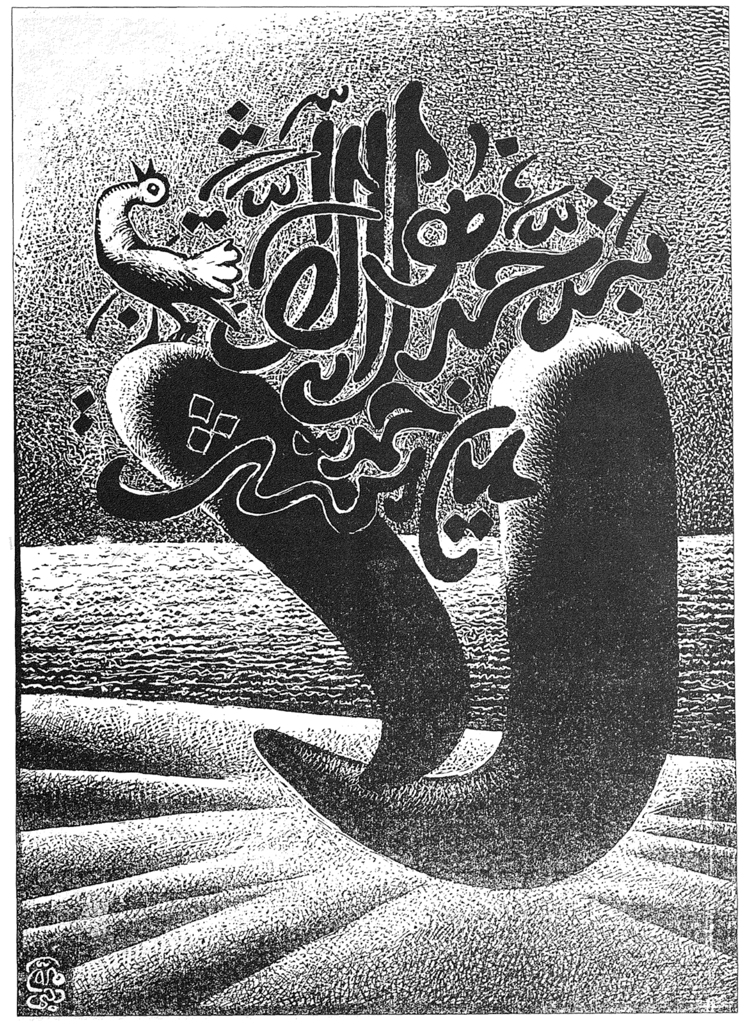
يتعسف المؤلف أحيانًا فيأتى بظواهر، لا ندرى مدى علاقتها بظاهرة الرق، مثل قتل بعض خاصة الملك لدى موته فى بلاد الصين، وحرق المرأة لدى موت زوجها فى بلاد الهند، ووأد البنات فى بلاد العرب قبل الإسلام، فالظاهرتان الأولى والثانية مصدرهما عقائد دينية، والظاهرة الأخيرة مصدرها الفقر ومغبة العار، ولا علاقة مباشرة بين هذه الظواهر وظاهرة الرق.

لدينا ملاحظة أخرى تختص بموارد المؤلف من تشريعات ومجموعات قانونية، ومع أن التشريع لا ينفصل عن المجتمع الذى أنتجه، خصوصًا إذا ما كان تطورًا لأعراف سادت قبله، إلا أن التشريعات شأنها شأن الفقه، تعبر فى المحل الأول عما كان يجب أن يكون من وجهة نظر واضعيها، ولا تعبر بالضرورة عما كان كائنًا بالفعل، لذا كان من الواجب على المؤلف أن يقتصد فى اعتماده على التشريعات، أو أن يدعم ما انتهت إليه هذه التشريعات بمواد وردت فى المصادر التاريخية المتاحة، وهو ما نحا إليه فى أحيان وعدل عنه فى أحيان.

ولا ندرى لماذا لم يعاود المؤلف الأعمال الأدبية التى تنتمى إلى المرحلة التى يؤرخ لها، فالأدب. لا مشاحة. مورد مهم من موارد التاريخ، وكان فى إمكانه أن يجد فى الأدب اليونانى وفى غيره من آداب الأمم القديمة مادة وافرة تفيده فى موضوعه.

أخيرًا ينسى الكاتب سببًا مهمًا لاستكانة الرقيق فى غالبهم، وعدولهم عن الإباقة وعدولهم كذلك عن الثورة.. هذا السبب يكمن فى أن الرقيق وقبل أى شىء إنسان، والإنسان. أى إنسان. لديه ميل فطرى إلى الانتماء. ولما كان الرقيق فى غالب الأحوال قد اقتلع من وطنه صبيًا صغيرًا، أو ولد فى الأسر خارج هذا الوطن، فإنه لا يعرف وطنًا غير وطن سيده، وأيًا كانت المعاملة التى يتلقاها منه، أى من سيده، فإنه كان يشعر على نحو أو آخر بأن لا بديل له عنه، بل إنه عندما يتم تحريره، فعادة ما كان يتقبل علاقة الولاء برحابة صدر، انطلاقًا من هذا الميل الفطرى إلى الانتماء. وفى التاريخ حكايات عن وفاء العبيد (ثم الموالى) لسادتهم أكثر من حكاياته عن غدرهم بهم ونكولهم عنهم.

تحية لكاتبنا فى سفر كتابه الأول، وأملاً متجددًا فى سفر كتابه الثانى. ■



فاروق شوشة

هل هانت علينا لغتنا الجميلة؟

شهادتان ونبوءتان

■ هل كان شاعر النيل «حافظ إبراهيم (١٨٧٢ ـ ١٩٣٢) يستقرئ المستقبل، ويرى بعين الغيب ما سوف يحدث بعد مائة عام، عندما نشر فى عام ١٩٠٣ قصيدته «اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها»، مقدمًا شهادته على واقع هذه اللغة، وما أصابها من ضعف وهوان على ألسنة أهلها وأقلامهم، وعينه على لغة الصحافة أو الجرائد ـ بحسب تعبيره ـ وما امتلأت به من «مزالق»، وكيف سرت «لوثة الإفرنج» فى اللغة المرقعة التى كان يستعملها الناس فى زمانه، مستهل القرن العشرين؟ وهل كان على حق فى كل انتقاداته، وفى غضبته الهائلة وهو يقول:

رجعت لنفسى فاتهمت حَصَاتى[1]
وناديت قومى، فاحتسبتُ حياتى[2]
رمونى بعقم فى الشباب، وليتنى
عقمتُ فلم أجزع لقول عداتى[3]
ولدتُ، ولّما لم أجد لعرائسى
رجالاً وأكفاءً وأدتُ بناتى
وسعتُ كتاب الله لفظًا وغاية
وما ضقتُ عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصفِ آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات؟

ثم يجئ بيته الجميل، المحكم الصياغة، الذى اتخذته شعارًا لبرنامج «لغتنا الجميلة» منذ سبعة وثلاثين عامًا:

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى؟

وفى الديوان أيضًا: فهل سألوا بدلاً من فهل ساءلوا

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى
ومنكم إن عزّ الدواءُ أُساتى[4]
فلا تكلونى للزمان فإننى
أخاف عليكم أن تحين وفاتى
أرى لرجال الغرب عزًا ومنعةً[5]
وكم عزّ أقوام بعز لغاتِ
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننًا
فيا ليتكم تأتون بالكلمات

حتى نصل إلى قوله وهو يشخص الواقع السيئ والحال المتدنية للغة العربية فى زمانه:

أرى كل يوم بالجرائد مزلقًا[6]
من القبر يدنينى بغير أناة[7]
وأسمع للكتاب فى مصر ضجةً
فأعلم أن الصائحين نُعاتى[8]
أيهجرنى قومى ـ عفا الله عنهمو ـ
إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة[9] الإفرنج فيها كما سرى
لعابُ الأفاعى[10] فى مسيل فرات[11]
فجاءت كثوب ضم سبعين رُقعةً
مُشكّلة الألوان مُختلفات

ثم يتجه حافظ إبراهيم بندائه الأخير ـ من أجل إنقاذ اللغة وبعثها من مواتها ـ إلى معشر الكتاب وإلى الجمع الحافل أى المجتمع كله، قائلاً:

إلى معشر الكتاب والجمع حافل
بسطت رجائى بعد بسْط سكاتى
فإما حياة تبعث الميت فى البلى
وتنبتُ فى تلك الرموس[12] رُفاتى
وإما ممات لا قيامة بعده
ممات لعَمرى لم يُقس بممات

ولم يقتصر الأمر ـ فى التنبيه والتحذير والالتفات إلى واقع اللغة العربية ـ على صيحة شاعر النيل حافظ إبراهيم، فقد دخل معركة اللغة العربية شاعر القطرين خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩) بعد أكثر من عقدين من الزمان، من خلال نصين شعريين أولهما يحمل عنوان: «عتب اللغة العربية على أهلها، وقد آثروا عليها اللغات الأخرى، إنها تستجير بالدكتور «طه حسين بك».

يقول مطران متحدثًا باسم اللغة العربية كما فعل حافظ إبراهيم:

سمعت بأذن قلبى صوت عتب
له رقراق دمعٍ مُستهلِّ
تقول لأهلها الفصحى: أعدل
بريكمو اغترابى بين أهلى
ألست أنا التى بدمى وروحى
غذت منهم، وأنمت كل طفل
أنا العربية المشهودُ فضلى
أأغدو اليوم، والمغمور فضلى؟
إذا ما القوم باللغة استخفوا
فضاعت، ما مصير القوم؟ قُلّ لى
وما دعوى اتحاد فى بلاد
وما دعوى ذمّار[13] مُستقلٍّ
فساد القول فيه دليلُ عجزٍ
فهل معه يكون صلاح فعلٍ؟
بُنيات الحمى أنتن نسلى
فإن تُنكرننى أتكنّ نسلى؟
ويا فتيانه إن أخطأتنى
ميرتكم، فإن الثكل ثُكلى
يُحاربنى الأولى[14] جحدوا جميلى
ولم تردعهمو حُرسات أصلى
وفى القرآن إعجاز تجلت
حلاى[15] بنوره أسنى تجلٍّ
وللعلماء والأدباء، فيما
نأت غاياته مَهدت سُبلى
إذا ما كان فى كلمى صعابٌ
فلا تأخذ كثيرى بالأقل
وهل لغة قديمًا أو حديثًا
تعد بوفرة الحسنات مثلى؟

ويغير مطران من قناعه الشعرى متحدثًا بأم اللغات العربية ليصبح صوتًا ثانيًا يخاطب اللغة، ويطمئنها إلى أبنائها الميامين الذين يهبون لنصرتها والحفاظ عليها، وفى طليعتهم «طه» أى الدكتور طه حسين الذى يضربه مثالاً لمهيئى النهضة وباعثى الروح فى شباب العصر. يقول مطران:

فيا أم اللغات عداك منّا
عقوق مَساءة وعقوق جهل
لكِ العودُ الحميدُ، فأنت شمسٌ
ولم يحجب شعاعَكِ غيرُ ظلِّ
دعوت فهب من شتى النواحى
ميامين أولو[16] حزم ونبل
برأى فيك يكفل أن تردى
مُكرَّمةً إلى أسمى تحلِّ
يُنور شعرهم فى كل واد
ويزهر نثرهم فى كل حقلِ
و«طه» فى طليعة من أجابوا
يهيئ نهضةً فى المُستهلِّ
بموفوريه[17]: من أدب وفن
ومذخوريه[18] من عقل ونقل
يفيض كما يفيض النيل خصبًا
ويحيى الحرثَ فى حزن[19] وسهلِ
ويبعث فى شباب العصر رُوحًا
هو الروح الذى يبنى ويُعلى
إذا ما حاول الفرسان جلّى[20]
وخلف شقة[21] دون المُصلى[22]
فكيف به إذا ماشن حربًا
على بدع[23] الضلول أو المُضلِّ

فما الذى أراده هذان الشاعران الكبيران؟ وهل هاتان الشهادتان مقبولتان على علتيهما؟

من الواضح أنهما متفقان على ما يمكن تسميته باغتراب اللغة أو غربة اللغة بين أهلها ـ الأمر الذى يذكرنا بقول المتنبى ـ شاعر العربية الأكبر ـ فى وصف حاله وهو يخترق شعب بوان فى بلاد فارس.

ولكن الفتى العربى فيها
غريب الوجه واليد واللسان

هذه الغربة التى يحذر منها الشاعران مصدرها شيوع كلمات أجنبية فى جسم اللغة العربية، أو ثوبها كما قال حافظ. وهى بالتأكيد ألفاظ الحضارة الحديثة أو ألفاظ الحياة العامة ومصطلحات العلوم التى لم يكن من استخدامها بُد حين يتعذر المقابل العربى. وحافظ يركز على لغة الجرائد باعتبارها «المزلق» ومنطقة السقوط والزلل، فى شيوع هذه الكلمات ودورانها فى الاستعمال. وهو يطلق على الظاهرة «لوثة الإفرنج»، ولو كان بيننا الآن لوجدها ـ أى الظاهرة ـ أوسع شيوعًا وأكثر ترددًا وانتشارًا، نتيجة لانفجار المعرفة وحلول عصر العلم، وامتلاء الصحف ـ وأجهزة الإعلام جميعًا ـ بالجديد من الكلمات والمصطلحات والتعابير.

ومادامت اللغة قد اتسعت للبيان القرآنى وإعجازه، فهى ـ فى رأيه ـ غير عاجزة عن وصف الآلات وتنسيق الأسماء للمخترعات. ونسى حافظ، كما نسينا نحن، أننا لن نفرض أسماءنا على هذه المخترعات إلا إذا كانت من صنعنا وابتكارنا نحن. وما دمنا لا نخترع شيئًا، ولا نضيف إلى كتاب العلم المعاصر شيئًا ـ كما أضاف السلف العظيم فى الماضى ـ فستبقى مشكلات تعريب ألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم قائمة حتى يوم القيامة!

بينما يبدو شاعر القطرين خليل مطران، أكثر وعيًا وإدراكًا لحقيقة تطور اللغة، وتغير معجمها، واتساعها لنهضة مواتية يصنعها أبناؤها الميامين من الكتاب والمبدعين. وحين يضرب مثلاً بالدكتور طه حسين، فإنه يكشف عن نزعته المستقبلية، وعن ثقته فى أمثال طه، من أنهم ـ وهم أصحاب الأساليب ـ هم الذين يطورون اللغة ويُحيونها، متكئين على ثقافة تراثية أصيلة مستنيرة هى ثقافة النقل، ووعى عصرى منفتح على تطور المجتمعات والأمم وثقافات الآخرين هو وعى العقل، وبالنقل والعقل معًا يتحقق مشروع النهضة اللغوى كما يراه مطران. ولا شك أن ثقافة مطران الغربية ـ والفرنسية على وجه الخصوص ـ كانت وراء نظرته المتقدمة كثيرًا على نظرة حافظ، وإن كان حافظ يظل صاحب الطلقة الأولى، والتحذير

الأول، الذى سار فى غباره كثيرون فى طليعتهم مطران.

ويُفصح مطران عن توجهه التجديدى فى النظرة إلى اللغة، وعن نزعته إلى التطوير والتحديث، فى مناسبة شعرية أخرى، يكشف فيها عن جملة رأيه فى وضوح ساطع وتحديد قاطع حين يقول تحت عنوان: «فى تقدم اللغة العربية والعيب فى الجحود»:

ماذا يريد من الحقيقة مُسقط
تكليفها عن نفسه بتوهم
ماذا يريد من المعالى نائم
والنجم مزدهر لغير النومِ
لنعش معاش زماننا، ولننتهز
فُرص النجاح نفُز به أو نَسلمِ
لن ترجع العربية الفصحى إلى
ما كان منها فى الزمان الأقدمِ
ما لم يعد ذاك الزمان وأهله
والعاد والأخلاق حتى جُرهمِ
للجاهلى لسانُه، ومن الذى
ينقى من الفصحى لسان مُخضرم؟
إن التجدد للسان حياته
ومن الذى يحييه غير المُقدمِ؟
فى عصرنا للضاد فتح باهر
فريدت به فخراً، فهل من مأثم؟
من فَرق الأخوين يستبقان من
طُرق لرفعتها أليس بمجرم؟



هنا مطران العصرى، الذى يطلق شعار: لنعش معاش زماننا، مذكراً بأن للجاهلى لسانه ولنا ـ نحن أيضاً ـ لساننا وكأنه يصنع صنيع بعض اللغويين المعاصرين وهم يفرقون فى مستويات الفصحى بين مستويين رئيسيين، تراثى، مثله الأعلى فى الماضى، وصفاته صفات الفصحى التقليدية القديمة، وعصرى أو معاصرة مثله الأعلى فى المستقبل، وصفاته متجددة لأن التجدد للسان حياته . فى رأى مطران . الذى يرى أن عصره عصر فتح باهر للضاد، فريدت به فخراً، فمن الذى يُؤثم هذا الازدهار أو يعترض عليه؟

المبدعون هم صُناع اللغة:

فى سياق هاتين الشهادتين وهاتين النبوءتين لشاعرين كبيرين ومبدعين عظيمى المكانة والتأثير. والمبدعون هم صُناع اللغة الحقيقيون لا علماء اللغة. نجد شهادات متتابعة للدكتور طه حسين نفسه، الذى اعتبره مطران نموذجاً



هل هانت علينا لغتنا الجميلة؟

وقدوة، وهو يتحدث عن الأدب العربى. إبداع اللغة العربية الحقيقى. وعن خصائصه وسماته وما ينبغى له حتى يستمر فى محافظته على هذه الخصائص والسمات حين يقول: «فأدبنا العربى لا يُهمل الأسماع إهمالاً قليلاً أو كثيراً، وإنما يُعنى بها أشد العناية، فهو أدب منطوق مسموع قبل أن يكون أدباً مكتوباً مقروءاً. وهو من أجل هذا حريص على أن يلذ اللسان حين ينطق به، ويلذ الأذن حين تسمع له، ثم يلذ بعد ذلك النفوس والأفئدة حين تُصغى إليه»[24].

ثم يضيف الدكتور طه حسين:

«وليس أدل على ذلك من أن العرب فى جميع عصورهم لم يعنوا بشىء قط عنايتهم بفصاحة اللفظ وجزالته، ورقة الأسلوب ورصانته. وقد جعلوا الإعراب واصطفاء اللفظ والملاءمة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الذى ييسر على اللسان نطقه، ويزين فى الأذن وقعه، أساساً لكل هذه الخصال».

وتستوقف العالم اللغوى الدكتور إبراهيم أنيس. رائد الدراسات اللغوية الحديثة. ظاهرة «الجرس» فى اللغة، واهتمام القدماء بها، وحرصهم عليها فى إطار عنايتهم بموسيقى الكلام، فيقدم تفسيراً هو بمثابة شهادته فى كتابه «دلالة الألفاظ» حين يقول: «عنى العرب القدماء بموسيقية الكلام، لأنهم لم يكونوا أهل كتابة وقراءة، بل أهل سماع وإنشاد. والموسيقى لازمة لمن يصغى فيحسن الإصغاء، أو ينشد فيحسن الإنشاد ويستحوذ على الأسماع. فهى إذن لغة أذن وليست لغة عين. ولغة الأذن تخاطب دائماً الجوانب الموسيقية فى النفس وتعتمد على الجرس: جرس الكلمة واللفظة، وجرس الجملة أو العبارة. ومن هنا كانت المحسنات اللفظية والبديعية، وكان السجع: السجع اللفظى والسجع الذهنى، فى مجتمع تسوده الأمية، وينتقل فيه التراث من جيل إلى جيل بالرواية والرواة.

والدكتور إبراهيم أنيس يسوق أمثلة من بين شعراء تراثنا العربى لمن تجسدت فى إنتاجهم هذه الخاصية الموسيقية فيقدم تحليلاً لشعر الأعشى (صناجة العرب) وأبى العلاء المعرى (صاحب اللزوميات). ثم يؤكد أن الذين حرموا نعمة الإبصار من الأدباء والشعراء يكونون عادة أكثر اهتماماً بإبراز الجوانب الموسيقية. فهم يعنون بجرس الألفاظ ووقعها الموسيقى، وكثيراً ما تشغلهم موسيقى الكلام عن مراميه وأهدافه، فيغمرون المعنى القليل بفيض من الألفاظ والعبارات المتكررة ذات المعنى الواحد أو المتشابه فى الدلالة».

ولم يكن أديبنا الكبير يحيى حقى بعيداً عن هذا كله، وهو يطلق دعوته المدوية فى كتابه «خطوات فى النقد» عن «حاجتنا إلى أسلوب جديد»، منادياً بما أسماه بالأسلوب العلمى الذى يعتمد على تحديد المعانى، ومن ثم اختيار ألفاظ محددة لها. ألفاظ حتمية، بحيث لا يكون المكان صالحاً إلا للفظ واحد، ويتعذر أن يُستبدل به لفظ آخر. فإذا فعلنا ذلك أزلنا دفعة واحدة. عن أسلوبنا. كل علل الزيف والتبرج الفارغ والتزويق الذى لا طائل تحته».

وفى رأى يحيى حقى أنه متى تحددت الألفاظ وأصبحت حتمية، زال الاستطراد، وعيب الإضافة، ومال الأسلوب إلى الجمل القصيرة التى ترتبط برباط ذهنى لا لفظى، فتقل بذلك الزيادات. وهى عوائق لا داعى لها . من كثرة حروف العطف فإن سير الذهن فى الأدب ليس خطواً متتابعاً رتيباً. بل هو توثب يفرض على ذهن القارئ توثباً مثله يخرجه من سكون إلى حركة، وسنخرج أيضاً من الإطالة والإفاضة إلى الإيجاز النبيل الكريم، وهو سر البلاغة فى العربية.

ويحيى حقى. فى هذه الشهادة العميقة الوعى والاستنارة. يؤكد أنه لا يقصد بهذا الكلام الأسلوب التلغرافى الذى نادى به آخرون (منهم سلامة موسى)، بل هو يتكلم عن الأسلوب الأدبى، الجمال من شروطه الأساسية التى لا غنى عنها، ولا يوجد فن بلا صنعة.

ثم هو لا ينكر موسيقية الأسلوب، إنه على العكس يتمسك بها، ويحرص عليها حرصاً شديداً. لكنه يقصد بها الموسيقى الهارمونية لا موسيقى الدفوف التى تعزف لحناً واحداً، هذه الموسيقى الهارمونية لها إيقاعات مختلفة لكل مجال فى النص الواحد، متشابكة، ولا يتمشى فيها من أولها إلى آخرها لحنها الأساسى الأوحد المتعدد الألوان، بحيث تستمد موسيقى الأسلوب لا من الأثر البدائى الآلى الذى يولد ويموت عند التلفظ بالكلمات والانبهار بأول رنينها، بل تستمد من روح الكاتب أو الشاعر من نفسه ومزاجه وشعوره، وفيضه وانطلاقه، هى موسيقى تسمو عن الأثر الساذج الفقير البسيط إلى لحن غنى أعمق متشابك، ينشأ بالتأمل الشامل والصبر، ستكون هذه الموسيقى فى حقيقة الأمر، وليس الألفاظ. مهما حذفت. المعبرة عن المعانى.

لقد جاءت دعوة يحيى حقى إلى



نسى حافظ، كما نسينا نحن، أننا لن نفرض أسماءنا على هذه المخترعات إلا إذا كانت من صنعنا وابتكارنا. وما دمنا لا نخترع شيئاً، فستبقى مشكلات تعريب ألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم قائمة حتى يوم القيامة!



أسلوب جديد، مستندة إلى ركائز أساسية في رأيه، هي التحديد والحتمية والعمق، في مواجهة ظواهر مرضية شائعة، هي الميوعة والسطحية والسذاجة. وهي بعض أمراض هذا الزمان، وبعض الظواهر السلبية في واقعنا اللغوي الآن.

في هذا السياق أيضًا، وهو سياق حافل، يأتي الهجوم الذي نشرته مجلة ديوجين مصباح الفكر التي تصدرها مجلة رسالة اليونسكو ومركز مطبوعاته (عدد ٥ مايو سنة ١٩٧٤) في صورة بحث للأستاذ أنطوان مطر عنوانه: «اللغة العربية والظروف الحاضرة، وما ينتظر تحقيقه من آمال، في مستقبل عالم المتكلمين بها». وقد ترجم هذا البحث إلى العربية الأستاذ علي أدهم.

والاهتمام بهذا البحث وما يثيره من قضايا، من شأنه أن يكمل صورة اللغة العربية. في عيون الكتاب والأدباء والباحثين والمبدعين واللغويين. ويضيف إلى الشهادات السابقة وثيقة حافلة بالانتقادات والسلبيات. فالباحث. أنطون مطر. يرى أن اللغة العربية ليست لغة حديثة، وهي لا تستطيع بحالتها الراهنة أن تستخدم باعتبارها وسيلة صالحة لثقافة تقدمية إنسانية، إلا بطريقة تعسفية. وأن الإعلام الجماهيري. مثل الإذاعة والصحافة. قد أنقذها. في تردد وجزئيًا. من جمودها. وذلك بأن أرغمها على قبول تطور إيجابي ولكنه ليس كافيًا، لأنه لا يؤثر إلا في القليل، في بعض ألوان الإنتاج الأدبي مع استبعاد المجالات العلمية والتقنية.

ويقدم البحث أسبابًا لعدم إمكان استعمال العربية، وهي أن لها طابعًا دينيًا، وأنه ليس للعرب لغة قومية علمانية، وأن العربية مرتبطة بالقديم فكأنها للتعبير عن التاريخ، وأن التطور الاجتماعي تجاوز العالم العربي. وهو يبني على هذا أن العربية قد حرمت المصطلحات الفنية اللازمة لتقدمها، وأن وسائل الاتصال بالتقدمية الحديثة لا تتأتى في مجتمع يكتب لغة لا يتحدث بها، أو يتكلم بعدة لهجات تنشأ عن لغات قومية لا تُكتب.

ومن أخطر ما يقدمه هذا البحث الانتقادي الهجومي إحصائية لليونسكو، يبين جدولها أن نسبة الإنتاج العلمي في الإنجليزية ٢٢٪ وفي الفرنسية ٩٪ وما انخفض عنها موزع بين الإيطالية والإسبانية والصينية والإسكندنافية. فأما الإنتاج العربي فليس بشيء تقريبًا، والعربية ليست ذات إنتاج علمي له قيمة في كل علم نظري وتطبيقي وعلم اجتماعي بسبب بطء تقدمها.

نعيبُ لغتنا والعيبُ فينا

السهام. إذن. تنهال على اللغة العربية من أبنائها وأعدائها معًا. أما الأعداء فموقفهم معروف ومفهوم. لكن أبناء العربية وموقفهم من لغتهم الأم، أمر يدعو إلى الدهشة والاستغراب. إذ يبدو أنهم لم يسمعوا بقول الشاعر القديم: نعيب زماننا والعيب فينا، وما لزماننا عيب سوانا، وعلى غراره يقال: نعيب لغتنا والعيب فينا. أما هذا العيب فأسبابه شتى وتجلياته لا تخطئها العين. نحن. أولًا. لم نقض على عار الأمية، لا في مصر، ولا في كثير من المجتمعات العربية، بالرغم من أن برامج مكافحة الأمية تعود إلى أربعينيات القرن الماضي في مصر. وبالرغم مما تدعيه الدولة. ممثلة في وزارة المعارف أو التربية والتعليم أو التعليم (أيًا كانت التسمية) فإن الأمية لاتزال عارًا وطنيًا وقوميًا. ولاتزال نسبة التسرب من التعليم الأساسي فادحة، وعجز المدارس عن استيعاب من يسمون بالملزمين في مراحل التعليم الأولى قائمًا، بل إن هذا العجز في تزايد، بالرغم من الإعلان المستمر عن خطط عاجلة لبناء مدارس جديدة. كيف نتوقع إذن وجودًا حيًا للغة العربية، واحترامًا لها واهتمامًا بها في مجتمع يضم هذه الكثرة من الأميين؟

هذا عن «الأمية» بمعناها الشائع البسيط، أمية القراءة والكتابة فما بالنا بأمية ثقافية، ينتجها تعليم لا يؤدي إلى التثقيف ولا يحض عليه، لا يشجع على القراءة ولا يعتبرها مقومًا أساسيًا من مقوماته. وغاية ما يُحدثه مثل هذا التعليم. نتيجة لمناهجه وكتبه وطرق تدريسه ونوعية مدرسيه ومستوى إعدادهم وسوء اختيار نصوصه وموضوعاته. غاية ما يحدثه هذا النفور الذي نلمسه لدى النشء المتعلم من كل ما يتصل بالعربية من قريب أو بعيد، والانقطاع عن القراءة بالعربية، وإيثار القراءة بغيرها. إن أمكن. والرطانة. على سبيل التباهي. ببعض ما علق باللسان من مفردات هذه اللغة الأجنبية أو تلك. لن أشير بالطبع إلى مستوى ثالث من الأمية، هو ما يتصل الآن، بالعجز عن استخدام الكمبيوتر وشبكة الإنترنت، والدخول إلى عصر المعلوماتية والاتصال بمجالات المعرفة العالمية.

هي إذن مستويات ثلاثة من الأمية، لا ندعي. حتى الآن. أننا انتهينا من عار مستواها الأول، وتفرغنا لمستوييها الثقافي والمعلوماتي، وهو عار يمتد بنا ويلقي ظلاله على تعليم العلوم في الجامعة، والعجز عن تعليمها بالعربية، كما فعلت كل الدول الحريصة على لغتها القومية، لأنها لغة الفكر، ولغة التعبير ولغة الإنجاز والإضافة في مجال المعرفة الإنسانية وبدون تعليم العلوم وتعلمها بالعربية، ستبقى هذه الثنائية التي تعوق علاقتنا الحقيقية بالعلم، لأننا نقرأ ونتكلم فيه بلغة، ونفكر فيه بلغة، ونعبر المسافة بين اللغتين. في عقولنا. عن طريق ترجمة ركيكة، تقرب إلينا الأشياء، بشكل سطحي وهامشي، ولا تجعلنا في قلب لغة العلم الحقيقية، التي لابد أن تكون لغتنا القومية، التي نحسن امتلاكها، والإبداع بها، في كل مجال.



ونتطلع إلى ما حولنا في كل موقع. العاميات واللهجات المحلية تسعف الناس في قضاء مصالحهم دون حاجة إلى «عنت» استخدام العربية الصحيحة. يحدث هذا في الوزارات والمؤسسات والشركات والمصالح الحكومية وفي شئون الإدارة المحلية والأجهزة الشعبية. لا يتوقف أحد أمام لغة هابطة، أو استعمال خاطئ أو تعبير غير مناسب. واللغة التي أشاعها العسكريون في مصر وفي كثير من البلدان العربية. منذ عام ١٩٥٢. لغة هشة حافلة بالأخطاء اللغوية والصرفية والصوتية. فضلًا عن جعل العامية واللهجات المحلية. لغة للخطاب الرسمي، في خطب الرؤساء والوزراء وكبار المسئولين، في المواقف التي لم يكن يسمع فيها. فيما مضى. غير صوت العربية الصحيحة، في أرقى صورها وأجمل مستوياتها، يوم كانت خطب الزعماء وكلماتهم وتصريحاتهم، ولغة القضاء والمحاماة، ولغة الكتاب والأدباء، ولغة الغناء والتمثيل. في السينما والمسرح. لغة عالية المستوى، لا تهبط أبدًا إلى العامية المبتذلة أو السوقية، لأن الحرص على اللغة، والاهتمام بتجويدها، كانا من سمات الشخصية المصرية. المؤثرة في الحياة العامة، والتي يُنظر إليها. دومًا. باعتبارها القدوة والمثال.

اعتماد «العامية» و«اللهجات المحلية» لغة خطاب وطني وقومي، في المجالات السياسية والاجتماعية والأدبية والفنية، أدى إلى منزلق خطير في المستوى المتداول من اللغة، وهو مستوى عامية الأميين، ولغة السيم، التي تزحف بفجاجتها على الألسنة والأقلام، وتمتلئ بها حناجر المغنين، الذين يرددون كتابات نوعية «أمية» من مؤلفي الأغاني، أمية الوجدان والتثقيف والتكوين، وتصدمنا ونحن نستمع إليها في الأفلام والمسرحيات والمسلسلات والإعلانات، باعتبارها فتحًا لغويًا يواكب العصر، وهو في حقيقته فتح لأبواب التدني والهبوط، لا يعبر إلا عن عصر يفتقد نخوة الكبرياء، والشعور الأصيل بالكرامة، فأدى به الهوان إلى هوان لغته، والتندر والسخرية مما كان. ذات يوم. نماذج رفيعة سامقة في الشعر العربي والغناء العربي والفن العربي.

ونتطلع إلى ما حولنا أكثر وأكثر. التسميات الأجنبية تلاحقنا في كل خطوة وفي كل مكان: المحلات، الفنادق، الشركات، المؤسسات، القرى السياحية، أماكن اللهو والمتعة، البرامج في الإذاعات والتليفزيونات، كلها ترتدي زيًا أجنبيًا وتختفي تحت اسم أجنبي، إمعانًا في الرقي والتقدم وجلبًا للوجاهة والمستوى الأرفع، والمسألة في حقيقتها إحساس بالدونية، والنقص، والتخلف. ورغبة عارمة في التزيي بزي الآخرين، لعلنا نصبح منهم، أو شبيهين بهم، أو أقرب ما نكون إلى رغباتهم وتوجهاتهم. ونسينا أن هؤلاء. الذين نقلدهم. عندما يأتون إلى بلادنا، فإن

لم يكن أديبنا الكبير يحيى حقي بعيداً عن هذا كله، وهو يطلق دعوته المدوية في كتابه «خطوات في النقد» عن «حاجتنا إلى أسلوب جديد» منادياً بما أسماه بالأسلوب العلمي الذي يعتمد على تحديد المعاني، ومن ثم اختيار ألفاظ محددة لها





٤ - حياتى

النشوء والارتقاء

شغفت أيامًا بنظرية النشوء، والارتقاء لدارون، فقرأت فيها كتب شبلى شميل بالعربية، وبعض الكتب الإنجليزية التى تعرض للموضوع عرضًا مبسطًا. وأعددت محاضرتين فيهما ألقيتهما على طلبة مدرسة القضاء وبعض أساتذتها وبحضور ناظرها وكانت إحدى المحاضرتين فى معنى مذهب النشوء وما يرمى إليه، والثانية فى تطبيق نظرية النشوء على الأخلاق، كما اتجه إلى ذلك سبنسر وغيره، وأحدثت هاتان المحاضرتان دويًا: كيف يلقى مثل هذا الموضوع على طلبة القضاء الشرعى؟ وكان من نتيجته أن أرسل شيخ الجامع الأزهر إلى ناظر المدرسة يسأله: كيف أباح لمدرس فى المدرسة أن يلقى محاضرات فى مذهب الزنديق دارون؟ فأهمل الناظر السؤال ولم يرد عليه.

.. وقد أثر فىّ عاطف بركات ناظر المدرسة أثرًا كبيرًا من ناحية تحكيم العقل فى الدين، فقد كنت إلى هذا العهد أحكم العواطف لا العقل، ولا أسمح لنفسى بالجدل العقلى فى مثل هذه الموضوعات، فالدين فوق العقل، فإن جاء فيه ما لا يدركه العقل آمنا به، لأن علم الله فوق علمنا، وهو أعلم بما يصلحنا وما يضرنا، وهو يأبى إلا تحكيم العقل والبحث عما لا نفهم حتى نفهم، وكان له غرام بالبحث، وصبر على الجدل، وطول نفس فى المناقشة.. كان من أثر هذا الجدل الدينى أنى أعملت عقلى فى تفاصيل الدين وجزئياته، أما جوهر الدين من إيمان الله وجلاله وعظيم قدرته فظل ساكنًا فى أعماق قلبى لم ينل منه أى جدل ولم يتأثر بأى قراءة، وكل ما فى الأمر أنى صرت أكثر تسامحًا مع المخالفين، وأوسع صدرًا للمعارضين.



هل هانت علينا لغتنا الجميلة؟

عيونهم تتجه. أول ما تتجه. إلى الحسين والأزهر وخان الخليلى والفيشاوى والغورية والقلعة والآثار الفرعونية والقبطية والإسلامية والمملوكية وغيرها، لأنهم يريدون حقيقة مصر، لا الوجه الزائف المستعار الذى يفتّن فى صنعه أبناء الطبقة الجديدة من المستثمرين وأصحاب المشاريع. المتأوربين والمتأمركين . الذين يستخدمون قُبعة «لغوية، تلائم هذه النزعة المنافية لهوية مصر وروحها وميراثها الحضارى عبر العصور.

الوقفة القومية ضرورة:

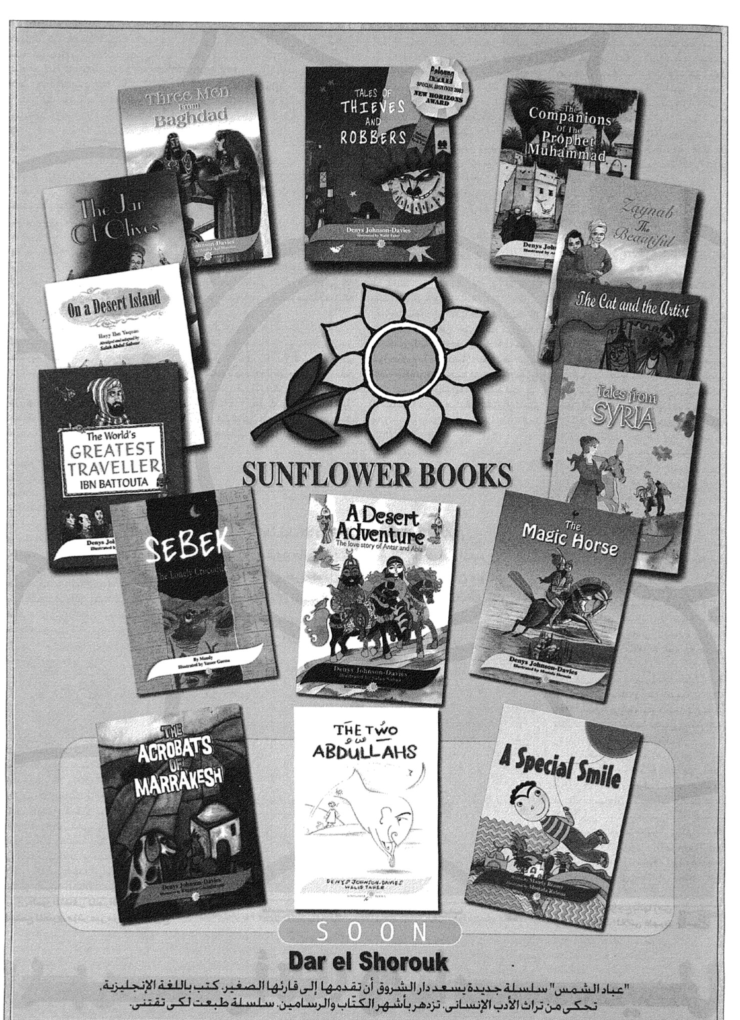
لابد إذن. وهوان لغتنا الجميلة علينا قد بلغ هذا الحد. من وقفة قومية تقوم بها الدولة، إذا كانت واعية بأن التنمية اللغوية مدخل حقيقى لكل ألوان التنمية الأخرى: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والبشرية. ولابد لهذه الوقفة القومية من «تشريع» ينص على الاهتمام بهذه اللغة، والمحافظة عليها، والحرص على استخدامها فى كل مجالات الدولة: فى الوزارات والشركات والمؤسسات والنقابات والإدارة المحلية والأجهزة الشعبية، فى الوثائق والتعاملات، والعلاقة مع الجمهور فى الداخل ومع الدول الأجنبية كما ينص على الارتقاء بها فى مجال الفنون المختلفة، وفى وسائل الإعلام، باتساع المساحة المخصصة للتعامل بالعربية الصحيحة، والبعد عن استخدام المستويات المبتذلة والهابطة من العامية.

ولا مفر من أن يكون تعليم هذه اللغة وتعلمها، باعتبارها لغة حية، مسموعة منطوقة، يجيد النشء المتعلم النطق بها، والتفكير به، والكلام بها، والتعبير بها، عودة إلى نظام الهوايات فى المدارس، يوم كانت حصة الهوايات مُناسَبةً لممارسة اللغة الحية الصحيحة فى الصحافة المدرسية والتمثيل والخطابة والمناظرة وتشجيع الكتابات الأولى للموهوبين من الطلاب، وحثهم على القراءة الخارجية بالمسابقات والجوائز. ولا مفر من أن يستعيد الإنسان المصرى والعربى اعتزازه بنفسه ووطنه وهويته ولغته التى هى وعاء ذلك كله، نافضًا عنه كل ما يعيش فيه ويمارسه من صور الهوان، وما يتقبله من صور القمع والتنكيل وما يسكت عنه من صور التخلف والتغييب والتراجع. شجاعة العربية. التى نادى بها علماء اللغة الأولون. بحاجة إلى إنسان شجاع، ولا يمكن أن تتحقق إلا على يد قوم يمتلكون القدرة على المغامرة والاقتحام والتجديد. يقتحمون العصر ولا يتخلفون عنه، يتحاورون معه ويأخذون ويضيفون. يرفعون شعارات العلم والتقدم، واللغة العصرية التى تغتنى بالمعرفة الجديدة، ومخزون المعلوماتية، وثورة الاتصالات، ويتسع مكْنزُها للجديد المنهمر فى كل يوم. عندئذ لن يكون حال كل منا كحال المتنبى فى بيته المشهور:

غريب الوجه واليد واللسان. فغربة الوجه ضياع وامتهان فى زحام الأجناس والشعوب، وغربة اليد فُقدان للطاقة والقدرة والإمكانية، وغربة اللسان هى هذا الذى نعانيه ونحس بوطأته وندعو إلى مواجهته والتصدى له، ونحن نتساءل بصوت مسموع: هل هانت علينا لغتنا الجميلة؟ وأولى بنا أن نقول: هل هُنّا نحن على أنفسنا إلى هذا الحد؟ هذا هو السؤال! ■

الهوامش

(١) الحصاة: الرأى والعقل.
(٢) احتسبت حِياتى: ادخرتها عند الله.
(٣) العِداة والعُداة بكسر العين وضمها: الأعداء.
(٤) الأسَاة: جمع الأسى، وهو الطيب.
(٥) المنعة: العزة والقوة والحماية
(٦) المزلق: مكان السقوط والزلل
(٧) أناة: التأنى والإبطاء
(٨) النعاة: جمع الناعى وهو من يخبر بالموت.
(٩) اللوثة: عدم الوضوِح والإبانة.
(١٠) لعاب الأفاعى: سُمها
(١١) الفرات: الماء العذب
(١٢) الرموس: جمع رمس وهو القبر
(١٣) الذمار: ما تجب حمايته من وطن وحِمى.
(١٤) الأولى: أى الذين
(١٥) حلاى: بلاغتى وبيانى وجمالياتى
(١٦) أولو: أولو حزم: أهل حزم
(١٧) بموفوريه: بما يمتلكه من الأدب والفن الوفيرين
(١٨) مذخوريه: ما يختزنه من عقل ونقل (أى تراث وتجديد)
(١٩) الحزن: الأرض الصعبة.
(٢٠) جلَى: سبق وجاء أولاً
(٢١) شقةَ: مسافة
(٢٢) المُصلى: من يجئ ثانياً فى الترتيب
(٢٣) البِدع: البدعة والضلالة
(٢٤) انظر كتاب: مع طه حسين لسامى الكيالى (سلسلة اقرأ . دار المعارف)


Three Men from Baghdad
Tales of Thieves and Robbers
New Horizons Award
The Companions of the Prophet Muhammad
The Jar of Olives
Zaynab The Beautiful
On a Desert Island
The Cat and the Artist
The World's Greatest Traveller Ibn Battouta
Tales from Syria
SUNFLOWER BOOKS
SEBEK
A Desert Adventure
The love story of Antar and Abla
The Magic Horse
Denys Johnson-Davies
The Acrobats of Marrakesh
The Two Abdullahs
A Special Smile
SOON
Dar el Shorouk
"عباد الشمس" سلسلة جديدة يسعد دار الشروق أن تقدمها إلى قارئها الصغير. كتب باللغة الإنجليزية،
تحكى من تراث الأدب الإنسانى. تزدهر بأشهر الكتّاب والرسامين. سلسلة طبعت لكى تقتنى.

المـــرأة.. وتأســـيس

غالبيتهـــن شـــاميـات.. وزوجـات

سـامـيـة حـبـيـب

■■ إن الإطلالة. ولو العابرة. على التاريخ الأدبى العربى، يؤكد أن الإسهامات الإبداعية للمرأة فى مختلف المجالات الأدبية تأخرت كثيراً، حيث لم تكن ملحوظة على نحو كاف إلا فى الأونة الأخيرة.

لكن هذا الوضع لم يمنع ظهور أصوات نسائية متميزة وإن كانت نادرة وبخاصة فى الإبداع الشعرى، بقيت متناثرة ومتباعدة فى صفحات التاريخ مثل صوت «الخنساء» التى اشتهرت بمرثياتها لأخيها «صخر» كما عرف الأدب العربى من الجوارى والإماء والمحظيات فى بلاط الخلفاء ورجال الدولة، مقطوعات شعرية غنائية إلى جانب المطارحات والمناظرات ذات الطبيعة العاطفية الحسية مع غيرهم من شعراء البلاط، ولقد عرفت هذه الأشعار طريقها إلى المصنفات الأدبية مثل كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى.

ولكن مع بداية القرن العشرين، تغيرت أوضاع المرأة الاجتماعية تدريجيًا تحت تأثير عملية الاحتكاك الحضارى لأوروبا وثقافتها، فتوالت الدعوات والأطروحات النظرية التى تحاول مجاوزة الظروف والملابسات التاريخية الموروثة بما شابها من تهميش لدور المرأة الاجتماعى واستلاب لحريتها، فطالبت الدعوات بحق المرأة فى التعليم والعمل والمساواة بالرجل على المستوى الاجتماعى والسياسى.

وفى هذا الإطار مع التسليم باختلاف السياق التاريخى لدعوات تحرير المرأة العربية عن مثيلتها الأوروبية، صدرت الصحف والمجلات التى أعطت مساحات لهذه القضايا وما يرتبط بها من تفصيلات، ومن بينها مجلات شهرية وأسبوعية نسائية فى اهتمامها وتوجهاتها وفى مادتها الأدبية، مما عمق الدعوات وطورها، وكان لها أثرها وتداعياتها فى الواقع الاجتماعى الفعلى. فظهرت «عائشة التيمورية» كشاعرة متميزة، ومن الصحفيات والمفكرات كانت ملك حفنى ناصف ومى زيادة واقترن اسم «نازك الملائكة» بحركة التجديد الشعرى ومحاولات التمرد والثورة على القالب التقليدى الموروث للقصيدة العربية وتقنياته.



ومع بداية الخمسينيات اتسعت الرقعة التى ساهمت فيها المرأة بالإبداع فى خريطة الحياة الأدبية وتعددت مجالات المساهمة، لتضيف إلى جانب الكتابة الصحفية والشعر والقصة والدراسات الجامعية، كتابة الدراما، فنجد المسرح المصرى يشهد بين عامى ١٩٥٠م، ١٩٥٥م أول مسرحيات الكتابة العربية . وهى مرحلة متقدمة سبقتها مشاركة تامة فى كل عملية الإنتاج المسرحى من تمثيل وإخراج وتلحين وغناء ورقص وغيرها من مظاهر انخراط الفنانة المصرية فى المسرح.

إن الدور الثقافى للمرأة المصرية فى المجتمع المصرى مؤثر عبر مراحل التاريخ المختلفة، لكن الناظر بعين البحث لهذا الدور سيجد أن هذا الدور سار فى خطوات تتأرجح بين الصعود والهبوط، بل أقصى الصعود وأدنى الهبوط، بحيث كانت مرحلة الكفاح والمثابرة لتحقيق منجزات تعقبها انتكاسات تهدم كل المنجزات، التى ما لبث أن قام جيل آخر لتحقيقها.

النشـاط المسـرحى الخـاص (الأهـلـى):

إن مجال البحث فى المسرح والتمثيل وكل الفنون المرتبطة بالعملية المسرحية فى جانبها النظرى، التأليف المسرحى والكتابات النقدية والمذكرات الفنية. تؤهلنا فى جانبها العملى لدرس ما يخص كل عناصر عملية العرض المسرحى وجمالياته وتطورها.

وبالتخصيص تهتم هذه الدراسة بدور المرأة فى هذا جميعه ليس بمعزل عن العناصر الأخرى، وخاصة الفنان المسرحى صاحب الإسهام الأول فى وجود هذا الفن فن الثقافة المصرية. ولكن التأكيد أن الفنان والفنانة كانا الأساس الذى قامت عليه فنون العرض فى الشرق كله وهو أمر شاق البحث نظراً لاهتمام الأبحاث والدراسات والتوثيق طوال عقود طويلة بدور الرجال فقط فى المسرح، بينما توارى فى الظل دور المرأة. وهو دور كان مؤكد الوجود، لأن المسرح فن الحياة، منها يأخذ مادته ومشاعره وعناصر صراعه، فلم يكن من المنطقى إغفال طرف دون الآخر، بينما الطرفان كما خلقهما الخالق هما صانعا الحياة، بل المرأة هى سبب الوجود مانحة الحياة فى الأساس.

إن التتبع التاريخى لدور المرأة فى المسرح يبدأ من الفرق الأهلية والخاصة التى مدت جسور هذا الفن فى الشرق بجهود فردية، واتخذت مساهمات الفنانات الأوائل على النحو الذى رصدته الدراسة.

١. المساهمة الأولى:

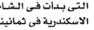
يعكس دور المرأة فى المسرح المصرى والعربى صورة متأرجحة ما بين صعود وهبوط، صعود إلى أعلى سلم المجد، هبوط إلى أسفل درك الفن. حتى نكاد نرى هذا التناقض يلف حياة المسرحيات لفاً كبيراً طول قرن وربع من الزمان منذ عرف العرب المسرح بالصورة الغربية له، تلك الصورة التى بدأت فى الشام ثم انتقلت إلى الاسكندرية فى ثمانينيات القرن التاسع عشر، وحتى وصل المسرح إلى القاهرة قادماً من الإسكندرية.



اهتمت الأبحاث والدراسات والتوثيق طوال عقود طويلة بدور الرجال فقط فى المسرح، بينما توارى فى الظل دور المرأة. وهو دور كان مؤكد الوجود، لأن المسرح فن الحياة، منها يأخذ مادته ومشاعره وعناصر صراعه، فلم يكن من المنطقى إغفال طرف دون الآخر



ففى المرحلة الأولى للمسرح فى مصر عندما كان يعقوب صنوع يقدم مسرحياته على مسرح حديقة الأزبكية نجده يكتب عن عمل الفنانات معه فى مسرحه وهما (ليزة وماتيلده) بعد أن علمهما بنفسه القراءة والكتابة والتمثيل فى أقل من شهر ويقول (كان لظهورهما على المسرح رنة عظيمة، واستقبلهما الجمهور بتصفيق شديد وحياهما تحية حارة مما دعاهما إلى مواصلة التمثيل وحفظ أدوار أطول وأهم) .



إن هذه العبارة التى يذكرها صنوع جرت عام ١٨٧٠، وقد واصل عمله مع هاتين الممثلتين كما يتضح من حادثة الخلاف مع الخديوى إسماعيل، والتى على إثرها أُغلق المسرح وهى حادثة مسرحية (الضرتين) حيث كانت تعارض تعدد الزوجات، كانت الضرتان امرأتى رجل واحد جعلتا منه زوجاً شقياً بغيرتهما ومطالبهما. وهو ما يعنى أنه كانت هناك ممثلتان تقومان بدورى الزوجتين للزوج التعس، وفى مسرحية له تحمل اسم (البنت العصرية) تصوير مدى التقليد الأعمى للعادات الأوروبية من كل فتاة عصرية. وله أيضاً مسرحية (الأميرة الإسكندرانية) عن سيدة مصرية متفرنجة، فنجد أنها تيمات درامية تتطلب بالضرورة ممثلة مصرية مدربة للقيام بأدوار ذات أبعاد درامية كهذه الأدوار.

ونتقدم خطوة تجاه فرق أخرى لنجد فرقة يوسف الخياط (فى فبراير من عام ١٨٧٩ تترك الإسكندرية وتأتى إلى القاهرة وتمثل الأوبرا رواية الظلوم وخصص دخل هذه الليلة للممثلة الأولى بالفرقة) وعلى الرغم من عدم ذكر أسباب حول هذا التخصيص هل كانت تمر بظروف تحتاج إلى المال أم كانت تشترط على الفرقة دخلا ماديا كبيرا أم غيرها من الأسباب؟ إلا أنها معلومة تدل على مكانة ما للممثلة الأولى داخل الفرقة.

وفى الفرقة نفسها نجد فى تاريخ متقدم بضع سنوات وبالتحديد فى ٢/٧/١٨٨٥ تقدم الفرقة مسرحية (شارلمان) للفنانين الشيخ سلامة حجازى وفتح الله الرياوى والممثلة هيلانة بيطار.

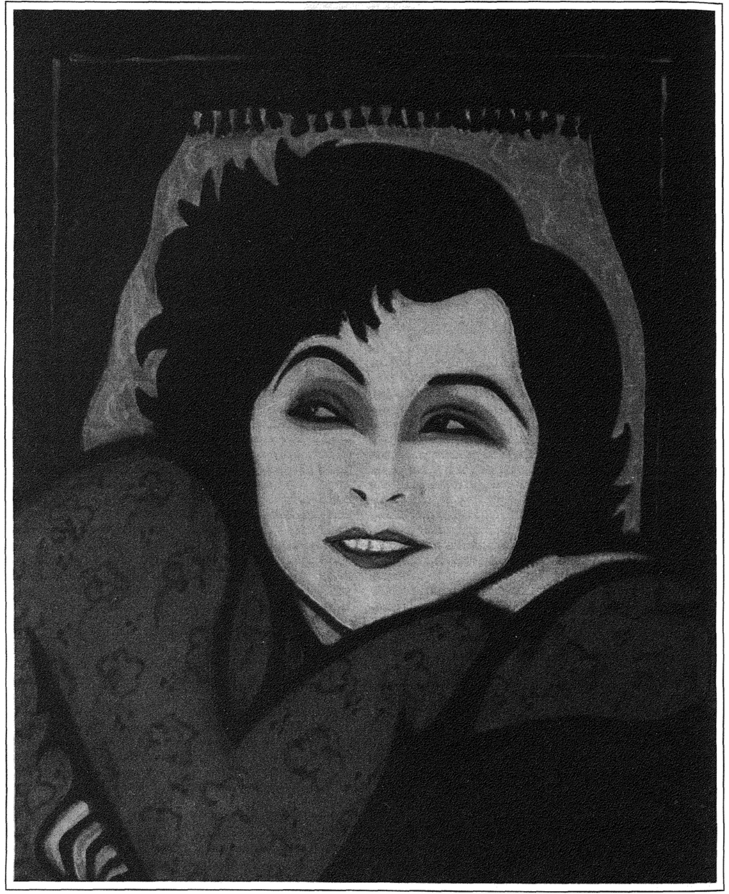
وفى فرقة أخرى هى فرقة أحمد أبو خليل القبانى، نجد معلومة تقول (فى أبريل ١٨٩٠ ذهبت الفرقة لتقديم عروضها فى المنيا بعد أن ضمت إلى أعضائها الممثلتين الشقيقتين مريم ولبيبة سماط).

واسم مريم سماط سوف يستمر معنا ولمدة خمسة وعشرين عاماً، كما سوف تكتب فى مذكراتها التى سنتوقف عندها بعد قليل بصفتها أول مذكرات لممثلة مع الثقافة العربية ككل.

وتصفها المراجع بأنها (من أولى الممثلات اللاتى ظهرن







بورتريه «فاطمة رشدى» لوحة زيتية للفنان حلمى التونى من معرض «وجوه جميلة من زمن جميل» ١٩٩٨

المسرح العربى



على المسرح فكانت جميلة رشيقة القوام قوية الصوت سليمة العبارة. اضطلعت بأدوار البطولة فى أغلب روايات الشيخ سلامة حجازى، وقامت بدور تسباو أم هملت ومارى تيودور وغيرهما). وقد استمر عملها حتى ساهمت فى وجود أول فرقة تقوم على يد ممثل متعلم وهو جورج أبيض (ولمّا كوّن أبيض فرقته الأولى كانت هى ممثلة الفرقة الأولى وقامت فى رواية الافتتاح (أوديب ملكا) بدور الملكة جيوكاست فادته كأقوى الممثلات فى الغرب).



أجر الممثلات كان يخضع للخبرة والأقدمية فى المهنة عامة والفرقة بصورة خاصة، فنجد ملياديان وهى من الممثلات اللاتى بدأن العمل منذ مطلع القرن العشرين تحصل على أعلى أجر

إننا إن توقفنا حتى عام ١٩١٥، نجد أن ممثلات الرعيل الأول كن كما تذكر المراجع:

١. من أصول غير مصرية غالباً شامية.

٢. من ديانة غير إسلامية، منهن يهوديات ومسيحيات غير مصريات أيضاً ويتضح ذلك من أسمائهن.

٣. عدد الممثلات العاملات بالفعل لم يكن كبيراً، بل كان عدداً محدوداً فى أسماء بعينها كن ينتقلن بين الفرق، لعدم وجود غيرهن.

٤. من الواضح أن الممثلات الأوائل كن يؤدين أدواراً محددة، أى لم تكن الموهبة أو الدراسة غير المتوفرة تؤهلهن لتنوع وتعدد الأدوار، فنجدهن ذكرن فى المراجع بنوعية معينة من الأدوار، فحتى عام ١٩١٥ نجد الممثلات اشتهرن بأدوار محددة:

❖ مليا ديان: إجادة الإلقاء والشعر.

❖ لبيبة مانيلى: أدوار الدراما والتراجيدى.

❖ مريم سماط: أدوار الملكات.

❖ هيلانة سماط: الأدوار البسيطة الساذجة.

❖ لطيفة: أدوار المزاحمات.

❖ وردة هيلان: أدوار الملكات والعجائز.

أما عن الوضع الاقتصادى فنجد رواتب الممثلين تتراوح بين (١٥٠) قرشاً و(٧٥٠) قرشاً فى الشهر، فى حين نجد رواتب الممثلات تتراوح بين (٣٥٠) قرشاً وعشرين جنيهاً.

أى أن العائد الاقتصادى للنساء الفنانات يزيد كثيراً عن الرجال ولم يوضح المرجع أسباب هذا التفاوت الكبير. هل يعود هذا إلى ندرة العنصر النسائى مع أهمية ذلك فى عملية الإنتاج المسرحى ككل، أم يعود ذلك إلى مراعاة تكلفة تحضير نفسها للدور، فهل كانت الممثلات يقمن بإنتاج ملابس أدوارهن أم هناك أسباباً أخرى؟؟!

ونجد فى أحد المراجع معلومات عن أجر الممثلات والممثلين فى فرقة جورج أبيض حتى عام ١٩١٧، قد تلقى لنا مزيداً من الأضواء حول الوضع الاقتصادى لفنانة المسرح (ولما التحق عزيز عيد بفرقة جورج أبيض تقاضى أربعة عشر جنيهاً شهرياً، وتقاضت روزاليوسف اثنى عشر جنيهاً مثل زميلاتها اللائى كن أكبر منها سناً وخبرة، وهن نظلة مزراحى (١٢ جنيهاً) وألمظ وأختها إبريز ستاتى، ومريم سماط (١٠ جنيهات)، وإستر شطاح (٨ جنيهات)، وسارينا إبراهيم (١٠ جنيهات)، وزكية إبراهيم (٨ جنيهات) باستثناء واحدة هى ميلياديان التى تتقاضى خمسة وعشرين جنيهاً).

من الواضح من هذا أن أجر الممثلات كان يخضع للخبرة والأقدمية فى المهنة عامة والفرقة بصورة خاصة، فنجد ملياديان وهى من الممثلات اللاتى بدأن العمل منذ مطلع القرن العشرين تحصل على أعلى أجر، ويذكر أن روزاليوسف حصلت على أجر مماثل لمن هن أكبر منها سناً، مما يعد الأمر سابقة غير معمول بها فى نظم الفرق.

أما عن علاقة هذه الأجور بأجور الممثلين من الرجال، فنجد حسبما يرد من المرجع نفسه أنه كان راتب زكى طليمات ١٢ جنيهاً، وعباس فارس وعبد الوارث عسر وعبد العزيز خليل وأحمد فهيم مثله؛ أى أن هناك تفوقاً للممثلات المخضرمات أو نجمات الفرقة فى المرتب على زملائهن الرجال.

٢ ـ تبادل الأدوار:

إن دراسة تاريخ التمثيل فى المسرح المصرى منذ الثلث الأخير من القرن الثامن عشر وحتى الثلث الأول من القرن التاسع، يقدم لنا ظاهرة جديرة بالتوقف والبحث وذلك لأن السيدات والأنسات المصريات لم يقمن بالتمثيل على خشبة المسرح فى هذه الحقبة. فقد ظل العنصر النسائى بعيداً عن المسرح خلال المرحلة الأولى من هذا العنصر حيث كان ظهور المرأة على المسرح ومطارحتها الغرام يعتبر خروجاً عن الدين والأخلاق، فكان يعهد بأدوار النساء إلى شبان صغيرى السن.

إن مريم سماط تؤكد هذا صراحة عندما تتحدث عن الفترة التى بدأت العمل بها فى أواخر القرن الثامن عشر تقول: (وكان يشتغل بالتمثيل فيها لذاك العهد جوقان عاملان أولهما تديره جماعة المعارف ويرأسها محمود أفندى رفقى والثانى جوق الرجل الجليل المرحوم أبى خليل قبانى. وكان يقوم بأدوار النساء فى كلا الجوقين شبان من الممثلين لم تظهر شواربهم لعدم إقبال الفتيات على التمثيل وقلة جراءتهن على الوقوف على المسارح).

تقدم مريم سماط سببين يجب وضعهما فى الاعتبار لكونها أقدمت على هذا العمل فى إطار هذه الظروف التاريخية التى أحكمت فيها التقاليد على إقبال الفتيات المصريات على التمثيل.

إلى جانب قلة جراءة الفتيات على مواجهة الآخر تلك المواجهة التى تأخذ شكل اللقاء والحديث مع الآخر الذى هو بالضرورة الرجل. فكيف تستطيع الفتيات فى ذلك العصر فعل هذا وهن من اختفين خلف حجاب من الملابس والمبانى أى البيوت ذات المشربيات التى لم يكن يسمح لرجال من الأغراب أو الأقارب أيضاً باختراقها.

فما بالنا ونحن نتحدث عن المسرح، حيث اللقاء بين الفتاة وعشرات من الجمهور الذى كان غالباً من الرجال. إن الأمر يبدو فى إطار ذلك العصر من الأمور المستحيلة.

لذا كان تمثيل الشباب أو الأطفال لأدوار الفتيات وارداً، أما الممثلات فكان الرجال يقومون بتمثيل أدوارهن أو يتم الاستعانة بالممثلة الشامية. ومن الحوادث الظريفة التى نقرأ فى إحدى الدراسات أن الموسيقار محمد عبد الوهاب كان أحد هؤلاء الأطفال فى تلك الفترة التاريخية فمسرحية الموت المدنى لفرقة عبد الرحمن رشدى ١٩١٧، تضمنت دوراً لفتاة صغيرة تدعى «أداة» فأسند هذا الدور إلى محمد عبد الوهاب وهو بعد لا يزيد على تسع سنوات، فكانوا يلبسونه فستاناً قصيراً زاهى الألوان ويربطون شعره بالأشرطة الحريرية.

ويبدو أن تبادل الأدوار بين الممثلين الرجال والممثلات المصريات السيدات قد استمر حتى نهاية العشرينيات على الأقل.

إننا نستمع إلى حديث الفنانة أمينة رزق عن بداياتها فى فرقة رمسيس التى بدأت بالفعل عام ١٩٢٣ فى مارس بالتحديد، تقول: كان أجرى أربعة جنيهات فى الشهر وكل أدوار الأولاد فى الروايات كانت من نصيبى.. وأذكر من هذه الروايات الولدان الشريدان وجاكى الصغير والبلياتشو، وتمثيل أدوار الرجال أو الصبيان فى ذلك الوقت لم يكن بدعة جديدة، فأول ممثلة أدت أدوار الرجال على خشبة المسرح منيرة المهدية عندما مثلت دور (وليم) فى رواية صلاح الدين، وقد أحدث قيامها بهذا الدور ضجة كبيرة فى الوسط المسرحى.. ثم جاءت بعدها روزاليوسف عندما قامت بتمثيل دور (ديفيد كوبر فيلد) فى رواية الذهب. فنجحت نجاحاً كبيراً، فتشجع من جئن بعدها من الممثلات على اقتفاء أثرها وجاءت بعدها فاطمة رشدى التى أدت دور الشريد فى رواية الشريدان والنسر الصغير.

إن حديث الرائدات عن تمثيلهن أدوار الرجال موجود فى أكثر من مرجع ورواية فتقول فاطمة رشدى فى مذكراتها عن قرارها تمثيل دور (قيس العامرى) فى مسرحية مجنون ليلى بعد أن اختلف الفنان عزيز عيد مخرج الرواية مع بطلها أحمد علام صاحب الدور فى الأصل، حول أحقية كل منهما فى أداء الدور أمامها، حيث كانت تمثل دور (ليلى العامرية)، فاتخذت القرار الجرئ الذى تقول عنه (فعلموا أننى أنا من سأمثله وعجبوا أولاً كيف تمثل (فتاة دور عاشق بدوى، ثم زال عجبهم عندما ذكروا أننى مثلت قبل اليوم هملت والنسر الصغير وروكامبول (..) وقامت زميلتى زينب صدقى أمامى بدور ليلى).

إن هذه الحقائق التاريخية تضعنا أمام صورة للمسرح المصرى تتواصل مع بدايات هذا الفن فى كل الثقافات تقريباً.

أولاً: تم إسناد أدوار المرأة إلى ممثلين رجال وهو ما حدث من قبل فى (المسرح الإفريقى والإيزابيثى والمسرح الدينى فى العصور الوسطى، حيث يتنكر الرجال فى أثواب النساء ويتحدثون بصوتهن). وهو ما حدث بالفعل فى المسرح المصرى.

ثانياً: تمثيل الممثلات الأوائل لأدوار الرجال فى بداية ظهورهن على خشبة المسرح وهو ما ذكرته المراجع عن منيرة المهدية وروزاليوسف وفاطمة رشدى وأمينة رزق وربما غيرهن ممن سقطن من ذاكرة التاريخ. وهذا الأمر يحيلنا إلى تفسيرات متعددة، منها ظروف الإنتاج التى وضعت منيرة المهدية محل فنان رجل هو سلامة حجازى. ومنها الخوف من مواجهة التقاليد التى مازالت تمسك بزمام حياتهن، منها رغبة كامنة فى إثبات الذات والموهبة الفنية التى خلقتها رغبة تحدى التقاليد وتكسر ما تعارف منها



على منع المرأة من كثير من المهن والأعمال الفنية خاصة.

ثالثًا: تدعونا هذه الحقائق إلى النظر فى أمر الطرف الآخر من العملية المسرحية وهو الجمهور، إن تمثيل صبية لأدوار صبايا وتمثيل فتيات لأدوار رجال فى مسرحيات أمر استمر سنوات ليست قليلة، فكيف كان قبول هذا الجمهور لها؟

نستطيع أن نتبين من خلال استمرار هذا الوضع طوال سنوات قبول الجمهور وإلا توقفت الفرق والممثلات عن العمل. فهل يرجع هذا إلى تفهم الجمهور لما يشوب مسرحه من قصور نتيجة لظروف اجتماعية حكمت عصره. أم أن هذا الجمهور كان من الوعى، بحيث قبل الوهم المسرحى فى داخل اللعبة المسرحية بكل شروطها ولم يحاول أن يقلل من متعته الفنية التى كان يبحث عنها.



يقول جرجى زيدان عن جمهور الفرق المسرحية فى مطلع هذا القرن: (اضطر أصحاب هذه الفرق إلى تمثيل الروايات التى تلفت انتباه العامة وتسترعى أسماعهم، فوجدوا الجمهور يميل على الخصوص إلى الصوت المطرب والنكت المضحكة، فوجهوا عنايتهم إلى انتقاء أطرب المنشدين وتمثيل الروايات المضحكة، ثم أخذت هذه الفرق ترتقى تدريجيًا بارتقاء أذواق المشاهدين).

ولم يكن الجمهور من الرجال فقط، بل كان من النساء أيضًا خاصة جمهور فرقة الشيخ سلامة حجازى الذى من الواضح أن حب سماع صوته كان له أثر كبير على المسرح فى مصر. فقد ارتاده الرجال والسيدات من جميع الطبقات (أما السيدات فكن محجبات ويشاهدن التمثيل من مقصورات خاصة مغطاة بستائر تحجبهن عن أعين النظارة، ومع ذلك فقد كانت طبقة السيدات اللاتى يشاهدنه محدودة جدًا).

وفى مرحلة تالية سوف يتم العناية اللازمة بأماكن السيدات المتفرجات على المسرح. وعن تنظيم عبد الرازق عنايت صاحب فرقة دار التمثيل العربى بحديقة الأزبكية فى ١٩١٢. يقال إنه (أنفق بسخاء فى تنظيم وإعداد مسرحه وخصص الدور الثانى من المقصورات للسيدات وجعل الدخول إليه من باب خاص بسلم خاص).

إننا بهذه الحقائق أمام جمهور من الرجال والسيدات رغم محدوديته. إلا أنه جرت العناية والاهتمام بوجوده فى المسرح، وبالتالى مراعاة ذوقه ووجود من يمثلنه من الممثلات وهو التطور الذى سيجد ترحيبًا اجتماعيًا.

تقول أمينة رزق: (لعلنى لا أبالغ إذا قلت إن التمثيل كان إلى ما قبل ظهور فرقة رمسيس منظورًا إليه نظرة مهانة لا تتفق مع كرامة الفن والقائمين به، فلم تكن ترضى أسرة كريمة أن يكون واحدًا من أفرادها أو واحدة من بناتها ممن يقفون على خشبة المسرح وأمام أنظار الجمهور.. فلما اقتحم يوسف وهبى وهو ابن تلك الأسرة الكريمة العريقة ذلك الميدان كسب المسرح المصرى شيئًا من الكرامة وحسن التقدير).

إن هذا التقدير الذى تتحدث عنه الفنانة الرائدة كان بلا شك دافعًا على الاستمرار والعطاء، كما كانت نظرة المهانة دافعًا للتعويق والحظر والمنع من قبل.

مما سيجعل الفنانات الأوائل يتقدمن خطوة نحو تثبيت دعائم فنهن عندما يقمن بتأسيس فرق مسرحية كاملة تحمل أسماءهن، أو يكن حجر زاوية فى بناء فرق راسخة مثل فرقة رمسيس كما سنرى.



إن توقفنا حتى عام ١٩١٥، نجد أن ممثلات الرعيل الأول كن:
١. من أصول غير مصرية غالبًا شامية.
٢. من ديانة غير إسلامية، منهن يهوديات ومسيحيات غير مصريات أيضًا ويتضح ذلك من أسمائهن

٣. صاحبات فرق مسرحية:

عندما وقفت الباحثة على مرحلة لاحقة لدور المرأة فى المسرح فى مصر، وجدت تقدمًا كبيرًا قد لحق بهذا الدور فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، حيث كونت أكثر من فنانة فرقة مسرحية تحمل اسمها، تنتج وتمثل فيها مع مجموعة من زملائها، وما سبب ذلك لهن من مشكلات فنية واقتصادية بل واجتماعية أثرت على المسرح وعلى حياتهن الشخصية:

أ. صاحبات الفرق: تأتى أولاهن منيرة المهدية التى أسست عام ١٩١٧م فرقة خاصة بها تم حلها فى مطلع العشرينيات، ثم تكون فرقة أخرى من ١٩٢٥م وحتى ١٩٣٨م قدمت طوال هذه المدة الأوبرا والأوبريت، وهذا يعود لكونها مطربة صاحبة صوت جميل. ولم تكن المهدية صاحبة لقب أول ممثلة فقط، بل وأول صاحبة فرقة أيضًا.

ب. فرقة فيكتوريا موسى، وهى ممثلة وزوجة عبد الله عكاشة صاحب فرقة أولاد عكاشة مع أشقائه. وقدمت عددًا كبيرًا من المسرحيات التراجيدية التى تتفق مع ميولها كممثلة فقط (بعد انفصال عبد الله عكاشة وزوجته فيكتوريا موسى عن شركة ترقية التمثيل العربى كونا فرقة مسرحية تحمل اسم فرقة فيكتوريا موسى فى أغسطس عام ١٩٢٦م على مسرح الماجستيك).

ج. فرقة فاطمة رشدى، حيث أسست الفرقة مع أستاذها وزوجها عزيز عيد بعد انفصالهما عن فرقة رمسيس. وقاما بإنتاج مسرحيات ضخمة دخلت فى منافسة طويلة مع فرقة رمسيس وظلت الفرقة تعمل طيلة ثمانية مواسم حتى عام ١٩٣٣م. وكان من أهم الأحداث بها قيام فاطمة رشدى بإخراج مسرحية (أنا كارنينا) بإرشاد من عزيز عيد وتعلق فاطمة على هذا العمل (وقد علمتنى التجربة أن الإخراج عمل شاق يحتاج إلى جلد الرجال أولاً).

د. فرقة تحية كاريوكا، وهى فرقة عملت فى الستينيات والسبعينيات من هذا القرن، وتعد فرقة معاصرة، قدمت مسرحيات ذات اتجاه سياسى. بدأت بمسرحية (ياسين ولدى) ١٩٧١م وانتهت فى مطلع الثمانينيات بمسرحية (شقلباظ) ١٩٨٢م.

هـ. أسهمت فنانات بالتمثيل أو الغناء فى أكثر من فرقة قامت فى الفترة الزمانية نفسها مثل علية فوزى وعزيزة أمير ودولت أبيض فى فرقة ترقية التمثيل العربى (١٩١٧ ـ ١٩٢٦) وبديعة مصابنى وفتحية أحمد فى فرقة الريحانى وأمين صدقى التى تكونت عام ١٩٢٥م. وفى فرقة على الكسار كانت البطولات النسائية للفنانة رتيبة رشدى (شقيقة فاطمة رشدى) وعند انفصال رتيبة عن الفرقة أسندت البطولة النسائية للفنانة علية فوزى التى لم تستمر بالفرقة سوى عام واحد، ثم حلت محلها الفنانة عقيلة راتب.

وتحت مسمى (اتحاد الفنانين) تأسست فى عام ١٩٣٤م فرقة تعمل بنظام اقتسام الأرباح بين أعضائها نقرأ أسماء الممثلات دولت أبيض وزينب صدقى وعلوية جميل وفردوس محمد، بل نجد مسرحية قام الممثل عمرو وصفى ببطولتها وإخراجها باسم (دولت) من تأليف وبطولة دولت أبيض، وهى خطوة كبيرة فى حينها.

ونجد يوسف وهبى يورد فى مذكراته تحت اسم لوحة الشرف لمؤسسى فرقة رمسيس أسماء الممثلات. (روزاليوسف. سرينا إبراهيم. إحسان كامل. زينب صدقى. فاطمة رشدى. نعمات كمال. فردوس حسن).



إن الباحثة فى إطار هذا الاستعراض التاريخى لابد أن تتوقف أمام حقائق عدة:

أولاً: أهم هذه الحقائق أن هذه الفرق الخاصة بصاحباتها أو المشاركة فى تأسيسها اعتمدت بصورة أساسية على الرجل مخرجًا ومديرًا ومترجمًا وممثلاً.

ثانيًا: إن شريك الفنانة الأول كان زوجها وهو فنان بالضرورة:

- منيرة المهدية. زوجها محمود جبر. مدير الفرقة
- فاطمة رشدى. زوجها عزيز عيد. مدير ومخرج الفرقة
- فكتوريا موسى. زوجها عبد الله عكاشة. شريك الفرقة
- علية فوزى. زوجها زكى عكاشة. صاحب فرقة عكاشة
- دولت أبيض. زوجها جورج أبيض. صاحب فرقة
- روزاليوسف. زوجها محمد عبد القدوس. ثم زكى طليمات
- بديعة مصابنى. زوجها نجيب الريحانى. صاحب الفرقة
- عقيلة راتب. زوجها حامد مرسى. مطرب فرقة الكسار معها
- علوية جميل. زوجها محمود المليجى. الممثل
- تحية كاريوكا. زوجها فايز حلاوة. شريك بالفرقة

ثالثًا: حدث تطور فى وضع المرأة، فلم تعد ممثلة أو مطربة، بل بدأت محاولات تأليف قامت بها دولت أبيض أو إخراج قامت بها فاطمة رشدى كما قدمنا، وهى محاولات لم يكتب لها الاستمرار فى هذا الجيل وإن كان جيل تال فى مطلع الخمسينيات قام بالتأليف والإخراج وتواصل مع أجيال أخرى حتى وقتنا هذا وهو ما سيأتى ذكره.

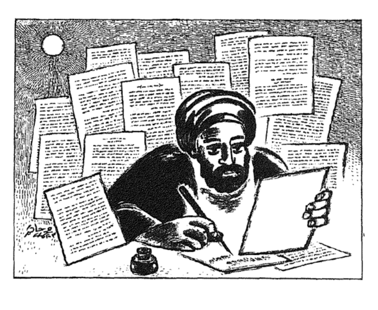
رابعًا: إن الكساد الاقتصادى فى النصف الأول من الثلاثينيات أثر فى وجود كثير من هذه الفرق، فتفككت منها فرقة فاطمة رشدى التى تقول عن توقف فرقتها عام ١٩٣٣م:

(ألفت فرقة صغيرة لا ترهقنى نفقاتها أقدم بها لونًا خفيفًا وجديدًا فى الفن المسرحى وبدأت فى نهاية عام ١٩٣٣م موسمًا جديدًا... ولكننى لم أستطع مقاومة الكساد فتوقفت أنا الأخرى مرغمة). ■

وقف الرجل وقد بدا عليه التعب والإرهاق بحضرة الخليفة العباسى المتوكل، وبعد حوار طويل ومتشعب، أرهف الجميع أسماعهم بانتظار قرار المتوكل، كانت كلمات قليلة صادرة كافية بأن تنفذ حكم الإعدام وتزهق روح رجل وصفه المستشرق (لوسيان لوكلرك) بأنه: (أقوى شخصية أنجبها القرن التاسع الميلادى، بل من أشد رجال التاريخ ذكاء وأحسنهم خلقاً، فنطاق أبحاثه الشاسع الأطراف واختلاف أنواعها وامتيازها وأهميتها، والمحن التى تحملها بشجاعة ونبل فى بدء حياته العملية وفى أثنائها، مما يبعث الاهتمام ويجذب القلوب إليه وهو وإن لم يكن باعث النهضة فى الشرق إلا أن أحداً لم يشارك فى تلك النهضة مشاركة فعالة وراسخة ومثمرة كما فعل).

ولكن الحكم المنتظر لم يصدر وعاش الرجل ليروى لنا حكاية لا تتكرر.





فى ميدان التقاء الثقافات

حنين بن إسحق



محمد فؤاد الذاكرى

ولد حنين بن إسحق العبادى (١٩٤هـ/٨١٠م) من أسرة عربية نصرانية، وتجمع أغلبية المصادر على أنه ولد ونشأ فى الحيرة وتقع على الشاطئ الغربى لنهر الفرات مما أهلها أن تكون ميناء مهماً ترسو فيه السفن العابرة من الشرق فى الخليج، ويقدر بعض المؤرخين أن إمارة الحيرة نشأت ضمن التاج الفارسى فيما بين عام ١٦٥ وعام ٢١٢م، وذلك مع قيام الدولة الساسانية فى إيران، وتتصف بأنها رقيقة الهواء عذبة الماء صافية الجوار ارتفع مكانها عن عمق أرياف العراق وانخفض عن ارتفاع ما جاورها من صحراء، واتصلت بالمزارع والجنان والمتاجر العظام وكانت على حافة العراق وحافة البادية، وكان فيها من مبانى العرب الجاهليين قصور عظيمة منها قصر الخَوَرْنَق.

اختلف العلماء فى معنى اسم الحيرة: فقيل أنها سميت الحيرة لأن تُبَّعاً الأكبر (من ملوك اليمن وينسب إليه كثير من الفتوحات) لما أقبل بجيوشه فبلغ موضع الحيرة ضل دليله وتحير فسميت (الحيرة)، ويرى بعضهم أنها من أصل آرامى بمعنى المعسكر والحصن، بينما ذهبت طائفة إلى أنها من (الحير) مأخوذة من كلمة (حيرانا) السريالية التى أطلقت فى الأصل على معسكر عرب فارس المتنقل والحيرة الآرامية والحير العربى من أصل سامى واحد، إذ أن المضرب والمعسكر والحمى ألفاظ يدل أصلها على معنى واحد. انقسم عرب الحيرة فى أوائل القرن الثالث الميلادى إلى ثلاثة أصناف: تنوخ وينزلون غربى الفرات بين الحيرة والأنبار وهم أصحاب المظال وبيوت الشعر والوبر، والأحلاف وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها والعبَّاد هم الذين سكنوا الحيرة واتبعوا فيها المساكن والأديرة وعرفوا بذلك لأنهم كانوا يعبدون الله أو لأنهم اتخذوا (يا آل عباد الله) شعاراً لهم عندما حاربهم سابور الأكبر، وقيل أيضاً فى تعليل هذا الاسم أنه وفد على كسرى خمسة منهم، وكانت أسماؤهم تبتدئ بكلمة عبد وهم: عبد المسيح، وعبد يا ليل وعبد يسوع وعبد الله، وعبد عمرو، فقال كسرى: أنتم عباد كلكم. فسموا العبَّاد، والمقصود بالعباد هم عرب الحيرة النصارى الذين كانوا يعبدون الله فى كنائسهم، وقد سكن اليهود الحيرة وبقوا بها حتى الفتح الإسلامى، بالإضافة إلى النبط والفرس، وأفل نجم الحيرة، بعد بناء الكوفة على بعد ٥ كم منها سنة (١٧هـ). كان «إسحق» والد «حنين» صيدلانياً، ومفهوم الصيدلة يومذاك صناعة العقاقير بتركيبها من الحشائش والنباتات وبيعها بطريقة تستوجب الحنكة والدراية بأمور الطب، وفيها شىء من المتاجرة بالنقد واستبداله.

نشأ «حنين» مولعاً بصناعة الطب كأبيه، كما أن مبادئ العلم الأولى تلقاها فى مسقط رأسه، فأصبح متمكناً من السريانية لغة كنيسته، حتى أنه لبس الزنار فكان شماساً، رغب بعدها فى دراسة الطب فانتسب إلى أكاديمية الطب المشهورة فى «جنديسابور» وهى «بيت لافاط» قاعدة إقليم الأهواز، ثم توجه بعد ذلك إلى بغداد فلزم مجلس الطبيب (يوحنا بن ماسويه) (١٦١.٢٤٣هـ) الجنديسابورى الأصل وكان من أطباء البلاط العباسى والمهيمن على التعليم الطبى فى ذلك العهد، فبدأ يعامل تلميذه (حنين) بجفاء وغطرسة، لأن أطباء (جنديسابور) كانوا يتوارثون احتراف الطب ويتسمون بعدم ميلهم إلى تعليم مهنة الطب إلى الغرباء وينحرفون عن أهل الحيرة (المنصرفين لأعمال التجارة والصيرفة)، كما كان «حنين» يتصف بأنه صاحب سؤال ودائم الاستفسار عما يقرأ بالكتب الطبية، لجوجاً فى المعارضة، وحدث أن أوغر صدر أستاذه «يوحنا» بسؤال صعب حول كتاب طبى يونانى فاندفع يطرده بنوبة غضب قائلاً: «ما لأهل الحيرة ولتعلم صناعة الطب».

بعد هذه الصدمة المبكرة هجر «حنين» مجلس «يوحنا» الطبى واختار الرحيل إلى بلاد الروم لدراسة اليونانية ومكث هناك مدة لا يمكن تحديدها، كما أن الأماكن التى قصدها والمدارس التى درس فيها غير معروفة.

دامت هذه الرحلات فى طلب العلم مدة ست سنوات زار «حنين» خلالها بلداناً عديدة مثل الشام والإسكندرية وبلاد الروم وفارس فأتاحت له اكتساب ثقافة فكرية زاخرة كما انكب على دراسة الطب وجمع الكتب القديمة وبذلك أصبح يجيد اللغة العربية واليونانية والفارسية والسريانية لغته الأصلية.

انتقل حنين إلى بغداد حوالى (٢١١هـ/٨٢٦م) على الأرجح، وكان عمره حينئذ سبعة عشر عاماً تقريباً حيث بدأ نشاطه العلمى بترجمة كتاب طبى لجالينوس فى التشريح، لكبير الأطباء فى بلاط الخليفة المأمون (جبرائيل بن بختيشوع) متوفى (٢١٤هـ/٨٢٩م) الذى أثنى عليه ووضعه تحت رعايته.

كما أقر له بالفضل والمعرفة أستاذه القديم (يوحنا بن ماسويه) بعد ما اطلع على شىء من ترجمته فأعجب بدقتها وفصاحتها، فتحول الأمر بينهما إلى صداقة واحترام متبادل تابع بعدها حنين دراسته الطبية بإشرافه.



وكانت تلك المرحلة بمثابة الإعداد للمستقبل إذ قرَّبه (جبرائيل بن بختيشوع) من الخليفة المأمون الذى كان مهتماً بنقل الكتب من طب وفلسفة ومنطق لأرسطو وغيره من الحكماء اليونانيين إلى العربية وذلك فى «بيت الحكمة»، وهو مؤسسة للترجمة وأكاديمية للتعليم ومركز لجمع الكتب. وعلى أثر ما تبين من فصاحة ومقدرة حنين وذيوع شهرته على صغر سنه، فقد انتدبه كثير من أهل العلم وذوى اليسار والجاه فى بغداد للترجمة ونقل الكتب ومنهم بنو «موسى بن شاكر» وهم: محمد وأحمد والحسن، فهؤلاء العلماء الإخوة الثلاثة كانوا يرعون النشاط العلمى ويهتمون بجلب المخطوطات اليونانية والإشراف على ترجمتها.

وبالإضافة إلى ترجمة كتب أبقراط وجالينوس وغيرها من الكتب الطبية والفلسفية عن اليونانية، كان «حنين» يقوم بتصحيح وتحقيق بعض النصوص التى يترجمها غيره، والتعليق على بعض الكتب باللغة اليونانية أحياناً مع مقابلتها بنصوص أخرى لتوثيقها، كما يروى (ابن أبى أصيبعة) أنه شاهد بعض هذه الكتب بخط (الأزرق) كاتب «حنين»، وعليها تعليقات كتبها «حنين» بخطه باليونانية وعليها ختم المأمون.

تولى الخليفة المتوكل الحكم سنة (٢٣٢هـ/٨٤٧م) وكان حنين فى تلك المدة (أمره يقوى وعلمه يزداد وعجائبه تظهر بالنقل والتفاسير حتى صار ينبوعاً للعلم ومعدناً للفضائل، فلما انتشر ذكره بين الأطباء اتصل خبره بالخليفة) المتوكل الذى أكرمه وجعله طبيبه الخاص، إلا أنه أراد امتحانه لكثرة شكايات الحساد ووشاياتهم به وحتى يتأكد من عدم وجود مؤامرة يدبرها له ملك الروم عن طريقه طلب منه أن يصف له سماً لقتل أعدائه مقابل خمسين ألف درهم، فرفض «حنين» فسجنه الخليفة فى إحدى القلاع ووكل به من يرفع خبره إليه وقتاً بعد وقت، فمكث سنة فى حبسه دأبه النقل والتفسير والتصنيف وهو غير مكترث بما هو فيه حتى تبين للخليفة



لعب «حنين» بنشاطه العلمي الواسع دوراً في حركة التبادلات الثقافية التي حدثت في بغداد في القرن التاسع الميلادي وهيأت ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في القرن التالي



مدى إخلاصه لعمله ومهنته، فأمر بإحضاره وطلب تفسيراً لرفضه فأجابه: (شيئان هما الدين والصناعة، فالدين يأمر بفعل الخير والجميل، والصناعة تمنع من الإضرار بالناس، لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم..) فاستحسن الخليفة جوابه وأطلق سراحه، وبدأت شهرة حنين بوصفه طبيباً للمتوكل، مترافقة مع شهرته كمترجم قدير، فقد انتدبه المتوكل للإشراف على الترجمات وبلغ قمة مجده كطبيب ومترجم، وكون مدرسة منتظمة في الترجمة والنقل إلى العربية ولكن الشهرة التي حققها والإكرام الذي لقيه أثار نفوس حاسديه ومنافسيه وأكثرهم من الأطباء، ويسرد «حنين» المحن التي لاقاها مع الاضطهاد والأهوال التي نالها من خصومه وذلك في رسالة طويلة بعنوان (فيما أصابه من المحن والشدائد من الذين ناصبوه العداوة من شرار أطباء زمانه المشهورين).

كشف فيها عن الأساليب الملتوية والوشايات الكاذبة التي لفقها خصومه، ومن جملة ما شكاه منهم تعصبهم الذميم ضده وعداؤهم له لأنه برع في الطب وتفوق عليهم ونقل إليها علوماً ومعارف لا يحسنونها ولا يهتدون إليها ولا يعرفون شيئاً منها في عبارة واضحة فصيحة، فأخذوا بالتشنيع ضده بأنه مجرد ناقل ومترجم للكتب يأخذ أجرته (كما يأخذ الصناع الأجرة على صناعتهم) وكان في طليعة أعدائه ومنتقديه الطبيبان (ابن زكريا الطيفوري) و(بختيشوع بن جبرائيل) حتى أصابته من جرائهم محن وشدائد كثيرة، وتعرض للسجن مرة ثانية في قصة حول أيقونة مسيحية ثم أخرج بريئاً وأكرم، وهي تلقي بعض الضوء على تفكير حنين الديني واتجاهه الرافض لتقديس الصور، ومن الراجح أن هناك شيئاً من العلاقة بين حنين وحركة تحريم الصور الدينية (Iconoclasm) التي مرت بمرحلتين: الأولى من ٧٢٦م إلى ٧٨٠م وانتهت رسمياً بانعقاد المجمع المسكوني السابع، أما الثانية فامتدت من ٨١٣م إلى ٨٤٣م. وحنين نفسه عاصر هذه المرحلة التي نشأت أول عمرها في الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية. وفي مكيدة أخرى تعرض إلى مصادرة أملاكه وكتبه حتى ظهرت براءته وأعيد إليه اعتباره.

لعب «حنين» بنشاطه العلمي الواسع دوراً في حركة التبادلات الثقافية التي حدثت في بغداد في القرن التاسع الميلادي وهيأت ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في القرن التالي.

إن المظاهر الثقافية في شخصية حنين تتجلى فيما يلي:

١. ميدان التقاء الثقافات، حيث التقت ثلاث ثقافات في شخصه:

أ. الثقافة العربية: بعد إتقانه اليونانية قفل راجعاً إلى البصرة وكانت في ذلك الوقت أكبر معهد لعلوم اللغة العربية وملتقى أقطابها، فأتقن لغة الضاد بالاعتماد على كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي، واكتسب من علماء البصرة العلوم النحوية والأدبية، فمن الناحية اللغوية كان حنين وارث الثقافة العربية الإسلامية.

ب. الثقافة السريانية: كان للغة السريانية مقام واضح في الحضارة العربية، ذلك أن السريان الأوائل قد نقلوا الفكر الإغريقي إلى لغتهم السريانية ومن ثم إلى العربية، فكانت لغتهم السريانية مصدراً من مصادر المعرفة التي تزود بها المسلمون وعرفوا من خلال هذه اللغة فلاسفة الإغريق، ومن أوائل المترجمين السريان (إيباس الرهاوي) توفي ٤٥٧م و(سرجيوس الرأس عيني) وله الفضل في تعريف السريان على مؤلفات أرسطو بتراجمه وشروحه، واشتهر بعد ظهور الإسلام (يعقوب الرهاوي) توفي سنة ٩٠هـ/ ٧٠٨م، و(توفيل بن توما الرهاوي)١٦٩هـ/ ٧٨٥م). ومن أسباب قيام حركة الترجمة والنقل لدى السريان هو الدافع الديني، فقد كانت كثير من المؤلفات الدينية النصرانية مكتوبة أصلاً باليونانية ومنها الأناجيل لأنها كانت لغة المتعلمين والحكام أيام الدولة اليونانية، فدفع هذا نصارى الشرق وخاصة النساطرة إلى نقلها إلى لغتهم السريانية. لقد تلقى «حنين» المعارف الدينية في أحد الأديرة العديدة الموجودة في الحيرة، فمن الناحية الدينية كان وارثاً للثقافة السريانية المسيحية.

ج. الثقافة اليونانية: إن إقامته في بلاد فيها مدارس ذات ثقافة عالية، وانصرافه للعلم واللغة يجتنيهما على يد أمهر الأساتذة في ذلك العصر، قيضا لحنين أن يتقن اللغة اليونانية ويصيب من الفكر الهلنستي قسطاً وفيراً ويتمرس على الترجمة ويتقوى في الطب، فاكتسب ثروة فكرية ذاخرة ونهجاً علمياً محكماً ولغة كانت في غاية الأهمية يومذاك، هي مفتاح الثقافة وقليلون كانوا يمتلكون زمامها لاسيما من العرب.

لقد تمكن حنين من أسلوب نقدي صحيح بالترجمة وأصبح خبيراً بخفايا الحضارة الهلنستية التي هي عصارة جهد ونبوغ شعوب وأقوام متعددة بعباقرتها ولغاتها وتراثها، منها اليونانية واللاتينية والسريانية والحبشية والقبطية والفارسية، ومنها ما يعود إلى جذور أعمق كحضارات حوض البحر المتوسط والحضارات السامية القديمة وغيرها، فمن الناحية العلمية كان حنين وارث الثقافة اليونانية الوثنية.

إن اختلاط الثقافات الثلاث في شخصيته أدى إلى تكوين ثقافة جديدة غنية جداً لها صبغة خاصة تميزها عن الثقافات السابقة.

٢. اهتم حنين بجميع فنون المعرفة البشرية في زمانه، فلم يكتف بجميع فروع الطب وخصوصاً طب العيون وعلم الأغذية وعلم الأدوية وطب الأسنان بل اعتنى أيضاً بعلوم أخرى كثيرة، منها الطبيعيات والرياضيات، التنجيم وتعبير الرؤيا، الفلسفة والتاريخ، النحو واللغة.

ففي جميع هذه العلوم ترجم حنين أو ألف كتباً متعددة تدل على سعة معرفته وتبرز براعته فيها وتثير إعجابنا حتى وقتنا الحاضر.

٣. قيامه بترجمة عدد وفير من الكتب العلمية من اليونانية إلى السريانية أو إلى العربية، فسمح بتراجمه بانتقال جزء كبير من العلم اليوناني القديم، أولاً إلى الشرق العربي الإسلامي في القرن التاسع ثم إلى الغرب اللاتيني المسيحي في القرن الثاني عشر الميلادي عندما تُرجم بعض كتبه إلى اللاتينية.

قُدر لي أن أعيش (حنين بن إسحق) في تجربة حياته، وهو واقف على طول قامته تحت الشمس يتحدث بصوت مسموع على أرض بكر لم يسبقه أحد بالوصول إليها، فكان أول الفاتحين وبداية المغامرة العقلية العلمية في أهم تجارب العالم على الإطلاق.. في رحلته المتواصلة في اكتشاف المعرفة بأنواعها والبلوغ إلى غايتها، كان حنين ساعياً لتحقيق الحلم في نفسه وفي الآخرين، ولكنني حاولت أن أكون رفيقاً وشاهداً في اكتشاف الحلم ومواصلته في كل تجلياته وتقاطعاته وانتصاراته وانكساراته منذ أن حملته أقدامه الصغيرة من مدينته الحيرة إلى بغداد مدينة الحلم الذهبي.



في صبيحة صيف عام (٢٦٠هـ. ٨٧٣م) وجدته (أم إسحق) لا يزال على مقعده المفضل داخل غرفته بعد أن رفض الاستلقاء على حشية الفراش، كان ينام بشكل متقطع لساعة أو أكثر، يستيقظ بعدها ليناديها بصوت خافت، اقتربت منه لتعديل رأسه المتمايل، حدقت فيه وهو لا يزال في وضعيته التي رقد فيها، فأثار شفقتها.

كان مستسلماً للنوم، كاستسلامه للواقع الذي أمضى حياته يحاوره ويداوره، يبحث عن ذاته في تحد بائس، وتساءلت: ألم يكن من الأفضل أن يضع رأسه على الوسادة.. لم تعرف تماماً نوع الألفة التي تربطها به، لم يكن زوجها فحسب، بل ممتلئاً بكل أشكال الحياة التي تتقاطع فيها انعكاسات النور وهي تعانقه بحرارة، حدثها البارحة ضاحكاً: ألم أخبرك عن الموت؟ إنها الطريقة الوحيدة للطبيعة لتخبرك بأن عملك غير مناسب... انشغلت بترتيب الأوراق المبعثرة على الأرض، ثم التفتت إليه، كان رأسه يتدلى على صدره ثم يميل على كتفه، شعرت بأصداء الانهيارات والإعياءات في دهاليز الروح المظلمة.. أحست بثقل الوقت، أشبه بجبل من الجليد، واللحظات تمر متماهلة حاملة الصدى الكئيب ودون أن تنفرج شفتاه ليقول بصوته الواهن: أين أنت؟ كعادته.. كان جسده ملتصقاً بمقعده، لكن روحه قد فارقته هذه المرة وحلقت بعيداً في الفضاءات البعيدة، لقد انهار الجسد الذي ظل يترنح كقصبة فارعة في كف الريح. شعرت بنداء خفي من أقاصي السماوات التي حلقت روحه باتجاهها، فهي ستبقى عالقة في الكون الفسيح، وسيدفن الجسد المتعب في جوف الثرى بعد أن يلقي نظرته الأخيرة على مياه دجلة والفرات وسهول الحيرة ليحدثنا عن بيت الحكمة وتلال المخطوطات والمعارف المتنوعة المزروعة داخل تلافيف دماغه، يشكو كل الفظاظة واللامبالاة والبلادة، كل ما كان يكرهه، كل متاعبه سيدفنها معه في بقعة من التراب ليدون آخر سفر من أسفاره. ■

المصادر

(١) مهرجان إفرام وحنين. مطبوعات مجمع اللغة السريانية. ١٩٧٤م.

(٢) حنين بن إسحق: في حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها. تحقيق ودراسة محمد فؤاد الذاكري. دار القلم العربي. حلب ١٩٩٦.

(٣) حنين بن إسحق: دراسة تاريخية ولغوية. أحمد الدبيان. مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية. الرياض ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

«الخطر يدق أبوابنا»

أحمد كمال أبو المجد

■■ إنه تحد كبير أن يتحدث المرء عن الإصلاح بعد أن قدمت بشأنه مقترحات ومشروعات عديدة. فالكل يصيح ويهلل ويرفع راية الإصلاح السياسى. ولكن التحدى الحقيقى لكل مكوِّن من مكونات «إعلان الإسكندرية» هو الانتقال من الإعلان إلى الإعمال from declaration to implementation. ذلك أن البون شاسع جداً بين القدرة على صياغة وثيقة بليغة وجريئة وبين إمكانية بث الروح فى هذه الوثيقة وتنفيذها على أرض الواقع. وحين أتحدث عن الإصلاح السياسى، لا أود التنظير ولا أريد الحديث عن مفاهيم مجردة، بل أريد الدخول فى مواجهة مباشرة مع القضايا. وأنا أطرح رأيين لست مسئولاً عن سواهما.

أولاً: أنا مقتنع كل الاقتناع بأنه لا يمكن بحال من الأحوال تحقيق إصلاح اقتصادى أو اجتماعى بدون الإصلاح السياسى. كما أنه لا يمكن تغيير المجتمع بمجرد إشراك علماء الاقتصاد الممتازين، ولا يمكن تغيير المجتمع بتكليف ثلاثين أو أربعين وزيراً جيدين، ومعهم أربعون من الموظفين التكنوقراطيين والبيروقراطيين. فلابد من تحقيق تنمية مستدامة، ولابد من إشراك الجماهير. ولا يمكنك إشراك جماهير غير معترف بها ولا تحظى بالتقدير أو الاحترام؛ بل هى مفروغ من أمرها ومهمشة وتتلقى التوجيهات ليل نهار. كلا، لا يمكنك ذلك. فلا بد أن يكون لدينا شعب فعال، يؤمن بأن له مصلحة فيما يجرى سواء بالخير أو الشر. وبذلك يكون مفهوم الإصلاح السياسى هو السعى لخلق الشروط اللازمة لأى تغيير فعال فى المجتمع وتفعيل هذه الشروط. هذا هو كل ما فى الأمر. ولنكن صرحاء. فنحن عاجزون. وأعنى بنحن هنا الدول العربية كافة. لأن أجندة الإسكندرية أو بيان الإسكندرية. وأود أن أسميه كذلك، لأنه موجز ودقيق ومحدد وعلى قدر كبير من الشجاعة. موجه إلى العالم العربى كله ويتحدث عن العالم العربى كله. وكان ثلث المشاركين من المصريين وكان الثلثان عرباً. وما يَصْدُق على بلد قد يصدق بدرجة مختلفة على غيره، إلا أن هناك قواسم مشتركة وظروفاً سائدة. فقد تكون إحدى الدول أكثر ديمقراطية، وقد تكون دولة أخرى أكثر تقدماً، وربما تكون دولة ثالثة أغنى من غيرها، ولكن يظل هناك طابع مشترك لكل الجهود والممارسات يكتنف العالم العربى من النواحى السياسية والاقتصادية، بل والثقافية.

أما الرأى الثانى، وهو ليس رأياً وإنما بالأحرى جوهر مكونات الإصلاح السياسى، فهو أننى أتحدث دائماً عن مثلث الديمقراطية. والمثلث يتكون من ثلاثة مكونات أساسية. أول هذه المكونات هو المشاركة الفعالة والعريضة من خلال التصويت والعملية الانتخابية وصناديق الاقتراع. ولنكن صرحاء. صحيح أن هناك أشكالاً من الانتخابات، ولكن معظم الحكومات العربية باتت تدمن التدخل فى سير الانتخابات الصحيح، وبذلك أصبحت الانتخابات موضع سخرية. فقليل جداً من الناس يذهبون للإدلاء بأصواتهم، لأنهم يشعرون مقدماً أن أصواتهم لا يُعمل لها أى حساب ولن يكون لها أى أثر. ولذلك فإنهم يبقون فى بيوتهم ولا يشاركون فى الانتخابات من باب احترام الذات، وتوفيراً للجهد الذى لا طائل من ورائه. وشيئاً فشيئاً يفقدون الإحساس بكونهم مشاركين، أو حتى بكونهم معترفاً بهم. وينتهى بنا الحال إلى أن يكون لدينا شكل من أشكال الديمقراطية، غير أنه شكل خال من أى معنى أو أى جوهر، وبذلك نفقد التأييد الفعال لقاعدة السلطة power base وهى ـ فى كل نظام ديمقراطى ـ جماهير الناس المشاركين فى النظام السياسى والمؤيدين له.

يشمل العنصر الثانى إصلاحات أخرى، وخاصة إصلاحات نظام الأحزاب السياسية. ذلك أن التعددية هى اسم لعبة الديمقراطية. والتعددية قد تكون اسمية، وربما تكون تعددية حقيقية. فحينما تكون لدينا أحزاب سياسية تخلو من أية فاعلية، وليس لديها أى أمل فى أن تشارك يوماً ما فى إدارة الأمور، فلابد حتماً أن تصل إلى إحدى نتيجتين مفجعتين: فإما أن تصبح مهلهلة ومترهلة وغير فعالة ولا أمل لها فى المشاركة، أو أن تصبح متشددة، وقد تهجر فى يوم من الأيام القنوات التى ثبت عدم جدواها إلى قنوات أخرى غير مشروعة ولا يخلو استخدامها من المخاطر.



لذلك فإننا حين نتكلم عن الإصلاح، لابد أن نفعل ثلاثة أشياء. من هذه الأشياء إصلاح النظام الانتخابى نفسه، أى أن نجعله نيابياً بقدر الإمكان؛ وإن كنت لا أظن أن هذه هى أول النقاط المهمة. ففى الولايات المتحدة حزبان سياسيان. ربما لا يكون الفرق بينهما كبيراً. ولكن جوهر اللعبة الديمقراطية هو التوازن. فهناك حزب ما ينتقد وحزب آخر فى السلطة. وهذه الثنائية الخاصة بالمحاسبة والوجود فى موقع السلطة تخلق الاستقرار، وتوجد رادعاً ما، وتحقق الشفافية التى هى ضمان للجميع. ولكنك حين تُضعف الأحزاب الأخرى، فإنه ينتهى بك الحال وقد خلقت احتكاراً للسلطة السياسية. وأخطر ما يمكن أن يحدث لدولة من الدول هو احتكار مراكز السلطة السياسية بالقدر الذى يقضى على دور الأغلبية الحقيقية للشعب ويؤدى إلى استبعادها. ولذلك فلابد لنا من تغيير أو إصلاح نظامنا الانتخابى، مع أنه ليس شديد السوء. بل ليس سيئاً. ولكن الأمر الأكثر

مقتطفات من محاضرة عن الإصلاح السياسى ألقاها الدكتور كمال أبو المجد فى غرفة التجارة الأمريكية بالقاهرة

ترجمة: أحمد محمود

تأجيل الإصلاح دعوة للمجهول!

أهمية هو إحياء التنوع، ومراجعة نظام الأحزاب السياسية، والقانون الخاص المنظم له. واسمحوا لى أن أقدم لكم مثالاً يدل على مدى كون التعددية غير حقيقية. فهناك شرط فى قانون الأحزاب فى مصر ينص على أنه لكى يتم الاعتراف بأى حزب جديد، ولكى يشارك هذا الحزب فى الحياة السياسية، لابد لهذا الحزب الجديد من إبداء قدر كاف من الاختلاف عن الأحزاب السياسية القائمة بالفعل. إلا أن اللجنة التى تناقش هذا الاختلاف الذى يبرر تأسيس حزب جديد لا تتعامل مع البرنامج كحزمة واحدة، بل تتعامل مع كل بند على حدة. ولنفترض أننا أردنا الآن تأسيس حزب يسمى «الحزب التقدمى»، على سبيل المثال. فماذا ستفعل اللجنة؟ إنها لن تقارن أهدافك أو برنامجك أو توجهك أو إستراتيجية الإصلاح الخاصة بك بما لدى الأحزاب الأخرى، بل ستأخذ البند الأول. تعزيز حرية التعبير. وتقول هذا موجود عند حزب الوفد، أو احترام الأسرة، وتقول إن هذا على قائمة الحزب الفلانى. إذن، فالطريقة الوحيدة للحصول على الموافقة هى انتهاك الدستور أو كل المعايير القانونية والابتعاد عن سائر الجماهير والأحزاب السياسية.

المكوّن الثانى من مكونات الإصلاح السياسى هو ضمان الحقوق الإنسانية والسياسية والمدنية التى ينص عليها الدستور وتنفيذها. ودستورنا متقدم جداً. وهو يضم فصلاً كاملاً عن الحقوق، والواجبات بالطبع، يضارع أكثر الدساتير تقدماً، مثل الدستور الفيدرالى للولايات المتحدة أو دستور بريطانيا العظمى غير المدون، أو دستور ٥٨ فى فرنسا، أو أى دستور حديث آخر. ولكن ليست هذه المشكلة. فالمشكلة هى تحويل الدستور من برنامج معلن للتطلعات السياسية إلى واقع فى الحياة اليومية. ويتحقق هذا من خلال أمرين: التثقيف السياسى والقضاء المستقل. وهناك حاجة ماسة إلى التثقيف السياسى. وقد اكتشفت من خلال تجربتى الطويلة مع حقوق الإنسان أن ما ينقصنا هو ثقافة احترام حقوق الإنسان. فالشعب، والأفراد، والمحكومون، لم يعلّمهم أحد قط أن يتمتعوا بحقوقهم. ولذلك فإنهم حين يطالبون بها يفعلون ذلك باستكانة، ويشعرون بالذنب أحياناً، ويتسولون حقوقهم. والحاكم. وأعنى بالحاكم كل من لديه جزء صغير من السلطة. لم يقل له أحد فى يوم من الأيام إن هناك حدوداً قانونية للسلطة وأن الموظف العام مهما علا فى سلم السلطة خادم مدنى وليس سيداً مدنياً، وإن عمله هو خدمة الناس وليس السيطرة عليهم. ولذلك فإنه فيما بين طرفى المعضلة هذين، لم يقل أحد للمجتمع إن له حقوقاً يدافع عنها أو يطالب بها، ولم يقل أحد للسلطة إن هناك بالفعل حدوداً وإنها تخضع للمحاسبة طبقاً للدستور. صحيح أن هناك فرقاً كبيراً بين بلد وآخر. ولكننى أعمم كى أصف الوضع. ولكننا، حتى هنا فى مصر، أمامنا شوط طويل لابد أن نقطعه، ولابد أن تكون لدينا الجرأة كى نعبر عما يدور فى عقولنا.



المكوّن الثالث هو حكم القانون. وحكم القانون معناه ببساطة، حسب المصطلح المستخدم فى مجال القانون ومجال العلوم السياسية، هو تحويل نظام الحُكم من حُكم الرجال والنساء إلى حُكم القوانين a government of laws not of men وفى ظل حُكم القانون، يشعر الناس بالأمان. وبدون الشعور بالأمان، فإن جماهير الناس تلجأ إلى العصيان المدنى، بغض النظر عن قوة الحكومة، ومهما كانت قوة وزير الداخلية أو أى وزير غيره، لأن الأفراد لديهم دائماً وسائلهم للتعبير عن الاستياء من خلال العصيان المدنى بالصياح غير مبالين باحتياجات المجتمع وبقضية التنمية.

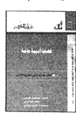
تلك هى المكونات الثلاثة لمثلث الديمقراطية. والنقطة التى أريد أن أختم بها كلامى هى أن أحد أخطر الأشياء التى تواجهنا هو تلك العادة السيئة القديمة الخاصة بالإنكار denial. فنحن لدينا ثقافة خاصة بالرضا عن الذات وأحلام اليقظة والتفكير بالتمنى. ولذلك فإنه حين يبدأ شخص ما بالنقد، يُقال له «إنك تبالغ. أنت متشائم. كل شىء على ما يرام». وبين الحاضرين فى هذا التجمع أطباء. وهم يعرفون أن أخطر ما يقال لشخص يعانى من علة ما إنه على أحسن ما يرام «زى الفل» وليست هناك أية مشكلة. فتلك هى بداية الطريق إلى الكارثة. ذلك أن معرفة المشكلة هى الخطوة الأولى نحو حلها. وأغامر بالقول بأننا نواجه فى مصر والعالم العربى، سواء أدركناه أم لم ندركه، واحداً من أخطر الأوضاع المأزومة فى تاريخنا الحالى. فالخطر يدق أبوابنا، سواء سمعنا دقاته أم لم نسمعها. والتفرق العربى قد بلغ مداه بل تجاوز كل مدى وعبر عن حجمه الحقيقى فى اجتماعات القمة الأخيرة بما لا يحتاج إلى شرح أو إضافة أو انتحال للمعاذير. وأى تأخير فى مواجهة التحدى وفى تفعيل برامج الإصلاح وتنفيذها قد يكون الحد الدقيق الفاصل بين المستقبل الزاهر الآمن المستقر وبين استدعاء المجهول. وأكررها: أى تأخير فى مواجهة التحدى وفى تنفيذ الإصلاح الاقتصادى والثقافى والسياسى قد يكون اجهاضا لكل الآمال الخاصة بالرفاهية ودعوة للمجهول.

وأنهى كلامى بكلمة بسيطة، وهى أن الضمان الحقيقى والوحيد للأمن والاستقرار هو الحفاظ على ما تبقى من قنوات ديمقراطية مفتوحاً لا يعوقه شىء. أما إذا ما سُدت تلك القنوات، فسوف يكون ذلك دعوة صريحة للعمل غير الشرعى ودعوة غير مسئولة للمجهول، لا سمح الله ولا قدّر. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

قضايا أدبية عامة

إيمانويل فريس - برنار موراليس
ترجمة: لطيف زيتونى
الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٤، ٢٨٥ صفحة



يتطرق الكتاب إلى قضايا أدبية عامة لم تبحثها النظرية الأدبية البنيوية، وينشغل بقضايا مثارة فى الراهن الثقافى من نوع: ما هو تأثير العمل الأدبى فى محيطه؟ وما هو الأثر الأدبى؟ من هو المؤلف؟ كيف يمكننا التعامل مع المشاريع غير المنجزة والمسودات التى يخلقها بعض الكتاب قبل رحيلهم؟ ما أثر الرقابة فى عمل الكاتب؟ وما هى المعارف التى ينقلها العمل الأدبى؟

عبر فصول أربعة يناقش المؤلف هذه القضايا دون أن يزعم أنه يقدم إجابات حاسمة، لكنه يثير الاهتمام بها استناداً إلى أبحاث سوسيولوجية تم إنجازها فى أواسط السبعينيات، ولذا فهو لا يقتصر على بيئة أدبية بعينها وإنما يبحث قضاياه فى فضاء مفتوح لا ينتمى إلى أدب بعينه، وفى إطار هذا التحليل ينتقد المرتكزات النظرية التى سيطرت ومازالت على أساليب التعاطى مع النص الأدبى، ويطرح وعياً نقدياً جديداً يولد قدراً من الحيوية الفكرية نحو مزيد من الإنجاز فى الإطار ذاته.

هو لا يقدم للقارئ نظرية أدبية جاهزة أو خريطة ومبادئ استرشادية فى الدرس الأدبى، لكنه يقدم درساً فى بناء النظرية.

■

أصل السلطة السياسية وطبيعتها

محمد عبد الشفيع عيسى
القاهرة: دار الكلمة، ٢٠٠٤، ١٣٧صفحة



فى أعقاب الغزو الأمريكى للعراق أثيرت عشرات الأسئلة، ومازال سؤال الديمقراطية هو أكثر هذه الأسئلة إثارة ليس فقط على صعيد غيابها. أى الديمقراطية. وهى بالفعل غائبة، وإنما كذلك عما تعنيه حتى داخل الدول التى تدعى الديمقراطية وفى طليعتها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، وقد كشفت الأحداث الأخيرة عن ضلوعهما فى قضايا تعذيب وحشية وانتهاك صارخ لحقوق السجناء العراقيين، وهو ما يتنافى تماماً مع كل دعاوى الديمقراطية وحقوق الإنسان التى تتشدق بها الدولتان.

المؤلف يقدم مساهمة تستحق النقاش فيما يتصل بموضوع الديمقراطية بعيداً عن المثلية السياسية التى صبغت أغلب الطروحات حولها أو حتى الانتهازية التى ميزت اجتهادات أخرى، وهو يجعل الديمقراطية مشروطة بمحددات اجتماعية معينة، بينها طبيعة تقسيم العمل الاجتماعى ومستوى التطور الطبقى والقومى.

والمؤلف فى سعيه لتقديم هذه الاستخلاصات يستعين بالأنثروبولوجيا والفلسفة، وينتهى إلى أن التقدم التاريخى يتحقق تلقائياً أو مجانياً، ولكن بتوفير مقومات الإرادة الإنسانية التى تمارس دورها من خلال الجدل الاجتماعى للإرادات.

■

المقاومة والعالم

عبد الخالق فاروق
القاهرة: إصدارات سطور، ٢٠٠٤، ٢٣١ صفحة



الفرضية التى يطرحها المؤلف هنا مفادها أن العالم بصدد تشكل ملامح علاقات دولية جديدة، ترسى قسماتها الأساسية المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأنجلو أمريكى، وهو يشير إلى أن هذه العملية التاريخية لن يكتب لها النجاح مالم تتحل المقاومة ببعض المقومات والعناصر الأساسية التى تدعم مواقفها وتوحد صفوفها فى مواجهة الاحتلال، ويقدم المؤلف عدداً من السيناريوهات لما يمكن أن تسفر عنه المواجهة: السيناريو الأول، أن تنجح الولايات المتحدة فى «عرقنة» الصراع أى تحويله إلى صراع داخلى بين الطوائف والفرق العراقية المختلفة، وهذا السيناريو يوفر منفذاً آمناً للولايات المتحدة كى تنسحب من العراق على خلفية المشهد الدموى ودعاوى الحرب الأهلية، السيناريو الثانى، أن تنجح الأمم المتحدة فى الضغط على أمريكا فى ظل إدارتها الجديدة عام ٢٠٠٥ كى تدير عملية سياسية حقيقية تقوم على التوافق بين القوى السياسية الفاعلة فى العراق، وهذا السيناريو يواجه احتمالات استمرار المقاومة مادامت قوات الاحتلال باقية، كما أنه يواجه تناطح القوتين الكبيرتين فى الساحة العراقية الجديدة وهما حزب البعث والتيار الدينى من سنة وشيعة، ويقوم السيناريو الثالث على افتراض نجاح المقاومة العراقية فى صياغة برنامج سياسى توافقى يجبر قوات الاحتلال على الانسحاب، ويشير المؤلف إلى تداعيات كل من هذه السيناريوهات ونتائجها، على أنه يؤكد فى النهاية على أن صدقية الأمم المتحدة واستعادتها لدورها يبقى مرهوناً بمدى فاعليتها وتواجدها فى الشأن العراقى.

■

عذراء أورليان

فريدريش شيللر
ترجمة: عبد الرحمن بدوى
الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون، ٢٠٠٤



من خلال مطالعات شيللر لتاريخ العصور الوسطى لفتت انتباهه شخصية جان دارك، تلك الفتاة الصغيرة التى كانت ترعى الغنم، والتى قادت الشعب الفرنسى إلى النصر والثورة ضد الاحتلال الإنجليزى، والتى تمسكت بالعدالة واختارت الموت حرقاً بعد أن حكم عليها بالكفر والإلحاد، نتيجة الجهل والخيانة، بعد أن كشفت أردية الزيف والشعارات الكاذبة التى تطلقها السلطة السياسية والعسكرية والدينية، واكتسبت شعبية كبيرة بين أبناء وطنها، والحكمة الأساسية التى تشير إليها المسرحية والتى أكد عليها شيللر، أن على الأمم المتحدة إذا أرادت أن تتحرر وتواجه الأطماع الخارجية أن تصلح ما بينها أولاً، فالاتحاد هو الذى يصنع إرادة الأمم ويحقق مجدها.

■

حبر على ورق

نوال مصطفى
القاهرة: الأمل للنشر، ٢٠٠٤، ٢٢٣ صفحة



صور قلمية لمشاعر وذكريات ومواقف عاشتها الكاتبة، وهى فى مجملها ذات صبغة إنسانية تخاطب الوجدان وتناشد فى الإنسان أنقى ما بداخله، كما أنها دعوة للتفاؤل ومواجهة صعوبات الحياة بالأمل والتطلع للمستقبل.

من أجواء الكتاب: الحياة أن تعيش طفلاً منطلقاً، وتتأمل ما حولك بحكمة فيلسوف، وتتخذ قراراتك بحرية زعيم متمرد، ولا تنظر وراءك لتبكى على ما فاتك، وأن تتطلع إلى القادم من الأيام بروح متوثبة إلى أمل جديد حتى لو كان صغيراً، يجعل للحياة معنى وللأيام طعماً.

■

دواير

شريف مليكة
القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٤، ٨٠ صفحة

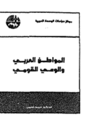


ديوان جديد لطبيب مصرى يقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ عشرات السنين، كتبه بالعامية المصرية مازجاً بين الروح النقدية الساخرة فى النقد الاجتماعى والسياسى التى تميز بها بيرم التونسى وسلاسة ورشاقة صلاح جاهين، مع احتفاظه بأسلوب مميز.

من أجواء الديوان: الفقر دابح/ وتا دمى سايح/ وغضبى جامح/ على كارو سارح/ أبيع موالح/ بالعافية رابح/ قام جانى القارح/ ده ليلة إمبارح/ قال الوايح/ ليك ما أبقى لامح/ من يوم ورايح/ وبلاش فضايح/ حنبدل مطارح بأجمل ملامح/ ونبنى المسارح/ هجموا الجوارح/ عسكر يكافح/ ع الحرب رايح/ ومسكنى ناطح/ لدماغى فاتح/ وكرامتى ماسح/ قوللى يا ناصح/ إن كنت لامح/ عن حل واضح.

■

المواطن العربي والوعي القومي
حميد قهوي
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٣٩١ صفحة



عبر أساليب البحث العلمي الميداني ينتهي الكتاب إلى أن الوعي القومي عند المواطن العربي العادي موجود في حالة كمون، وهو يظهر في اتجاهات سلبية وإيجابية تبعاً لنوعية الأحداث والظروف القومية والقطرية، فيما تجبر الأحداث اليومية وسعي المواطن العربي اللاهث خلف لقمة العيش هذا الاتجاه على الاستكانة، وتشير الدراسة كذلك إلى وعي المثقف القومي بالتحولات الجارية وانفتاحه على الخطابات المنافسة وإدراكه لمخاطرها مثل ظاهرة العولمة.

السجون والتعذيب من العصر الفرعوني حتى ثورة يوليو ١٩٥٢
عادل زناتي
القاهرة: جمعية حقوق الإنسان لمساعدة السجناء، ٢٠٠٤، ١٨٢ صفحة



تقدم هذه الدراسة الطريفة والجادة في آن معاً رؤية شاملة لأوضاع السجون في مصر، وهي لا تكتفي باستعراض أوضاع السجون والمساجين وإنما تبحث أيضاً في الأوضاع التشريعية والقضائية التي سادت في كل مرحلة.

والمصادر التي تم استقاء النظام القانوني منها، وأنواع الجرائم في كل عصر والعقوبات التي وقعت على مرتكبيها، وعمليات التعذيب التي مورست ضد السجناء.

وفي هذا الإطار تشير الدراسة إلى عقوبات الإعدام والعقوبات الشرعية وعقوبات القصاص والدية في العصر الإسلامي، وكذلك العقوبات السالبة للحرية وعمليات التعويق في زمن المماليك، ثم خطوات إصلاح القضاء وتنظيم المحاكم في مصر العثمانية، ويشير إلى نوعيات من الجرائم التي ربما لم تكن معروفة قبل العصر العثماني أو لم تحدد لها عقوبات واضحة مثل جرائم الوظيفة العامة والجرائم الاقتصادية وجرائم الآداب العامة والجرائم المتعلقة بالجهاز العسكري.

ويتناول الأوضاع التشريعية ونظم التقاضي في عهد محمد علي وخلفائه، وصولاً إلى أوضاع السجون والمساجين منذ الاحتلال وحتى ثورة يوليو.

محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين
جورج بوش
ترجمة وتحقيق: عبد الرحمن الشيخ
الرياض: دار المريخ، ٢٠٠٤، ٦٦٨ صفحة



مؤلف هذا الكتاب هو الجد الأكبر للرئيس الأمريكي جورج بوش، وقد كان واعظاً وراعياً لإحدى الكنائس في أنديانا بولس وأستاذاً في اللغة العبرية والآداب الشرقية في جامعة نيويورك، وله مؤلفات وأبحاث في شروح أسفار العهد القديم من أهمها كتابه هذا، الذي ينطوي على بذاءات وافتراءات نجدها في عديد من كتب المستشرقين غير الأمناء، والذين تعميهم أغراضهم عن رؤية الحقائق.

والكتاب صدر للمرة الأولى عام ١٨٣٠، وهو يكشف عن أحد مصادر الفكر العنصري الأمريكي المتطرف الذي كان متداولاً في دوائر البحث العلمي والأكاديمي ولايزال.

والكتاب. حسبما يؤكد محققه. نموذج صارخ على كراهية الأديان الأخرى وتحريض فج على العنصرية، فالمؤلف لا يكتفي بمهاجمة الإسلام ونبي المسلمين، وإنما يهاجم كل المذاهب المسيحية الشرقية.

موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي وإيران وتركيا
أحمد الموصلي
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٤٩١ صفحة



تهدف هذه المجموعة إلى تزويد القارئ بالمبادئ والمفاهيم والعقائد الخاصة بالجماعات الأصولية الإسلامية

أسس ومفاهيم اتخاذ القرار

نظم دعم اتخاذ القرار والأنظمة الذكية
علي فهمي
القاهرة: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع. ٢٣١ صفحة. ٢٠٠٤



عبر تاريخ الحضارة الإنسانية الطويل مروراً بعصر الزراعة وعصر النهضة ووصولاً إلى العصر الحالي عصر المعلومات تعددت الوسائل المتاحة لجمع البيانات ومعالجتها بصيغ مختلفة للحصول منها على المعلومات التي ساعدت الإنسان في التصدي لمشاكله المختلفة وتقدمه في شتى المجالات. وقد ساهمت الاختراعات والاكتشافات المختلفة في بناء تكنولوجيات متعددة وظهور علوم حديثة. علوم وتكنولوجيا نظم دعم اتخاذ القرار تأتي في مقدمة هذه التكنولوجيات فهي تعتبر بحق واجهة تكنولوجيات نظم المعلومات والشبكات لمن يقود البشرية، ألا وهم القادة ومتخذو القرار.

يشهد علم دعم اتخاذ القرار تغيرات كثيرة ويرجع الفضل في ذلك إلى التطور المذهل في علمي الشبكات والذكاء الاصطناعي. لقد ولد دعم اتخاذ القرار من خلال التكامل بين علوم الإدارة وعلوم بحوث العمليات وعلوم الإدراك. والآن ينمو هذا العلم في ظل التكامل مع نتائج البحوث المتقدمة في مجال إدارة قواعد البيانات وفي مجال شبكات الإنترنت وشبكات الأنترانت وشبكات الإكسترانت وفي مجال النظم الخبيرة وفي مجال الشبكات العصبية والخوارزميات الجينية والمنطق الغازي.

علوم الإدارة وعلوم بحوث العمليات وعلوم الإدراك هي التي أرست المفاهيم الأساسية لعلم دعم اتخاذ القرار حيث نجد مفهوم القرار وعملية اتخاذ القرار ومفهوم النماذج المختلفة لدراسة عملية اتخاذ القرار، وحيث نجد كيفية تمثيل ومحاكاة النظم الحقيقية (Moodeling and simulation) من خلال النماذج الكمية والنماذج الوصفية والأساليب الرياضية المختلفة المستخدمة في حل هذه النماذج مثل أساليب البرمجة الخطية وغير الخطية ونظريات الأرتال والصفوف.

علوم إدارة قواعد البيانات الحديثة تقع الآن في قلب نظم دعم اتخاذ القرار، حيث نجد مفاهيم حديثة مثل قواعد البيانات الشيئية والتي تتيح التعامل مع البيانات بجميع صورها: النصوص، الرسومات، الصور، الصوت، الفيديو. ونجد أيضاً الوسائل الفورية لتحليل البيانات (OLAP) والتعامل مع مستودعات البيانات (Data Warehouses) الموزعة على الفروع المختلفة للمؤسسة.

ودخلت علوم الذكاء الاصطناعي بثقلها لرفع كفاءة وجودة القرار ورفع كفاءة عمليات البحث بين بدائل الحلول المتعددة. فالنظم الخبيرة ساعدت في صياغة نماذج اتخاذ القرار في ظل التأكد (Uncertainty) وعدم وجود المعلومات الكافية (Uncompleted) وساعدت في نقل خبرة المتخصصين في التعامل مع المشاكل إلى نظم الدعم. أما نظم الشبكات العصبية الاصطناعية (Artificial Neural Networks) فهي تستطيع التغلغل داخل آلاف سجلات البيانات (Data Mining) لاستنباط العلاقات البينية الدفينة داخل هذه البيانات. وهي تساعد متخذ القرار في الربط بين خصائص المشكلة والمشكلة نفسها وتساعده أيضاً في التعرف على الفرص المتاحة من خلال قدرتها على التعلم. أما تكنولوجيات الخوارزميات الجينية والمنطق الغازي فقد بدأت في شق طريقها داخل أنظمة دعم اتخاذ القرار بغرض مساعدة متخذ القرار في الوصول إلى الحل الجيد وشبه الأمثل بكفاءة عالية وفي صياغة ما لديه من معرفة بديهية.

(Common Sense) عن النظام الحقيقي ومعالجة المشاكل واستغلال الفرص.

تكنولوجيا الإنترنت ساهمت بشكل كبير في بلورة نظم دعم اتخاذ القرار الجماعية من خلال عقد جلسات اجتماع افتراضية (virtual) وجلسات عصف الأفكار (Brain Storming) دون الحاجة إلى التواجد الفعلي في مكان واحد. كما أفرزت تكنولوجيا الإنترنت تكنولوجيا الوكيل الذكي (Inteligent Agent) لمساعدة متخذ القرار في القيام بالأعمال الروتينية طبقاً لنمط وسلوكيات متخذ القرار في العمل. فهي تتمتع بخاصية التعلم والمواءمة وتزداد كفاءة مع كثرة الاستخدام.

الغرض الرئيسي لهذا الكتاب هو تعريف الدارس العربي بهذه التكنولوجيات المختلفة والتي يطلق عليها مجمعة تعبير نظم الدعم الإداري.

أو حركات الإسلام السياسى فى الوطن العربى وإيران وتركيا، وتتضمن الشخصيات الرئيسية والثانوية للحركات الإسلامية بالإضافة إلى الأصوليين المستقلين.

كما تتضمن الموسوعة دراسة شاملة بعنوان «الخطابات الأيديولوجية والسياسية الإسلامية الحديثة والمعاصرة» تقدم ثلاثة مداخل فكرية نظرية وسياسية حول رؤية الحركات الإسلامية لطبيعة المعرفة ومبادئها، والتطورات الحاصلة فيما يتصل خصوصاً بالتعددية والديمقراطية.

قبل الفجر بساعة

جيمى كارتر

ترجمة: كمال السيد

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٤، ٢٨١ صفحة



فى هذه المذكرات يحكى الرئيس الأمريكى الأسبق عن طفولته فى عصر الكساد الكبير قبيل حركة الحقوق المدنية التى قلبت أمريكا رأساً على عقب.

ويقدم لوحة إنسانية عن حياة الريف التى عاشها مع أسرته وخمسة أشخاص أثروا فى تشكيل عقله ووجدانه بينهم ثلاثة من السود بأسلوب روائى سلس.

هذه المذكرات تقدم الوجه الإنسانى للرئيس كارتر فى مراحل تنشئته الأولى وقبل وصوله للبيت الأبيض والإنجازات التى حققتها إدارته فى الفترة من ١٩٧٧ وحتى ١٩٨١.

وأهمها اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل ومعاهدات قناة بنما ومعاهدة سولت ٢ مع الاتحاد السوفيتى وإعادة العلاقات الدبلوماسية مع الصين.

فضلاً عن التزامه بحقوق الإنسان ودعمه للحركات الداعية للحرية فى مختلف أنحاء العالم.

تجربة الرئيس كارتر ثرية وتمثل حياة مئات الأسر الأمريكية فى مرحلة مهمة من مراحل تطور أمريكا.

كما أنها تعكس تأثير اللبنات الأولى على شخصيته التى وصمت أحياناً من باب السخرية بأنها أخلاقية أكثر مما ينبغى لمشتغل بالسياسة، وربما يمكن اعتبار سياسة بوش هى النقيض تماما لتوجهات كارتر الأخلاقية

لماذا الوحدة العربية؟ وكيف؟

شبلى العيسمى

دمشق: المؤلف، ٢٠٠٤، ٤٥١ صفحة



فى هذا الجزء الثانى من الكتاب يجيب المؤلف عن سؤال كيف، وهو يقر منذ البداية بأن تأثير الفئات المنادية بالوحدة العربية والعاملة من أجلها تضاءل إلى حد كبير، فيما تصاعد إلى حد بعيد أثر القوى المعادية لها، وصارت أكثر جراءة فى تسفيهها واستبعادها، إلى الحد الذى تمارس فيه نوعاً من الإرهاب الفكرى وتصف المنادين بالوحدة بأنهم واهمون.

والمؤلف يركز على توضيح الوسائل التى يراها من وجهة نظره عملية وممكنة لبناء الوحدة العربية بصيغتها الاتحادية الفيدرالية، ضمن أسس ومضامين تجعلها قابلة للنجاح وفى مقدمتها الديمقراطية التى اعتبرها شرطاً لازماً لتحقيق الوحدة، ويقدم المؤلف محاولة لتعديل الخطاب الوحدوى الذى ساد فى العقود الأخيرة واتسم بكثير من الانفعال والارتجال.

الإسلام فى مواجهة الاستئصال

حلمى محمد القاعود

القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٤، ١٩١ صفحة



مجموعة من الدراسات التى تتناول قضايا مختلفة يجمعها خيط مشترك هو التصدى لمحاولات استئصال الإسلام من حياة الناس وواقعهم الاقتصادى والاجتماعى والثقافى، وتناول المؤلف يبدو متشعباً يبدأ من الخطر اليهودى الذى يستأصل الإسلام فى فلسطين، حتى محاولات تخريب التعليم والتدخل فى مناهج التربية الدينية فى عديد من الدول العربية، مروراً بالحرب الدامية التى يشعلها المتآمرون فى أرجاء العالم الإسلامى، فضلاً عن محاولات تشويه الفكرة الإسلامية وتحويلها إلى حالة دموية ضد الفطرة والإنسانية وجعلها مرادفاً للإرهاب.

راكوتى

رئيس التحرير: مينا بديع عبد الملك

القاهرة: جمعية مارمينا العجايبى للدراسات القبطية، ٢٠٠٤



هذا هو العدد الثانى من هذه الدورية التى تعنى بالدراسات القبطية والفنون القبطية فى الحاضر والماضى، وقد اعتبرناها فور صدور عددها الأول إضافة جديدة ومهمة للدوريات المتخصصة فى مصر، وفى هذا العدد يكتب الدكتور ميشيل بديع عن موسيقى وألحان الكنيسة القبطية، وفى الباب الخاص بالرسائل الجامعية عرض لرسالة عن العمارة القبطية، ويكتب الدكتور صبحى عبد الملاك، عن الأقباط فى عصر الولاة، كما يكتب الدكتور عزيز سوريال عطية عن الإسكندرية فى العصر القبطى، ودراسة عن طريقة الحساب فى العصر القبطى يكتبها عادل فخرى صادق، بالإضافة إلى أبواب المجلة الثابتة ومنها حفائر قبطية ومختارات من المكتبة القبطية.

أمريكا التى تعلمنا الديمقراطية والعدل

فهد العرابى الحارثى

الرياض: المؤلف، ٢٠٠٤، ٤٩٠ صفحة



يعرض الكتاب للسياسات الأمريكية فى المنطقة وفى العالم قبل أحداث ١١ سبتمبر وما بعدها، ويقدم صوراً للممارسات الأمريكية قديماً وحديثاً داخل أمريكا وخارجها، فى محاولة للكشف عن النوايا الأمريكية الحقيقية تجاه العالم كله، مؤكداً أن عقيدة الصقور لم تتغير منذ التأسيس وحتى عصر الهيمنة الحالى، فسيادة أمريكا على العالم بحسب هذه العقيدة هى إرادة إلهية، ويخلص المؤلف إلى أنه كان بمقدور الولايات المتحدة أن تقود العالم بدلاً من أن تسعى إلى قهره واضطهاده، والقيادة تختلف جذرياً عن الهيمنة، فالأولى تحمل معنى المشاركة والإحساس بالدور والواجب تجاه الإنسانية فى مرحلة مهمة من تاريخها، فيما تبقى الثانية عند حدود الاستغلال والاستنزاف، الأولى هى منطق الدول الكبرى والحضارات العظيمة أما الثانية فهى منطق قطاع الطرق والغزاة والمستعمرين. والكتاب يعتمد على تاريخ الولايات المتحدة المكتوب ووثائقها الرسمية، فضلاً عن تصريحات كبار المسئولين فيها وخطبهم، وتحليلات المثقفين والأكاديميين الأمريكان.

ثمانية عشر رجلاً وامرأة واحدة

سيد خميس

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤، ٢٨٨ صفحة



هى طريقة ما فى كتابة المذكرات، أى أن تكتب عمن عرفت وعاشرت، وبعض هؤلاء عايشهم المؤلف. رحمه الله. واقترب منهم إلى الحد الذى يجعل الكتابة عنهم سرداً لسيرته وسيرتهم معه.

ولأنهم شخوص فاعلون فى الحياة الثقافية والعامة المصرية، وأصحاب مواقف ورؤى، فإن الكتابة عنهم تبدو رصداً للواقع المصرى فى تحولاته السياسية والاجتماعية واختياراته الثقافية والفكرية، فى مراحل بعينها.

أما الثمانية عشر رجلاً الذين اختار أن يكتب عنهم، من بين مئات ممن عرف من مصريين وعرب كما يقول فى مقدمته فهم: صلاح جاهين وعبد الرحمن الأبنودى وسيد حجاب وأمل دنقل وسليمان فياض وإبراهيم أصلان ومحمد سيد كيلانى وخالد محمد خالد ومحمد حافظ رجب وآدم حنين وجودة خليفة ومحمد جاد الرب ورضوان الكاشف وبيرم التونسى ونهاد بهجت وعبد القادر حاتم والفنان الفلسطينى مصطفى الحلاج والمناضل الفلسطينى صبرى البنا (أبو نضال)، أما السيدة الوحيدة التى رأى المؤلف أنها تستحق الذكر فى كتابه فهى أمه شوق منصور الوليلى.

والملاحظة الأساسية هنا فيمن اختارهم المؤلف من أصدقاء يوردهم فى سيرته أو يحكى عنهم، أن ثلثهم تقريباً من الشعراء وبينهم شاعر فصحى واحد (أمل دنقل) أما البقية فهم كتاب وفنانون، وليس بينهم سوى مفكر دينى واحد كان مشهوداً له بالاستنارة واتساع الأفق ودفاعه المجيد عن الديمقراطية والحريات فى مواجهة الرئيس عبد الناصر حين كان فى عز صولجانه وجبروته.

ولعل مثقفى الجيل الذى ينتمى إليه المؤلف قد تأثروا جميعاً بكتابه المهم «من هنا نبدأ» الذى كان صرخة فى وجه

الطغيان والاستبداد والتنظيم السياسى الواحد.

كما أن الوحيد من المسئولين التنفيذيين الذين عنى المؤلف بالحديث عن تجربته معهم، وتجربته فى القطاع الذى تولى إدارته والإشراف عليه، فهو عبد القادر حاتم الذى تولى إدارة التليفزيون المصرى فى بداية ظهوره.

أما المرأة الوحيدة التى اختار أن يكتب عنها (الأم) فمن الواضح أن تأثيرها على المؤلف كان كبيراً ومستمراً.

وهى كما ظهرت فى الكتاب امرأة عادية مثل ملايين من الأمهات فى قرى مصر ونجوعها، إلا أنها استثنائية فى اعتزازها بكبريائها وكرامتها ورفضها العنيد لمنطق المجتمع الذكورى وكل ما يحاول أن يفرضه باسم الدين والتقاليد، كما أنها كانت تحفظ مئات من أبيات الشعر العامى والأساطير والحكايات الشعبية التى أرضعتها لأبنائها، وقد أثر ذلك على توجهات المؤلف الذى شغلت الميثولوجيا والأدب الشعبى حيزاً كبيراً من كتاباته.

■

ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة

محمد الجوادى

القاهرة: جهاد للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ٢٤٠ صفحة



يستعرض الكتاب ثلاثية العلاقة بين السياسة والتاريخ والأدب والتأثيرات المتبادلة بينها، من خلال عدد كبير من أدبائنا الكبار ومفكرينا الذين أثروا حياتنا بما قدموه فى مجالات إبداعية مختلفة، وهو يقدم من ناحية ثانية الوجه الآخر لهؤلاء المبدعين من خلال مواقف بعينها، وبدون هذا الجانب الخفى فإن معرفتنا بهم تظل ناقصة أو مشوشة فى أحسن الفروض.

يتحدث المؤلف مثلاً عن سر حكمة توفيق الحكيم وشخصيته الحقيقية بعيداً عما شاع عنه أو أشاعه هو عن نفسه، بهدف إضفاء هالات من الضوء حوله تسهم فى تأكيد شهرته، كالحديث عن بخله أو عداوته المفرطة للمرأة أو انبهاره بارتداء البيريه الفرنسى والعصا.

ويتناول العداء بين العقاد والملك فؤاد وكيف تطور هذا الموقف حتى دخول العقاد السجن، وفى الفصل الثالث يقدم الوجه الآخر لطه حسين، وفى الرابع يروى قصة زواج عبد الحميد جودة السحار من خلال نصين من كتبه.

كما يتناول ثنائيات العلاقة بين بعض أقطاب حياتنا الأدبية، كالعلاقة بين أحمد أمين وطه حسين وصدى هذه الخلافات فيما كتبه لويس عوض وعبد الرحمن بدوى ومحمود أمين العالم وغيرها من القضايا.

ويقدم صورة غير معهودة للظلم الذى تعرض له بعض الأدباء فى مقابل الإنصاف الذى واجه آخرين.

وفى موضع آخر يستعرض ملامح الحياة الاجتماعية فى مصر من خلال بعض النصوص الأدبية، ويخصص لهذه الفكرة ثلاثة فصول من الكتاب، فضلاً عن موضوعات عديدة ذات صلة بموضوع الكتاب.

■

قوم لا يتطهرون

محمد كامل حسين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٢٦١ صفحة



ولد الدكتور محمد كامل حسين (١٩٠١ - ١٩٧٧) فى إحدى قرى المنوفية، وظهر تفوقه الدراسى منذ بواكير حياته وظل أول فرقته فى كلية طب قصر العينى حتى تخرج فيها ولم يتجاوز عمره الثانية والعشرين.

ثم أوفد فى بعثة دراسية إلى بريطانيا حيث نال إجازة الزمالة فى كلية الجراحين الملكية ثم تخصص فى طب العظام وعرف بأنه رائد طب العظام فى مصر.

وفى عام ١٩٥٠ اختاره الدكتور طه حسين أول مدير لجامعة عين شمس.

وقد عرف الدكتور حسين بين مثقفى زمنه وقراء الأدب بوصفه مؤلف القصة الطويلة «قرية ظالمة» التى تدور أحداثها فى الأيام الأخيرة للسيد المسيح.

وقد أثارت قصته اهتماماً بالغاً عند المثقفين واشتهرت على نطاق واسع، وترجمت إلى لغات عديدة كالإنجليزية والفرنسية والإسبانية والهولندية والتركية.

ونال عنها جائزة الدولة فى الأدب عام ١٩٥٧ كما نال جائزة الدولة فى العلوم عام ١٩٦٧، فأصبح أول مصرى يجمع بين جائزتى الدولة فى العلوم والآداب.

وكتب محمد كامل حسين فى مجالات عديدة: فى الطب والأدب والشعر والتاريخ، ومن أهم كتبه التى لم تحظ بشهرة «قرية ظالمة»: «متنوعات» و«الوادى المقدس» و«التحليل البيولوجى للتاريخ» و«الذكر الحكيم»، بالإضافة إلى جهوده الكبيرة فى تيسير اللغة العربية أثناء اشتغاله فى مجمع اللغة العربية.

■

وكتابه هذا يتضمن مجموعة من القصص التى نشرت فى دوريات أدبية مثل مجلة الهلال ومجلة القصة ومجلة الإذاعة والتليفزيون وهى قصص تشى بموهبته الساطعة واهتمامه البالغ بالأدب وفنونه وتضم المجموعة ثمانى قصص.

■

مبدعون ومجددون

أحمد زلط

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٢٠٣ صفحات



منذ بدأت مصر نهضتها فى أعقاب رحيل الحملة الفرنسية، تواصلت جهود عدد كبير من المفكرين وأصحاب الرؤى العظيمة من مختلف الاتجاهات، وتواكبت معها جهود أخرى بطول الوطن العربى واتساعه.

ولم يكن جهد هؤلاء ينحصر فقط فى الإبداع الفكرى والأدبى، لكنه كان يصب فى نهاية المطاف فى مصلحة المنجز الاجتماعى الأشمل.

وعلى هذا النحو لم يكن ما كتبه الطهطاوى مثلاً عن باريس وشوارعها النظيفة وعادات الفرنسيين وأساليب معيشتهم واحترامهم للإنسان وتقديسهم لحقوقه وعشقهم للنظام والإتقان فى العمل، مجرد انبهار بواقع مغاير، وإنما كان الهدف من المقارنة هو إذكاء الغيرة الوطنية وشحذ الهمم نحو ضرورة التغيير كى تصير حياة الناس أجمل وأكمل.

وكى ينتقل المجتمع المصرى كله إلى آفاق أكثر مدنية وحضارة.

وقد أسهمت صيحات التجديد تلك فى تحقيق الإفاقة التى تمنتها مصر وسيرها فى طريق الإصلاح والنهضة.

والمؤلف فى هذا الكتاب يستعرض سيرة ومسيرة عدد ممن ساهموا فى هذه النهضة فى العصر الحديث فى مجال الأدب وهم:

الشيخ رفاعة الطهطاوى والشاعر محمود سامى البارودى وأمير الشعراء أحمد شوقى وشاعر القطرين خليل مطران والشاعران العراقيان محمد مهدى الجواهرى وبدر شاكر السياب والشاعر التونسى أبو القاسم الشابى والأدباء المصريون نجيب محفوظ ويوسف إدريس وتوفيق الحكيم ويحيى حقى وكامل كيلانى.

■

الواقع والأسطورة..

دراسات فى الشعر العربى المعاصر

ماهر شفيق فريد

القاهرة: دار البستانى، ٢٠٠٤، ٢٤٠صفحة



يعالج الكتاب قضايا مختلفة مثل الحب فى الشعر العربى المعاصر.

وكيف عبر الشعر عن ثورة يوليو وكيف أثرت سياسات الثورة على الإبداع الشعرى، وما الذى قاله الشعراء عن القناة وتأميم قناة السويس.

ويتعرض المؤلف لتجارب شعراء السبعينيات، كما يتضمن دراسات مهمة عن عدد من الشعراء الكبار فى مصر والعالم العربى.

فيكتب عن أدونيس وموقعه فى الشعر العربى الحديث، ونزار قبانى بين الأسطورة والشعر، وقراءات فى شعر صلاح عبد الصبور، كما يكتب عن أحمد عبد المعطى حجازى وبدر شاكر السياب وصلاح جاهين وأمل دنقل ومحمد إبراهيم أبو سنة وفاروق شوشة وحسن فتح الباب.

والناقد الدكتور ماهر شفيق فريد عرف بدراساته فى الأدب الإنجليزى والأمريكى المعاصر وخصوصاً دراساته عن «تى إس إليوت»، إلا أنه يواكب حركة القصة والشعر فى مصر وقد قدم كثيراً من الأصوات الشعرية فى سنوات السبعينيات والثمانينيات، كما تابع إصدارات عديد من كتاب القصة المرموقين فى مصر.

■

أسرار حرب اكتوبر فى الوثائق الأمريكية

ويليام بير

ترجمة: خالد داود، ٢٠٠٤، ٤٣٤ صفحة



تكشف هذه المجموعة المهمة من الوثائق التى أفرج عنها مؤخراً كثيراً من الأسرار، مثل:

إخفاق وتخبط المخابرات الأمريكية فى التنبؤ بالحرب، ووصول تحذيرات مبكرة لإسرائيل عن هجوم مصر، ونصيحة كيسنجر لها بتفادى القيام بعمليات استباقية، وقرارات كيسنجر

المبكرة بتقديم مساعدة عسكرية لإسرائيل مع استمرار اتصاله بإسرائيل لخداعهم، وتحريضه إسرائيل لتحدى قرارات الأمم المتحدة.

وخطاب بريجنيف الذى دفع أمريكا لإعلان حالة التأهب النووى، واتصالات أمريكا ومنظمة التحرير الفلسطينية خلال الحرب.

وتوفر هذه الوثائق معلومات بالغة الأهمية عن السياسة الأمريكية وتصوراتها عن الحرب وردود أفعالها على ما ترتب عليها.

ولكن ذلك لا يعنى أن هذه الوثائق المفرج عنها تمثل الحقيقة كاملة فيما يتصل بمجريات الحرب ويومياتها.

إذ أن قانون حرية الاطلاع على المعلومات الذى سمح بنشر هذه المعلومات السرية، يعطى الحق لوكالة الأمن القومى فى فرض السرية على وثائق معينة لو كانت ستؤثر على المصالح الحالية للولايات المتحدة الأمريكية.

بما يعنى أن فترة الثلاثين عاماً التى يسمح بعدها بنشر المعلومات السرية، لا تعنى أنها تسمح بنشر كل المعلومات عن الحرب.

والوثائق التى تم الإفراج عنها أخيراً والتى يتضمن الكتاب بعضها، عبارة عن مذكرات رسمية وتقارير سرية كتبها المسئولون فى وزارة الخارجية الأمريكية ومجلس الأمن القومى وسفارات الولايات المتحدة فى كل من مصر والسعودية والأردن وإسرائيل، وكذلك محاضر جلسات رسمية ضمت نيكسون وبريجنيف وكيسنجر وحافظ إسماعيل مستشار الرئيس السادات للأمن القومى وجولدامائير وغيرهم من الشخصيات التى لعبت بدرجة أو بأخرى أدواراً فى حرب أكتوبر قبل ثلاثين عاماً.

وفى انتظار المزيد من الوثائق التى ربما يفرج عنها قريباً، سيظل كثير من أحداث حرب أكتوبر بحاجة إلى جلاء.

■

نيران صديقة

علاء الأسوانى

القاهرة: ميريت للنشر، ٢٠٠٤، ٢١٠ صفحات



براعة الأسوانى القصصية لا تستند إلى حداثية أساليب السرد ولا إلى ميله إلى الغريب والشائع من مفردات اللغة، وإنما إلى الغوص فى أعماق النفس الإنسانية وكشف تناقضاتها وحيلها السلوكية، وميلها إلى المداراة والتحايل، إما بزعم التكيف ومقاومة ما يفرضه عليها واقع حاد بالغ القسوة والدناءة، أو لرغبتها فى التظاهر بعكس ما تبطن كى تبدو فى صورة نقية مخاتلة، قد تكون مناقضة تماماً لصورتها الحقيقية.

الرواية القصيرة «الذى اقترب ورأى» تلخص إلى حد بعيد هذه المعانى.

فبطلها «عصام» شخص وعى وأدرك أكثر كثيراً من المحيطين حوله، وانتهى به وعيه إلى العزلة، ثم الجنون فى نهاية المطاف.

أما العزلة فقد قاده إليها إدراكه العميق للدوافع الحقيقية لسلوك المحيطين به، ما جعلهم جميعاً يبدون بالنسبة له فى حالة انكشاف كامل، يفضح تواطؤ المريض واستجاباتهم العمياء لقيم وأفكار بائدة، من وجهة نظره على الأقل.

فالأم المريضة تستكثر على أمها أن تعيش حتى الثمانين من عمرها، والجدة تدرك بوعيها شبه الغائب حقيقة مشاعر الابنة فتبادلها حدة بحدة، بل وتتعمد إحراجها والإساءة إليها أمام الضيوف، فتختار بعناية وقت زيارات الضيوف كى تتبول على نفسها فتشبعها الابنة بالإهانات وتكسب هى. الجدة. تعاطف الضيوف، وتتحين الجدة فرصة مناسبة كى ترد الإهانة للابنة، فترفع عنها غطاء الرأس فيبدو رأسها الذى تساقط شعره كله تقريباً بفعل العلاج الكيماوى، وتسألها فى تشفٍ خبيث: هو شعرك راح فين؟

وتتمنى الأم أن تموت ابنة خادمتها كى تتفرغ لرعايتها برغم ما تبديه من عطف تجاهها، وتتواطأ الأم فاسحة المجال لابنها كى يضاجع الخادمة، وتحسن الخادمة من جانبها تقدير الموقف واستغلاله كى تحصل على بغيتها من الاثنين وتحولهما فى لحظة مناسبة إلى عبيد أو خدم، دون أن تخفى سعادتها بتبديل المواقع.

أما ميله إلى الحضارة الغربية واحتقاره لكل ما هو مصرى أو شرقى، والذى تترجمه علاقته بالفتاة الألمانية «يوتا»، فإنه يدفعه دفعاً إلى الهذيان فالجنون.

على هذا النحو العجيب والعادى فى آن معاً تمضى علاقات الشخوص داخل الرواية ويمضى معها المؤلف كاشفاً عن ألاعيبها السلوكية وغلظتها وشراستها المغلفة بغلالات من الأحاسيس المصطنعة.

بقية قصص المجموعة لا تبعد كثيرا عن هذا الملمح الرئيسى حيث يعنى المؤلف كما أشرنا إلى كشف الحيل السلوكية التى يتخفى خلفها الناس.

■

تبسيط المعارف فى سلسلتين جديدتين للأطفال

الحيوان صديقى فى أفضل حال

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤



سلسلتان جديدتان صدرتا أخيراً عن دار الشروق، تتميزان بجمال التصميم والإخراج وسهولة الفكرة، والاثنتان معنيتان بتقديم المعلومة العلمية فى قالب مشوق بسيط، الأولى تحمل عنوان «الحيوان صديقى» وصدرت منها: أريد فيلا، أريد أسداً، أريد درفيلاً، أريد كنجارو. والقصص التى كتبها آن جوتمان ورسمها اجزافييه دينو، تقوم أساساً على كلمات قليلة وتخاطب خيال الطفل برسوم ذات خطوط واضحة وألوان بديعة، وبالإضافة إلى المعلومات التى يجدها الطفل عن الحيوانات موضوع القصص، فإن هذا النوع من القصص ينشئ رابطة من نوع ما بين الطفل والحيوان، ويقيم حالة من التواصل ترى فى الحيوان رفيقاً مفيداً لا وحشاً يبعث على النفور ويستدعى الرهبة، وبرغم الموضوع الواحد فإن بطل القصص ليس الطفل نفسه، فهو فى «أريد فيلاً» فتاة صغيرة جميلة، وكذلك الحال فى «أريد درفيلاً» ولكنه فى «أريد كنجارو» طفل أسمر اللون ينتمى إلى بيئة الكنجارو ذاتها، وهو اختيار مقصود بطبيعة الحال يمنح الحكاية صدقية أكبر.

نقرأ فى «أريد كنجارو»:

ماما أريد كنجارو/ كنجارو له جيب كبير يكفى/ أخبئ فيه كل شىء عندى.

ولن أفقد ثانية عروستى أبداً/ سأضعها فى جيب الكنجارو دائماً.

وسوف أشعر بالدفء والسلام/ عندما أكون فى حضن الكنجارو أنام.

وسيلعب معى فى حوض الرمل/ ويساعدنى كثيراً فى الحفر.

ومعه لن أحتاج إلى عربتى/ فسأتنزه فى جيبه أنا وعروستى.

ولن أحتاج للسلم فى الصعود/ نطة واحدة وللبيت نعود.

والآن يا ماما كما ترين/ أنا أحتاج فعلاً إلى كنجارو.

أما السلسلة الثانية فتحمل عنوان «فى أفضل حال»، وصدرت منها: الطعام، النوم، النظافة، الأمراض، المخاطر.

وأبطال هذه السلسلة هم ليلو ورامى وعفريت صغير، وهم يقدمون عبر مغامراتهم الشقية معلومات علمية مفيدة، ويجيبون عن تساؤلات تشغل الطفل ربما لا يجد الكبار وقتاً للإجابة عنها.

كتاب الأمراض مثلاً يجيب عن عدد وافر من الأسئلة منها: ما الفيروس، كيف نحمى أنفسنا من الجراثيم الشريرة، ما فائدة التطعيم، ما الحساسية، متى نذهب إلى قسم الطوارئ، ما الفحوصات التى قد يطلبها الطبيب، ما معنى وراثى، من يعالجنا، وهكذا.

والمسألة ليست فى هذا الكم المفيد من المعلومات بقدر ما هى فى طريقة العرض الذكية، إذ يذهب الأولاد بصحبة والديهم إلى الدكتور عارف الذى يعرفهم بجسم الإنسان وبالطريقة المتبعة فى الكشف على المريض، وهو حين يشرح لهم معنى الفيروس فإنه يحكى لهم عن رحلته فى جسم الإنسان وكأنها حكاية عن صراع يستعد الأولاد للانتصار فيه، ثم يتم تأكيد المعلومة عبر تقديمها بشكل علمى موجز كى ترسخ فى ذهن الطفل، يقول لهم الدكتور عارف: الفيروسات جراثيم وتسمى أيضاً ميكروبات، وهناك عائلتان من الجراثيم: الفيروسات والبكتيريا، ولرؤيتها لابد من جهاز خاص هو الميكروسكوب، ويواصل: هناك جراثيم فى كل مكان: فى الماء والهواء وفى أجسامنا.

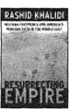
ويشرح لهم أن البكتيريا مفيدة وهى تساعدنا على هضم الطعام، إلا أن بعض الميكروبات خطر ولذلك توجد فى الجسم وسائل تتصدى لها وتمنعها من الدخول إلى جسم الإنسان، كما أن النظافة المستمرة هى الأسلوب الأمثل لمقاومة الميكروبات.

وعلى هذا المنوال وبأسلوب يمزج بين الدقة العلمية والخفة المناسبة للمرحلة العمرية التى يخاطبها المؤلف، يمضى السرد فى الكتاب.

Resurrecting Empire: Western Footprints and America's Perilous Path in the Middle East

(بعث الإمبراطورية: آثار الأقدام الغربية وطريق أمريكا الخطر فى الشرق الأوسط)

Rashid Khalidi
Beacon Press, 2004, 223pp.



يتناول كتاب الدكتور رشيد الخالدى تاريخ التدخل الغربى فى منطقة الشرق الأوسط.

ويحلل النتائج التى يتوقع أن يسفر عنها التدخل الأخير للولايات المتحدة الأمريكية.

ويبين الكتاب أهمية قراءة التاريخ والتقاط دروسه.

ويستخلص أن من يخفق فى ذلك يكون معرضاً لتكرار أسوأ ما فيه، تماماً كما تتصرف حالياً الإدارة الأمريكية برئاسة الرئيس «جورج بوش» التى تمضى معصوبة العينين فى طريق الصراع والاحتلال والاستعمار دون الالتفات لدروس الخبرات السابقة.

يقدم رشيد الخالدى تحليله للموقف الحالى لأمريكا فى الشرق الأوسط فى حربها ضد العراق ودورها فى فلسطين من خلال عدة مداخل ثقافية وتاريخية.

الدكتور رشيد هو أستاذ كرسى إدوارد سعيد للدراسات العربية بجامعة كولومبيا ومدير معهد الشرق الأوسط بنفس الجامعة.

Love for Sale: A World History of Prostitution

(حب للبيع: تاريخ البغاء فى العالم)

Nils Johan Ringdal
Richard Daly (مترجم)
Grove, 2004, 480PP., $26.00



ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية من اللغة النرويجية، وهو لمؤرخ نرويجى يقوم بتناول تاريخ البغاء فى العالم وعبر الثقافات المختلفة. ونتيجة لاتساع نطاق الدراسة التاريخية لا تحظى الحقب الزمنية المختلفة ومناطق العالم المتفرقة بنفس القدر من المعالجة.

يهتم المؤلف بإظهار التأثير الأوروبى عبر الاستعمار فى تقديم أشكال من البغاء دخيلة على المجتمعات التى اقتحمها.

فعلى سبيل المثال، تحولت العادة الآسيوية المتمثلة فى عقد زيجات مؤقتة تحت التأثير الأوروبى إلى دفع نقدى مباشر فى اللقاءات المفردة.

وفى أفريقيا يعتقد المؤلف أن حملات التبشير الأوروبية ضد تعدد الزوجات والأزواج أدت إلى زيادة عدد النساء المنخرطات فى أعمال البغاء.

كذلك يحاول المؤلف أن يحلل العوامل الاقتصادية والثقافية والأخلاقية التى تدفع بالنساء إلى البغاء.

كما يحاول تقديم مداخل (ثقافية ومجتمعية) متعددة فى طرق النظر والتقييم للبغاء وللفاحشة بشكل عام. وأخيراً يعبر المؤلف عن صعوبة تحليل ظاهرة الاختيار الحر المرتبطة بالبغاء فى العالم المعاصر وعلاقة ذلك بنتائج تحرير المرأة.

The Da Vinci Code

(شفرة دافنشى)

Dan Brown
Doubleday, 2003, 454PP, $24.95



تصدرت هذه الرواية قوائم الكتب الأكثر مبيعاً فى الولايات المتحدة منذ أن صدرت قبل ١٣ شهراً.

وقد بيع منها ملايين النسخ، وترجمت إلى أربعين لغة، وتجرى مفاوضات الآن لتحويلها إلى فيلم سينمائى مع المخرج رون هوارد.

لكن الأهم من النجاح الجماهيرى للرواية، هو القلق الذى سببته فى الأوساط المسيحية الأمريكية، حيث تزرع «شفرة دافنشى» الشك فى المعتقدات المسيحية الأساسية مما دفع بالكنائس وأساتذة اللاهوت بإصدار كتب ومنشورات تفند ادعاءات الرواية وترد على تساؤلات قرائها.

تدعى الرواية التى تنتمى لفئة الروايات البوليسية أن الديانة المسيحية تأسست على أكذوبة، وأن الكنيسة تآمرت لعدة قرون من أجل إخفاء الدليل على بشرية السيد المسيح، وكونه قد تزوج من ماريا المجدلية وأنجب منها أطفالاً يعيش نسلهم فى فرنسا!

يقول مؤلف الكتاب دان براون، وهو مدرس ثانوى سابق، أنه يعتقد شخصياً فى صحة النظريات التى يناقشها أبطال الرواية، وأنه اعتمد على أدلة أثرية تتم مناقشتها فى نطاق العلماء الضيق، مثل لفائف البحر الميت التى اكتشفت فى خمسينيات القرن العشرين، ونصوص نجع حمادى التى وجدت فى مصر عام ١٩٤٥. وتبين «شفرة دافنشى» أن الإمبراطور الرومانى قسطنطين الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى هو الذى أخفى المخطوطات الإنجيلية القديمة من أجل أهداف سياسية، وأنه هو الذى فرض عقيدة ألوهية المسيح عام ٣٢٥ ميلادية.

Who Are We: The Challenges to America's National Identity

(من نحن: تحديات الهوية الوطنية الأمريكية)

Samuel P. Huntington
Simon & Schuster, 2004, 448PP., $27.00



فى كتابه الشهير «صدام الحضارات» تنبأ عالم السياسة الأمريكى صامويل هانتنجتون بمعركة الولايات المتحدة مع الجماعات الإسلامية المسلحة. وفى هذا الكتاب، يحول هانتنجتون أنظاره إلى صدام الحضارات داخل الولايات المتحدة ذاتها. فهو يرى خطراً كبيراً يهدد الهوية الوطنية الأمريكية متمثلاً فى تزايد عدد المهاجرين من مختلف أنحاء أمريكا اللاتينية الذين يتحدثون اللغة الإسبانية ويدينون بغير المسيحية البروتستانتية.

تلك الثقافة الفرعية التى نمت داخل الولايات المتحدة يعتبرها هانتنجتون مصدراً لانقسامات داخلية تضر بمستقبل أمريكا ومصالحها القومية. فهانتنجتون يشدد على ضرورة محافظة أمريكا على هويتها المسيحية البروتستانتية وثقافتها الأنجلو مركزية. إما أن تضم أمريكا ألوفاً من المهاجرين الجدد الذين لا يشعرون بالحاجة إلى تعلم اللغة الإنجليزية أو الاندماج فى الثقافة الأمريكية بفضل شيوع اللغة الإسبانية فى الشارع، والكنيسة وأماكن العمل وغير ذلك من الحياة العامة خارج المنزل، فذلك من شأنه أن يؤدى إلى إضعاف وتفكيك الولايات المتحدة الأمريكية.

The Mold in Dr. Fiorey's Coat: The Story of Pencillin and the Modern Age of Medical Miracles

(قصة البنسلين والعصر الحديث للمعجزات الطبية)

Eric Lax
Holt, 2004, 352PP., $25.00

يهدف هذا الكتاب إلى تصحيح الفهم الشائع بأن الكساندر فيلمنج هو أول عالم يكتشف البنسلين وأول من قدم إلى العالم عقار المضاد الحيوى الذى أنقذ آلاف الأرواح وتشكل به عصر طبى جديد.

فبالرغم من أن فلمنج هو الذى صك مصطلح «البنسلين»، إلا أن أبحاثه الترجيحية حول الفطر لم تسفر سوى عن نتائج محدودة

وفى عام ١٩٤٠ بعد أكثر من عشر سنوات من توقف أبحاثه، قام فريق باثولوجى من جامعة أكسفورد برئاسة هوارد فلورى وأرنست تشاين ونورمان هيتلى بمزاولة أبحاث فلمنج الأولية إلى أن توصلوا إلى أول عقار مضاد حيوى.

وقد حاز كل من فلمنج وفلورى وتشاين على جائزة نوبل عام ١٩٤٥.

إلا أن الإعلام والذاكرة الشعبية نسبت الفضل كله إلى فلمنج، الأمر الذى يحيله المؤلف إلى الميل الشعبى «الهوليوودى» إلى البطولة الملحمية المنفردة.

An Enduring Love

(حب خالد)

Farah Pahlavi
Patricia Clancey (مترجمة)
Miramax Books, 2004, 447PP., $24.95



بالرغم من مرور ربع قرن على قيام الثورة الإسلامية فى إيران وخلع الشاه محمد رضا بهلوى، إلا أن الإمبراطورة الحسناء فرح ديبا بهلوى، آخر زوجات الشاه، لازالت تعيش فى حالة من الرفض للواقع. وفى مذكراتها التى صدرت بالفرنسية فى ديسمبر الماضى، ثم تبعتها الترجمة الإنجليزية منذ شهرين، تتحدث

الشاهبانو عن ظلم التاريخ لزوجها الراحل، وبطلان كل ما كتبه المؤرخون والمعاصرون عنه باعتباره قائداً ضعيفاً، ومتردداً، وانفعاليا.

فهي تتجاهل على سبيل المثال أن عودة الشاه لعرشه عام ١٩٥٣ احتاجت لانقلاب دبرته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، كما تقلل من الدور الإرهابي الذي كان يقوم به «السافاك» البوليس السري للشاه الذي كان يتجسس على خصوم الشاه ويعذبهم ويقتلهم.

وتدافع فرح ديبا عن الاحتفال الباذخ الذي أقامه الشاه عام ١٩٧١ بمناسبة مرور ٢٥٠٠ عام على الإمبراطورية الفارسية والذي تكلف ٢٠٠ مليون دولار، قائلة أن تلك الاحتفالات كانت مناسبة رائعة لممارسة العلاقات العامة.

وهكذا يمضي كتابها. سلسلة من المرافعات للدفاع عن حكم الشاه، والهجوم على الثورة التي تراها لا كثورة شعبية وحدت جميع طبقات المجتمع ضد الشاة، وإنما مؤامرة استخدم فيها الشيوعيون الدين لكي يؤلبوا الشعب.

ويرى البعض أن السبب الذي دفع بالإمبراطورة السابقة أن تكتب هذا الكتاب في هذا التوقيت هو حشد التأييد العاطفي لإعادة التاج لابنها رضا، الذي يتزعم الآن حركة معارضة للجمهورية الإسلامية من مكتبه ومنزله بواشنطن. ومن خلال موقع على الإنترنت. وكان رضا قد نصب نفسه شاهاً في احتفال صغير أقامه في مصر عام ١٩٨١ عندما أتم عامه العشرين.

■

The Undressed Art: Why We Draw

(الفن الطبيعي: لماذا نرسم)

Peter Steinhart

Knopf, 2004, 272PP., $23.00



يعتقد البعض أن شيوع التصوير الفوتوغرافي وانتشار الكاميرات زهيدة الثمن قد أدى إلى انحسار الرسم كنشاط إنساني أساسي.

هذا الكتاب يثبت خطأ هذا الاعتقاد ويؤكد أن الرسم يزدهر بين الأفراد، الذين يكون بعضهم مجموعات خاصة لممارسة هذا النشاط جماعياً.

ومن ضمن هؤلاء الأفراد المؤلف نفسه، الذي هو ليس بالرسام المحترف، إلا أنه يمارس هواية الرسم مع مجموعة من الأصدقاء ويتناقشون في التقنيات المختلفة ويتبادلون الرسومات.

ينتقل المؤلف بسرعة من خبرته الشخصية إلى تاريخ فن الرسم، وعلمه، وحياة الرسامين الكبار والرسامين الذين عرفهم.

وهو من خلال دراسته الفاحصة للرسم باعتباره ممارسة ثقافية للتعبير عن الذات يكتشف أنه أكثر من هذا بكثير. فالرسم رد فعل جماعي لحاجة بشرية متأصلة في نفس الإنسان.

ويهتم المؤلف برسوم الأطفال ويتناول العلاقة المعقدة بين اليد، والذهن، والعين، وموضوع الرسم خاصة في رسم وجوه وأجسام البشر.

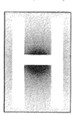
■

The Hype About Hydrogen: Fact and Fiction in the Race to Save the Climate

(الضجة حول الهيدروجين: الحقيقة والخيال في سباق إنقاذ المناخ)

Jaseph A. Romm

Island, 2004, 240PP., $ 25.00



روج الرئيس بوش في خطابه إلى الأمة الأمريكية العام الماضي لفكرة «اقتصاد الهيدروجين»، مما جعل الاهتمام الإعلامي والجماهيري يزداد بقضية الطاقة التي يتلاعب بها السياسيون في الولايات المتحدة وغيرها من الدول التي تضغط فيها الجماعات والأحزاب المدافعة عن البيئة.

وفي هذا الكتاب يقوم جوزيف روم، الذي كان قد عمل في وزارة الطاقة أثناء إدارة كلينتون بإظهار مدى اللغط والخلط الحادث في قضية إحلال الطاقة.

فبداية، يؤكد جوزيف روم على أن الهيدروجين هو حامل للطاقة وليس مصدراً للطاقة (على الأقل حتى يتم ترويض الاندماج النووي).

ثم يشير المؤلف إلى أنه على الرغم من إمكانية استخراج الهيدروجين من مياه البحر، إلا أنه الآن يتم استخراجه بالأساس من الغاز الطبيعي. والذي يصدر عنه غازات ملوثة تماماً مثل الوقود العادي.

أما بالنسبة لاستخدام الهيدروجين لإحلال وقود السيارات، فإن روم يعبر عن عبث هذه الفكرة وصعوبتها الشديدة التي قد تحتاج لعشرات السنين لكي يتم الاستعداد اللازم لها. هذا بالرغم من أن بعض شركات تصنيع السيارات قد بدأت في الترويج للسيارة التي تسير بوقود الخلايا الهيدروجينية. فالهيدروجين يتسبب في تلف الحديد، كما أن عاصفة كهربائية على بعد أميال يمكنها أن تشعل الهيدروجين، بل حتى شحنة الكهرباء في التليفون المحمول قد تتسبب في إشعال حريق بالسيارة!

■

I am no one you know

(أنا شخص لا تعرفه)

Joyce Carol Qates

Ecco, 2004, $24.95



يقول النقاد أن جويس كارول مؤلفة هذا الكتاب اعتادت أن تكتب رواية جديدة كل عدة شهور. والكتاب الجديد يضم مجموعة قصص قصيرة قد يكون من الصعب أن تكون الواحدة منها رواية كاملة لكن كل قصة مليئة بالأحاسيس والقدرة المذهلة للمؤلفة على إمتاع القارئ بل وجعله يتابعها باهتمام كبير. وكما يقول النقاد فإن هذه القصص تتمتع بلغة غنية وجذابة وهي متنوعة الموضوعات، حيث تتناول عدة أمور مثل الاستغلال غير القانوني للأطفال والاغتصاب. والآباء غير المستقرين ذهنياً. والقصص ترتكز على حياة الإنسان العادي وعلاقة البيض والسود في المجتمع الأمريكي.

■

All- Night Party: The Women of Bohemian Greenwich Village and Harlem

(حفلة طول الليلة)

Andrea Barnet



كثيراً ما يتبادر إلى الأذهان عندما يأتي ذكر مدينة نيويورك أمور كثيرة مثل الأمم المتحدة ومجلس الأمن والمسارح والفن وكذلك الجريمة والعصابات (حتى ستينيات القرن الماضي). لكن هذا الكتاب يتحدث عن الحركة الأدبية في هذه المدينة العالمية في فترة مهمة من تاريخها أي من ١٩١٣ حتى ١٩٣٠.

وتأكيداً على أهمية نيويورك الفكرية، فإن الكاتب والشاعر والفنان الطليعي الإنجليزي مينا لوي قال بعد قليل من وصوله إلى نيويورك عام ١٩١٦ مقولته الشهيرة:

من لم يعش في نيويورك فإنه لم يعش في العالم الحديث:

فقد كانت بالمدينة مجمعات هائلة للمفكرين والأدباء والفنانين وكانت تعج بالأفكار والمسرحيات والأفلام والصحف بشكل غير مسبوق في أي مدينة أخرى.

وفي هذا الكتاب وهو الأول لمؤلفته، عرض لحياة مجموعة من النساء غير التقليديات اللاتي لعبن دوراً كبيراً في الحركة الفكرية والأدبية في الفترة من ١٩١٣ حتى ١٩٣٠.

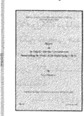
■

The Report of the Inquiry into the Circumstances Surrounding the death of Dr. David Kelly, CMG

(تقرير عن التحقيق في ملابسات وفاة د. ديفيد كيلي)

by: Lord Hutton

London: Her Majesty's Stationery office, 740pp, 70£



لورد هاتون قاض بريطاني جليل تولى رئاسة لجنة شكلتها الحكومة البريطانية لمعرفة ملابسات وفاة خبير الأسلحة البريطاني ديفيد كيلي الغامضة قبل عدة شهور.

وقد فجر التقرير ضجة كبيرة في بريطانيا والعالم نظراً لارتباطه بقضية حساسة للرأي العام هي الأسباب التي أدت إلى غزو العراق من جانب الولايات المتحدة وبريطانيا.

بدأت القصة عندما أذاع أندرو جليجان مراسل هيئة الإذاعة البريطانية «بي بي سي» في ٢٩ من عام ٢٠٠٣ تقريراً إذاعياً قال فيه نقلاً عن مصادر في المخابرات البريطانية:

أن الحكومة البريطانية بالغت وضخمت في الادعاء بأن العراق يمكنه أن يستخدم بعض أسلحة الدمار الشامل التي بحوزته خلال ٤٥ دقيقة.

وعلى الفور تحركت الحكومة البريطانية لمعرفة هوية هذه المصادر.

وبعد ذلك بأيام جرى العثور على جثة خبير الأسلحة ديفيد كيلي الذي شارك في التفتيش على أسلحة العراق والذي تبين بعد ذلك أنه التقى مع جليجان.

وبعد أن شكلت الحكومة البريطانية

لجنة هاتوك عملت اللجنة عدة شهور واستدعت شهوداً عديدين بينهم رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير ووزير دفاعه جيف هون.

ثم أصدرت اللجنة تقريراً ضخماً برأت فيه بشكل عام الحكومة البريطانية وأدانت عدم التزام هيئة الإذاعة البريطانية بالمعايير المهنية وأكدت أن كيلى توفى منتحراً.

وكانت النتائج التى توصلت إليها اللجنة مفاجأة للرأى العام الذى اتهم لورد هاتون بأنه انحاز للحكومة وعاقب «بى بى سى» وأصرت نسبة كبيرة من الرأى العام من خلال استطلاعات الرأى على أنها تثق بهيئة الإذاعة البريطانية أكثر من حكومة بلير.

المشكلة أن التقرير فجر الوضع داخل «بى بى سى» التى شعرت بأنها فقدت كثيراً من مصداقيتها فاستقال مديرها العام ثم رئيسها.

وقد صدر تقرير لور هاتون فى كتاب ليكون بمثابة سجل لحدث مهم قد يكون له تأثير خطير فى مستقبل الحكومة البريطانية ورئيسها تونى بلير.

Alexandria: A History and A Guide

(الإسكندرية)

E. M. Forster

Cairo-Auc Press, 2004



مؤلف هذا الكتاب عاش فى الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية أيام كانت المدينة تضم طوائف وفئات وجنسيات شتى وهو فى هذا الكتاب يتحدث عن عصر الإسكندرية الذهبى. فقد كانت الإسكندرية مركز العلم والفن والأدب فى العصر القديم حباها الله موقعاً عظيماً ومناخاً رائعاً وبشراً جعلوها تتفوق على كثير من مدن العالم.

ويتحدث المؤلف فورستر فى كتاب عن شعراء المدينة وفلاسفتها وعلمائها حتى القرن السابع الميلادى عندما فتح العرب مصر.

كما يضم الكتاب مجموعة من المقالات عن فراعنة مصر وتاريخ الإسكندرية الفلسفى والدينى. والكتاب بذلك يضاف إلى مكتبة كبيرة بلغات عديدة تتناول حياة تلك المدينة وتأثيرها الكبير على حضارة العالم ومدى التغير الذى لحقها عبر الزمن.

John F. Kerry: The Complete Biography

(جون إف. كيرى، السيرة الكاملة)

by: The Boston Globe reporters

Public Affaris, 2004, 448PP., $14.95





لم يأت جون كيرى المرشح الديمقراطى للرئاسة الأمريكية إلى بؤرة الأحداث من المجهول، فقد كان أحد أبرز أعضاء مجلس الشيوخ الذين حملتهم ولاية ماساشوستس إلى واشنطن علاوة على أنه بطل أمريكى حارب فى فيتنام ثم انخرط فى الحملة المطالبة بوقف الحرب بعد ذلك.

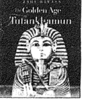
وهذا الكتاب تجميع لـ ٧ حلقات نشرتها صحيفة «بوسطن جلوب» الأمريكية الشهيرة عن جون كيرى تتناول كافة تفاصيل حياته وبشكل خاص حياة كيرى السياسية فى بوسطن عاصمة ماساشوستس. ويرسم الكتاب صورة لكيرى باعتباره رجل متناقضات فهو ابن دبلوماسى ترعرع فى عالم من الثراء والامتيازات لكنه يشعر دائماً بأنه لا ينتمى إلى هذا العالم، وهو سياسى يجد نفسه فى قيادة الحملات السياسية والضغط من أجل الكشف عن الفساد، لكنه موصوف بالانتهازية السياسية وهو أيضاً ارستقراطى خجول، لكنه جرىء فى الحرب والسياسة.

The Golden Age of Tutankhamun

(عصر توت عنخ أمون الذهبى)

Zahi Hawass

Cairo-AUC Press, 2004, LE 120





مازال توت عنخ آمون الفرعون المصرى الصغير يبهر العالم منذ اكتشاف هوارد كارتر البريطانى الشهير لمقبرته فى وادى الملوك عام ١٩٢٢.

لقد أصبح هذا الفرعون المجهول فى التاريخ المصرى القديم والذى ليس له أمجاد تذكر من أشهر الفراعنة فى العالم نظراً لأن مئات الآلاف بل ملايين الأشخاص ربما تنطبع فى ذاكرتهم صورة التابوت الذهبى لهذا الفرعون أكثر من أى أثر آخر للحضارة الفرعونية.

ومؤلف الكتاب هو الدكتور زاهى حواس أمين عام المجلس الأعلى للآثار فى مصر وأحد أبرز علماء الآثار المصريين وهو يحكى قصة هذا الملك الذهبى والعصر غير العادى الذى عاشه. والكتاب يضم ١٢٠ صورة ملونة.

The Lamp of Umm Hashim and other Stories

(قنديل أم هاشم وقصص أخرى)

Yahya Hakki

Translated by Denys Johnson Davies

Cairo-Auc Press, 2004, LE 50

تعد «قنديل أم هاشم» أحد أبرز أعمال الكاتب الكبير الراحل يحيى حقى إن لم تكن أشهرها على الإطلاق.

وقد سبق حقى فى هذا العمل روائيين كثيرين عندما استكشف روائياً أبعاد العلاقة بين الشرق والغرب من خلال الشاب المصرى الذى ذهب لدراسة الطب فى الغرب ليعود وقد أصبح حاملاً لكل قيم الغرب ساخطاً على مجتمعه المتخلف وغاضباً على مواطنيه الذين طال عليهم الأمد فى الكسل واللامبالاة والتأخر.

ويعد هذا العمل، الذى قامت الجامعة الأمريكية فى القاهرة بإصداره مترجماً إلى الإنجليزية رائداً بكل المقاييس وقد احتفى به النقاد والقراء العرب منذ صدوره قبيل عدة عقود.

Inside Putin's Russia

(داخل روسيا بوتين)

Andrew Jack

Granta, 2004, 352PP. 20 £.

أدى الرئيس الروسى فلاديمير بوتين خلال الشهر الماضى اليمين الدستورية كرئيس للبلاد لفترة رئاسية ثانية وكان بوتين قد فاز قبل ذلك بأغلبية ساحقة فى الانتخابات الرئاسية التى ليس من المبالغة القول إن الجميع كان يعرف أن بوتين سيفوز بها ولذلك فقد تراجع الكثيرون عن منافسته.

كيف وصل بوتين إلى هذه الدرجة من القوة؟ هذا ما يحاول أن يجيب عليه هذا الكتاب الذى ألفه أندرو جاك مراسل صحيفة فاينانشال تايمز البريطانية فى موسكو.

ويقول المؤلف إنه عندما هبط بوتين على رئاسة روسيا فى اليوم الأول للألفية الجديدة بعد استقالة بوريس يلتسين علق أحد المحللين قائلاً:

نكرة جاء من المجهول ليكون رئيساً

ومن الواضح أن بوتين أصبح رئيساً نتيجة لصفة شخصية وحيدة فيه، وهى ولاؤه التام لرؤسائه السابقين.

فبعد أن انتهى عمله فى المخابرات السوفيتية «كى جى بى» بعد انهيار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩١، خدم بوتين تحت رئاسة عمدة سان بطرسبرج أناتولى شوباك قبل أن ينتقل إلى موسكو عام ١٩٩٦ ليلتحق بإدارة يلتسين. وكان موظفاً ذا كفاءة عالية، لكن أحداً لم يكن ليتوقع أن يترقى ليصبح رئيساً بهذه السرعة.

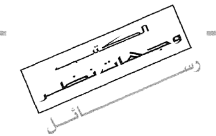
لكن الظروف التى ظهرت عام ١٩٩٩ جعلت الحلم المستحيل واقعاً فصحة يلتسين تتدهور والانتخابات الرئاسية وشيكة ومعظم المقربين من أسرة يلتسين قيد التحقيق باتهامات التورط فى الفساد. والأسرة والنظام والمقربون فى حاجة إلى وريث يمكن الثقة فيه بشكل مطلق مع ملاحظة أنه سبق لبوتين أن ساعد شوباك فى الهرب إلى باريس لتجنب المحاكمة.

وتوصلت حاشية يلتسين إلى أن بوتين الشخص المناسب. وكان أول قرار أصدره كرئيس هو مرسوم يحمى يلتسين من المحاكمة.

وعقب ذلك أصبح بوتين زعيم روسيا بدون منازع والتف الروس حوله باعتباره زعيماً قوياً أعاد للبلاد هيبتها بعد سنوات من الضياع والفساد والتراجع المخزى داخلياً وخارجياً.

وطبق بوتين سياسة داخلية تقشفية وتعقب الفاسدين والتزم بنصائح صندوق النقد والبنك الدوليين، الأمر الذى ساعد على استقرار الاقتصاد الروسى إلى حد ما.

ودعم بوتين الرئيس الأمريكى جورج بوش بشدة بعد أحداث ١١ سبتمبر فزادت مكانته الدولية وتغاضى الغرب عن ميله إلى تجميع كل السلطات فى يديه وضمه للمؤسسات الإعلامية المستقلة والمعارضة، كما تغاضى عن الحرب الشرسة التى يقودها فى الشيشان والتى لم تنجح حتى الآن فى وقف المقاومة الشيشانية.



نللى حنا تعلق: مآخذ على المآخذ

قدمت «وجهات نظر» فى عدد مايو الماضى عرضاً نقديا لكتابى «ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية (ق ١٦ - ق ١٨)» الذى نشر بالإنجليزية بالولايات المتحدة وصدرت له طبعة عربية بالقاهرة. وقد أثار صاحب العرض بعض التساؤلات التى تقتضى منى أن أقدم إجابة لها، ليقف القراء على حقيقة ما توصلت إليه فى هذا الكتاب من نتائج، وما طرحته من تساؤلات قد تفتح الباب لغيرى من الباحثين لتقديم دراسات تلقى المزيد من الضوء على ما لازال غامضا منها، وخاصة أن العصر العثمانى لم يحظ إلا باهتمام متواضع من جانب الباحثين.

وتعود قلة الاهتمام بذلك العصر إلى واقع مصر قبله وبعده، فقد كان العصر السابق عليه عصر الإمبراطورية المملوكية، التى كانت مصر قاعدتها، كما كانت مركز الخلافة العباسية بعد إحيائها فى القاهرة إثر سقوطها فى بغداد على يد المغول. وجاء بعد تلك القرون الثلاثة من الحكم العثمانى عصر محمد على، الذى طبق سياسات حديثة، ودعم دور مصر الإقليمى بعدما كانت ولاية عثمانية طوال تلك القرون الثلاثة. لذلك طغى الاهتمام بالعصر المملوكى وعصر محمد على على الاهتمام بدراسة القرون من السادس عشر إلى الثامن عشر، واكتفى مؤرخونا الرواد - كما لاحظ صاحب العرض - بأستمداد معلوماتهم عنه من كتابات المستشرقين من أمثال هاملتون جب وغيره، فى وقت كانت كتابات هؤلاء تهدف إلى تقديم التبرير الأكاديمى للهيمنة الأوربية على الشرق عامة، والدولة العثمانية خاصة. وقامت كتابات هؤلاء المستشرقين برسم صورة قاتمة للمجتمع الإسلامى/ العثمانى، فهو «تقليدى» و «راكد» و «متخلف».

وكان لهذا الاعتماد على الكتابات الاستشراقية ما يبرره طالما كانت المصادر الأرشيفية غائبة، وكانت مخطوطات العصر - ولا تزال - مبعثرة بين مكتبات بلاد الشرق وأوروبا دون أن يكون هناك حصر شامل لها، لا فى تلك المكتبات فحسب، بل وفى دار الكتب المصرية، ناهيك عن غيرها من المكتبات فى البلاد العربية وتركيا. وعندما أصبح الاطلاع على سجلات المحاكم الشرعية فى العصر العثمانى متاحا منذ نحو ثلاثة عقود، بدأ البحث العلمى الجاد فى تاريخ هذا العصر، وإن ظل عدد المشتغلين به قليلاً.

وكنت من بين الباحثين الذين أحسوا من خلال دراستهم للمصادر الأرشيفية بأن هناك تعميمات سحبت على العصر كله كشفت الوثائق بطلانها. وشغلت على مدى ربع القرن بإجراء دراسات عميقة تنقيبية فى تلك الوثائق، كانت ثمارها ثلاثة كتب «بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر» الذى نشر بالفرنسية وترجم إلى العربية وكتاب «تجار القاهرة فى العصر العثمانى - سيرة أبى طاقية شاه بندر التجار» الذى نشر بالإنجليزية والعربية، ثم أخيرا كتاب «ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية» موضوع العرض المشار إليه.

وكان من دواعى هذا الاهتمام ما أجرى من بحوث كثيرة عن عصر محمد على، بينت ما توصل إليه من إعادة تنظيم الموارد الاقتصادية بحيث تخدم مشروعه السياسى، ومن تطور مؤسسات تعليمية وثقافية كجزء من السياسات الإصلاحية. كنت وما زلت مقتنعة بأن استعانة محمد على فى مشروعاته بالخبرة الأوروبية (قد كشفت الدراسات الدقيقة لوثائق محمد على أن المبادرة والخيار كانا فى يده وأن دور الخبرة الأوروبية جاء فى حدود ما كان مطلوباً منه فقط) لا تفسر لنا تطورات القرن التاسع عشر وأنه لا يمكن فهم هذه التطورات سواء فى المجال الاقتصادى أو فى المجال الثقافى دون فهم ما سبقه من تطورات تاريخية.



حين كانت مصر تبحث عن الحداثة

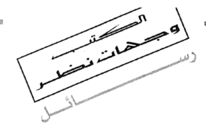
خالد فهمى

هذه مقدمة طالت بالقدر الذى يعين القارئ على تبين موقع الكتاب الأخير من مشروع علمى ممتد، وليقف على حقيقة المجال الذى يضعه هذا المشروع فى بؤرة الاهتمام. لا من قبيل التباهى به، فلم يولد بعد من يدعى تقديم القول الفصل فى أى مجال معرفى، وادعاء ذلك يعنى الجهل البين، لأن العلم لا حدود له. ولكنى أردت بهذه المقدمة بيان ما لدى من معرفة بما أكتب عنه.

يذهب صاحب العرض فى انتقاده للكتاب إلى طرح ثلاثة مآخذ: أولها أننى أهملت البعد العثمانى فى دراستى للموضوع، وركزت على مصر وحدها، فلم أهتم ببيان أثر «المركز» العثمانى على ثقافة «الطرف» مصر. والمأخذ الثانى يتصل بعدم قيامى بتحديد الدور السياسى للطبقة الوسطى فى القاهرة واستانبول وقد ختمه بسؤال غريب حول سبب عدم حدوث ثورة بورجوازية فى مصر كالثورة الفرنسية. والمأخذ الثالث ذهب فيه إلى أن حرصى - ومن هم على شاكلتى من المؤرخين من أمثال عفاف لطفى السيد وبيتر جران وغيرهم - على نقض فكرة «المركزية الأوروبية» أدى إلى ارتكابنا خطيئة استخدام نفس مصطلحات دعاتها.

ويثير المأخذ الأول تساؤلاً حول كيفية قراءة صاحب العرض للكتاب. ومدى معرفته بطبيعة الحكم العثمانى فى الولايات العربية، وانعكاسه على الواقع الثقافى. فالفصل الأول من الكتاب يبحث فى العوامل المؤثرة فى الثقافة، و تكوين الطبقة الوسطى بمختلف أبعادها السياسية والاقتصادية، بما فى ذلك العلاقة بين القاهرة واستانبول التى

ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية (ق ١٦م - ق ١٨م)
تأليف: نللى حنا
ترجمة وتقديم: رءوف عباس
الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣.



ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

بينت آثارها على الواقع الثقافى فى مصر. ولا أعتقد أن الثقافة العثمانية هيمنت على ولاياتها، فالسلطة العثمانية فى استانبول لم تتدخل فى أمور الناس ولا فى حياتهم الثقافية.

وقد تعمق الكاتب فى أكثر من فصل فى هذا البعد الإقليمى وأبرزت أهمية العوامل المشتركة بين بلاد شرق حوض البحر الأبيض المتوسط وتأثير هذه العوامل على التعليم والثقافة ودرست الظروف المادية مثل انتشار تجارة الورق وتأثير ذلك على انتشار الكتاب، وأكدت مراراً على أن التاريخ الثقافى والتعليمى لا يسير وفق الحدود الجغرافية للتاريخ السياسى. وقلت أن التطور الرأسمالى التجارى الذى لعب دوراً فى تشكيل ثقافة الطبقة الوسطى فى القاهرة أيضاً له تأثير فى مدن الشام والأناضول.

وقد استغربت كيف يقول إن الكتاب لا يشير إلى الأثر الثقافى على الحياة السياسية وإنى صورت الثقافة فى واد والسياسة فى واد آخر، هذه العبارات تعكس رؤية ضيقة للغاية عن العمل السياسى وكأنه لابد أن يكون مرتبطاً بأشكال معينة أو تصرفات محددة فى حين أنى اعتبرت أن العمل السياسى الذى قام به أفراد من الطبقة الوسطى أخذ أشكالاً متعددة بالكلمة والكتابة من مقاومة السلطة وهنا أيضاً اعتبرت أن السلطة ليست هى السلطان فقط ولكنها تشمل أيضاً هؤلاء المجموعات الذين يفرضون أو حاولوا أن يفرضوا سيطرتهم على المجتمع.

وقد استخدم صاحب العرض نموذجا لا يصلح لدعم هذا المآخذ على الكتاب، عندما أشار إلى دراسة ليزلى بيرس عن «عينتاب»،وهذا النموذج لا يصلح لسببين أولهما: أن المقارنة بين القاهرة وتلك المدينة الكردية / التركية، التى تقع على تخوم الأناضول الجنوبية مقارنة فجة، وثانيهما أن دراسة الأمور الإدارية تختلف عن دراسة الثقافة ويصعب أن نستخدم النموذج الخاص بعلاقة القاضى والشهود فى «عينتاب» بالسلطان فى استانبول كمنهج لدراسة التطورات الثقافية.



والمأخذ الثانى يطرح فيه توصيفى المنهجى للطبقة الوسطى وثقافتها، ويعجب لاتباعى فى توصيف الطبقة لمفاهيم غربية، ولما أثبت من تأثير ثقافة الطبقة الوسطى على كتابات علماء النخبة المقربين من السلطة والملتفين حولها، وأن هذا التأثير امتد إلى المماليك. وأوضحت كيف أدى ذلك فى مرحلة تالية إلى بروز مثقفين من الطبقة الوسطى عبروا عن مقاومتهم للسلطة الحاكمة بأقلامهم، وليس بالمظاهرات الشعبية التى يغرق الجبرتى فى وصفها. ثم يتساءل صاحب العرض عن الأسباب التى حالت دون ثورة بورجوازية فى مصر على نحو ما حدث فى فرنسا.



هذا السؤال يكشف عن خطأ منهجى من حيث إنه يبحث عن أنماط يحاول تطبيقها فلكل مجتمع حركته التى يحددها واقعه الفعلى،صحيح أن الطبقة الوسطى عبرت عن نفسها من خلال ثقافتها – وعلى استحياء- منذ أواخر القرن السابع عشر، لكن عوامل – شرحتها بالكتاب- أجهضت دون شك حركة تلك الطبقة. ولا أود أن أشارك صاحب العرض هذا الأسلوب فى الحوار فأسأله أن يخبرنا لماذا وقعت الثورة الاشتراكية فى روسيا ثم فى الصين، ولم تقع فى بريطانيا حيث بلغت الرأسمالية المرحلة التى تنبأ فيها كارل ماركس بقيام الثورة الاشتراكية عندها ؟ أو لماذا وقع التحول الرأسمالى فى اليابان - مثلا - على يد النخبة العسكرية الحاكمة، ولم يقع على يد البورجوازية التجارية وحدها ؟ وهذه التساؤلات بعيدة عن موضوع بحثى وعن أهداف الكتاب.

والمأخذ الأخير، لم يخصنى صاحب العرض به وحدى، ولكنه جمع فيه كوكبة من المؤرخين الأفذاذ الذين يسعدنى ويشرفنى أن أحشر فى زمرتهم، وذلك عندما ذهب إلى أن من يرفضون «المركزية الأوروبية»، وينقضون دعوى ارتباط «الحداثة» بالتأثير الأوروبى، ويرفضون التسليم بأن مصر كانت غارقة فى الجهل حتى شع نور الحملة الفرنسية فنقلها من الظلمات إلى النور، وقعوا فى فخ دعاوى المركزية الأوروبية. تلك فرية أثبتت الدراسات الحديثة عن العصر العثمانى – ومن بينها دراستى – افتقارها إلى الصواب. إن ادعاء صاحب العرض أننا باستخدامنا المفاهيم المنهجية الغربية فى دراسة تاريخ بلادنا نرى أنفسنا بعيون الغرب، ادعاء باطل وظالم، لأن المنهج العلمى أداة تستخدم فى البحث شأنها شأن غيرها من الأدوات، وعندما استخدمناها خرجنا بنتائج تناقض ما ذهب إليه دعاة «المركزية الأوروبية». وإذا كان صاحب العرض يعتبر أن المجتمع المدنى سمة من سمات الحضارة الغربية أو الأوروبية فإنى لا أشاركه هذا الرأى، ويعضدنى فى ذلك كثير ممن يدرسون تاريخ هذه الفترة.



ويكفى أن أذكر هنا دراسات ناصر أحمد إبراهيم عن الحملة الفرنسية، وناصر عثمان عن الحياة الثقافية فى العصر العثمانى، وصبرى العدل عن علم الفلك فى مصر العثمانية وعن الطب أيضا، وغيرهم من شباب الباحثين الذين يعملون بجد وفى صمت منذ عشر سنوات تحت جناح سيمنار التاريخ العثمانى بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

الغريب هو تصور صاحب العرض للدولة العثمانية، وعلاقة الدولة بولاياتها وخاصة الولايات العربية. فهو يعتقد أن الدولة العثمانية دولة مركزية وأن الولايات العربية كان شأنها شأن الوحدات الإدارية فى الدولة المركزية، ولكن الأمر لم يكن كذلك، فالعثمانيون اكتفوا من الولايات العربية بحقوق السيادة بما يتبعها من علامات كجباية الخراج وتعيين القاضى باعتبار القضاء وإقامة العدل من تلك العلامات. وفيما عدا ذلك لم تتدخل السلطة العثمانية فى استانبول فى أمور الناس، فتركتهم يحيون الحياة التى اعتادوها فى مؤسساتهم الاجتماعية (الطوائف). ولم تتدخل فى حياتهم الثقافية من قريب أو بعيد، ولكن ذلك لا يعنى أن المراكز الثقافية كانت لا تتواصل مع بعضها البعض فى استانبول وغيرها من المراكز كالقاهرة ودمشق وحلب وتونس. ولذلك تمتعت المؤسسات الاجتماعية والثقافية بقدر كبير من الاستقلالية وحرية الحركة التى لا تتوافر فى الدولة المركزية بالمفهوم الاصطلاحى لها.

وفى مجال التجارة لا شك أن المصالح التجارية كانت أداة وصل بين مختلف حواضر الدولة وبعضها البعض، مما جعل لتطور الرأسمالية التجارية قسمات مشتركة هنا وهناك، ووفر الظروف الموضوعية لقيام «طبقة وسطى» كانت لها ثقافتها الخاصة بها وكان لها تأثيرها الكبير على ثقافة «النخبة» ممثلة فى الطبقة الحاكمة والعلماء. وتلك افتراضات بديهية، لكنها تحتاج إلى المزيد من البحث لواقع الحال فى الولايات العثمانية، لعلها تلفت أنظار الباحثين الجادين الذين لا ينظرون من فراغ، لكى يثروا الموضوع بالمزيد من الدراسات الأصيلة.

نللى حنا

قـــــــراءة ..

الصفـــر.. والقمـــة
أمـــــــة فـــى خـطـــــــر

حين كنت أحياناً أنتقد حال الصحافة المصرية أمام أستاذها وأستاذنا «هيكل»، كان يردُ دائماً بما معناه بأنك تظلمها حين تنظر إليها خارج السياق.. فهى فى النهاية ابنة شرعية للواقع: محيطها ومجتمعها. تذكرتُ قول «الأستاذ» هذه الأيام مرتين. مرة حين نقلت الأنباء خبر الصفر الذى كان من نصيب مصر فى التصويت لاختيار الدولة الأفريقية «المؤهلة» لاستضافة وتنظيم كأس العالم فى كرة القدم سنة ٢٠١٠، رغم الضجة الترويجية التى جعلت المصريين «يصدقون» أنهم الفائزون لا محالة. فكان أن جاءت النتيجة، رغم ما بدا فيها من مفاجآت «ابنةً شرعيةً لواقعها».

ومرة حين انتهت قمة العرب «التونسية» إلى ما انتهت إليه. رغم أن الأمر. كسابقه. لم يكن فيه كثيرٌ من المفاجأة.

والحاصل أنه لا الواقع المصرى «الذى تآكل فتراجعت المكانة» كان يؤهلُ لأن يحصلَ البلدُ «العريق» على أكثر مما حصل عليه فى التصويت «الدولى» فى جنيف. ولا الواقعُ العربى الذى تردى بادئاً انكساره فى سبعينيات القرن الماضى كان يبشر بأكثر مما انتهت إليه القمةُ «الخجول» فى تونس.

وبالضبط كما كانت نتائج القمة، بنتَ واقعها. كان الصفرُ نتاج الواقع. بدايةً من تآكل القيمة السياسية الذى أثر بدوره على القيمة التاريخية، ونهاية بأن ارتفاع الأرصفة فى شوارع القاهرة غير مطابق للمواصفات. مروراً بحال التعليم والديموقراطية والاقتصاد وحقوق الإنسان وإنتاجية العامل ومستوى خريج الجامعة... وكل ماهو معلومٌ أو مسكوتٌ عنه، أو بالأحرى مختفٍ خلف زحام الشعارات البراقة واللافتات والمانشتات المتبارية دوماً فى المبالغة وإهانة اللغة و«الأرقام».



«أمة فى خطر».. التعبير. وهذه المفارقةُ الأولى. أمريكى. وضعه الرئيس الأسبق رونالد ريجان قبل عقدينِ من الزمان على رأس تقرير مهم عكف على إعداده عشرات من الباحثين استشعروا خطراً أشارت إليه دراساتهم التربوية المقارنة والتى أفضت بهم «بأمانة مع النفس ومع الحقيقة» إلى أن الطالب فى أمريكا أصبح ترتيبه متخلفاً فى بعض المجالات عن قرينه اليابانى أو الأوروبى وحتى بعد عينات مجتهدة وجادة من طلاب الهند والصين.

«أمةٌ فى خطر».. لا نقصد هنا طبعاً أمريكا التى هى سيدة العالم «سلماً وحرباً» بلا منازع. بل الحديث عن أولئك الذين لا ينظرون بعيداً فيستشعرون الخطر قبل أن يجدوا نتائجه أمامهم. عن أمة العرب، ومصر فى القلب منها «بالتاريخ والجغرافيا».

كما اطمأن المصريون إلى لافتات وشعارات تتحدث عن جدارة أحفاد «الفراعنة» بتنظيم مونديال ٢٠١٠، استخرج المجتمعون فى تونس من معجمهم اللفظى الفخم مسمى «العهد والوفاق» ليضعوه على وثيقة اكتفوا بالتأشير عليها. وزارياً لا رئاسياً. بالأحرف الأولى، بعد نصف قرن من «توافقهم وتعاهدهم» على إقامة كيانهم الجماعى هذا. ووقفت صحفيةٌ فى المؤتمر الصحفى الختامى، لا لتسألَ كما هو حال تلك المؤتمرات، بل لتستحضرَ بنى تميم فى خطبةٍ شعريةٍ حماسية.

وواقعُ الحال أن المصوتين فى جنيف قبل أسابيع، لم يأبهوا بأمجاد الفراعنة «الذين كانوا». كما لن يعير المجتمعون فى جورجيا بعد أسابيعِ اهتماماً يُذكَر بديوان الحماسة، ولا بدقة ترجمة العنوان الكبير «العهد والوفاق». فالزبدُ. ونحن بحكم اللغة والدين أولُ العارفين. يذهبُ جفاءً.. وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ فى الأرض.

لأسباب يعودُ بعضُها إلى العجز، وبعضها إلى «العَجَز» بدأت قمةُ العرب بثلاثة عشر زعيماً من أصل واحدٍ وعشرين. وانتهت بثمانية. ولأسبابٍ «سيادية» يذهبُ العربُ (أو من سيذهب منهم) إلى قمة «السادة» فى جورجيا «فرادى» بعد أن غابت آلياتُ المتابعة التى طالبت بها مصر، وطالب بها الأمينُ العام. كما غابت ضماناتُ ألا تذوبَ جامعة العرب فى أمواج المتوسط التى تلوحُ عاليةً صاخبةً فى الأفق.

هل كان الأمين العام متجاوزاً فى جرأته حين تحدث بصدق غير مألوف بروتوكولياً عن أبعادِ الأزمة العربية؟ وهل كان «الأخ العقيد» رغم كل التحفظ، مبالغاً حين تساءل عن جدوى ما يجرى داخل القاعة مذكراً الموقعين بالأحرف الأولى على وثيقة العهد والوفاق، أنهم وقعوا بالأسماء الكاملة، وصدقت مؤسساتهم التشريعية قبل سنوات طويلة على «ميثاق الدفاع المشترك» الذى لم ينفذ أبداً.

هربَ العربُ من الاستحقاقات الصعبة، ومن ضغوط المطالبة بالإصلاح إلى لغتهم الثرية. فتخندقوا مطمئنين خلف «إعلان ووثيقتين» لا تختلف واقعياً فى معظم اللفظ والمعنى. وهى إن اختلفت فى «عنوان المرسل إليه»، إلا أن الموقعين أو المؤشرين بالأحرف الأولى أو بأسمائهم الكاملة، ليسوا بضامنين قطعاً. رغم جهد الصياغة. أن رسائلهم ستجد من يفضَ مظاريفها أصلاً. هذا إن وجدت «ساعى البريد».

وفى تونس عجز العرب. لأسباب مفهومة عديدة. عن تفعيل فضيحة أبوغريب قانونيا أو دولياً، فى حين نجحت آليات «الديموقراطية الغربية» من حرية للصحافة وضمان لتدفق المعلومات فى تفجير الفضيحة وتفعيلها بطريقة تكاد تؤثر على مجرى الأمور فى العراق. وكان ذلك لافتاً و«دالاً».



حلَم المصريون بأن تتجه إليهم أنظار العالم فى ٢٠١٠، ولم يكن ذلك بحكم الواقع ممكناً. ويحلم العرب بأن لا تتجه إليهم أنظار العالم الذى تجتمع أركان قمته فى جورجيا فى العاشر من هذا الشهر. ولن يكون ذلك أيضاً بحكم القوى الحاكمة ممكناً.

اعتقد المصريون أن بوسعهم التطلع بعيداً إلى ٢٠١٠. ولم يكن ذلك. بحكم القدرة والممكن. متاحاً. فكان الاعتقاد خاطئاً. وظن عربُ تونس أنه يكفيهم النظر إلى ما تحت أقدامهم، ولم يكن ذلك عند الآخرين وارداً. فكان الظن خادعاً.

ولأن الظن. فى الحالتين. «لا يغنى من الحق شيئاً».. باتت النتيجةُ مؤلمةً.. والأفقُ معتماً.

يبقى فى هامشٍ. ذى صلة. أن مصر والسعودية تنافستا يوماً على كرسى مدير اليونسكو، فذهب لليابان. وأن أربع دول عربية تنافست على المونديال، فذهب لجنوب أفريقيا.

ويبقى. بالضبط. كما فعل المصريون العائدون بخفى حنين من جنيف، فعل العرب العائدون من تونس. حيث امتدت أصابع الجميع إلى الجميع بالاتهام.

وبدا ملخصُ المشهد كله كالآتى: بعد أن تآكلَ ما كان للبعض من مكانة: تدفع وتدافع وتؤثر.. كانت تونس. وإليها. أخيراً. ذهب العرب، الذين حاولوا من البداية الهرب من قمتهم: تارة بلغطٍ مبكرٍ حول مكانها (اقرأ صحف يناير الماضي) ثم بتأجيلٍ مفاجئ لانعقادها. ثم بمحاولات شتى لإجهاضها.

بهدف «دعها تمر» لا أكثر، ذهبوا.. ثم عادوا هاربين أو غافلين عن السؤال الأهم: هل ينسلخ البعضُ توقياً لسيف الإصلاح فينزلقُ إلى الأوسطية، فتصبح تونس واقعياً آخر قمم العرب. أو آخر مشوارهم المنظور على الأقل؟!

يبدو السؤالُ الصادمُ لأول وهلة مستحيلاً. ولكن بعد بغداد، والرئيس الخارج من الحفرة، و«صفر مصر»، لم تعد العنقاءُ ذاتها من مستحيلات المشهد العربى.



«أمةٌ فى خطر».. ماذا بعد؟

لابد لمن يناصبون أمريكا (الصاحبة الأصلية للشعار) العداء، إن برفض إصلاحٍ يأتى عبر الأطلنطى، أو ببيانات تقنع من يتلوها أكثر ممن يسمعها، أن يدركوا أن ذراع أمريكا الطويلة لا تعنى فقط مدفعاً رشاشاً تدوى رصاصاته فى شوارع بغداد أو النجف، فوراء القوة والذراع الطويلة، عِلمٌ متقدمٌ وتكنولوجيا متطورة، والعدد الأكبر من جوائز نوبل فى الفيزياء والكيمياء والفسيولوجيا، وآليات (داخلية) للديمقراطية والمساواة واحترام القانون، وعشرات من الجامعات نرسل إليها أبناءنا لنضمن أنهم سيتعلمون علماً حقيقياً. ومصحات نفضل الاستشفاء فيها. وعلى من يهمه الأمر أن يعرف حق المعرفة أن هذا العلم وتلك الديمقراطية هما الساقان اللتان يقف عليهما «سيد العالم» وأنه بقدر ما نتغافل أو نتجاهل تلك الحقيقة الساطعة كالشمس، بقدر ما نفرط فى أمننا القومى. ليس الآن فقط، بل لعقود قادمة.

أما إذا ما اطمأننا إلى أننا أجدنا صياغة اللافتات فخمة المصطلحات ونمنا فى ظلالها. فلن نصحو قبل أن يكون الكلب على باب الكهف قد تحول إلى عظام.

ماذا بعد..

على المصريين. والعرب معهم. أن يقرأوا محاضرة محمد حسنين هيكل قبل حوالى العامين «المستقبل يبدأ الآن».

وعلى العرب. والمصريين من بينهم. أن يفعلوا (لا أن يقرأوا) مقررات قمتهم الأخيرة.

أيمـــن الصيـــاد

في مواجهة جميع الأعداء

من داخل حرب أمريكا على الارهاب

Against All Enemies

Inside America's War on Terror

رتشارد كلارك Richard A. Clarke

تعريب : وليد شحادة

لقد بَدَّدت إدارة بوش فرصة اجتثاث القاعدة.. فقد برزت «قاعدة» جديدة ونَمَت شوكتها وقويت وكان ذلك في جزء منه بسبب أسلوب عملنا أو تقاعسنا عن العمل. إنها عدو أشرس من التهديد الأوّل الذي واجهنا قبل 11 أيلول/ سبتمبر، وعدم قيامنا بما يجب علينا فِعْلُه لتحصين أمريكا من التهديد. لا أحد يملك صلاحيّة هذا الادّعاء أكثر من رتشارد كلارك، «الإمبراطور» السابق لمكافحة الارهاب في إدارتي بل كلنتون وجورج دبليو بوش، والذي يعرف عن أسامة بن لادن وعن القاعدة أكثر من أي شخص آخر في الولايات المتحدة، وكَرَّس عقدين من حياته المهنية لمصارعة الإرهاب. لقد خدم رتشارد كلارك في إدارات سبعة رؤساء وعمل داخل البيت الأبيض في إدارة جورج بوش (الأب)، وبل كلنتون، وجورج دبليو بوش، حتى استقال في آذار/ مارس 2003. إنّه خير من يعلم عن النجاح والفشل الخفيين في سنوات كلنتون، وخير من يعلم عن فشل الحيلولة دون وقوع 11 أيلول/ سبتمبر، وخير من يعلم ردّة فعل الرئيس بوش على الهجمة وما الذي حصل خلف مسرح الأحداث في الأيام التي تلت. وهو يعلم حقاً إن كان العراق يُهَدِّد الولايات المتحدة ويعلم إن كان هناك ثمن خفي لغزو العراق. إن أكثر ما يقلق في بَوْح كلارك هو انعدام اهتمام إدارة بوش في القاعدة قبل 11 ايلول/ سبتمبر. فمنذ اللحظة الأولى التي تولى فيها فريق بوش الإدارة وقرّروا إبقاء كلارك في منصبه «إمبراطور» مكافحة الإرهاب، وما برح كلارك يحاول إقناعهم لأخذ القاعدة على محمل الجد كما فَعَل بل كلنتون من قبل. وقد حُرِمَ شهوراً من فرصة شرح رأيه إلى بوش، واصطدم مع مسؤولين رئيسيين في الإدارة أعطوه انطباعاً أنهم لم يسمعوا قط عن القاعدة من قبل؛ فقد كانوا يركّزون بمثابرة لا تهدأ على العراق؛ ودَعَموا نظريّة مؤامرة عارية عن الصحّة عن تورّط صدّام في هجوم سابق على الولايات المتحدة. كان كلارك مديراً لأزمة الأمة في 11 ايلول / سبتمبر، وأدار مركز الأزمات في البيت الأبيض - إنّه مشهد يوصف في هذا الكتاب لأوّل مَرّة ــ ثم راقب بفزع مجرى الأحداث. فبعد تجاهل جورج بوش للمخطط القائمة لمهاجمة القاعدة عند استلامه الإدارة، كانت قراراته كارثة عندما أَوْلَى الأمرَ اهتمامه فيما بعد. إن الكلام الصادر عن رجل عُرِفَ عنه أنه الرجل الصلب في وجه الارهاب في كتابه **في مواجهة جميع الأعداء** قد جاء تأريخاً قوياً لعقدين من زماننا حافلين بمواجهة الإرهاب واتهاماً صارخاً للإدارة القائمة الآن. رتشارد كلارك: عَيَّنه الرئيس كلنتون كمنسق قومي أوّل للأمن، وحماية البنية التحتية، ومواجهة الإرهاب في أيار/ مايو 1998 وبقي في موقعه تحت إدارة جورج دبليو بوش وبقي حتى آذار/مارس 2003 عضواً تنفيذياً رئيسياً في الخدمات الأمنية الاتحادية. بدأ عمله سنة 1973 في مكتب وزير الدفاع مُحَلِّلاً لشؤون السلاح النووي والأمن الأوروبي. وفي إدارة ريغان كان نائب وزير الخارجية المساعد لشؤون الاستخبارات. وفي إدارة بوش الأول كان مساعداً لوزير الخارجية للشؤون العسكرية ــ السياسية.

مقطع من الكتاب: ... قَطَّب وُلفوڤتز واضطرب... «أنا لا أعرف لماذا نبدأ بالحديث عن هذا الرجل الواحد بن لادن». أجبته قائلاً: «إننا نتحدّث عن شبكة إرهابية اسمها القاعدة وقد صادف أن قادها بن لادن، ونحن إنما نتحدث عن الشبكة لأنها هي، وهي وحدها، تشكل تهديداً حقيقياً ومباشراً للولايات المتحدة. التفت وُلفوڤتز إليّ وقال: «لقد أعطيت بن لادن أهميّة كبرى. إنه لا يستطيع أن يفعل كل هذا مثل هجوم سنة 1993 على نيويورك، لا يمكنه أن يفعل ذلك دون دولة تدعمه. إن فشل مكتب التحقيقات الفدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية في إيجاد الصلة لا يعني أنها غير موجودة». لم أكد أصدّق ما أسمع، لقد كان ولفوڤتز. يطلق نظرية لوري ملروي Laurie Mylroie التي تقول إن العراق كان وراء الشاحنة المُفَخَّخة سنة 1993 في مركز التجارة العالمي، تلك النظرية التي تمّ تَحَرِّيها سنوات طويلة فوجدناها باطلة بكاملها.

❖ **ثمن النسخة (مجلد) $14.50 ❖ ثمن النسخة (غلاف) $12**



إنرون: الأحلام الجوفاء

جشع شركة إنرون وأنانيتها وزوالها

Pipe Dreams

Greed, Ego, and the Death of Enron

روبرْت برايس Robert Bryce

تعريب : مروان أبو جيب

إنرون Enron كلمة أصبحت مرادفة لاحتيال سوق الأوراق المالية وول ستريت Wall Street وطمعها وتجاوزاتها، غير أن الأمر لم يكن كذلك على الدوام، إذ كانت إنرون ذات يوم شركة راسخة الجذور تدرّ أرباحاً وتمتلك أصولاً من أحسن الأصول في عالم الطاقة، لكن التغيير نزل بساحتها في أواخر تسعينيات القرن العشرين. لا شك أنكم سمعتم عن بعض الصفقات الالتفافية والممارسات المحاسبية الشريرة التي طلعت علينا بها شركة إنرون، لكن الذي لم يصل إليه التفسير هو لماذا؟ لماذا تفجّر البركان من داخلها بصورة مفاجئة بعد أن كانت شركة مزدهرة مُبدعة تمتلك سيولة نقدية راسخة؟ الجواب هو أن الممارسات السيئة في شركات الأعمال تنطلق بمبادرة من الإنسان، كما كشف عن ذلك المحرر الصحفي القادم من تكساس والمتخصص بشؤون الشركات روبيرت برايس في كتابه الواضح والممتع. **الأحلام الجوفاء** كتاب غير تقليدي لا يصيبكم بالضجر في سعيه وراء الشركات، فهو ثرثرة تحليلية فكاهية تدور حول السبب الذي أودى بشركة إنرون إلى الهاوية، وتتابع مجرى تحولها من شركة محلية صغيرة تعمل في مجال أنابيب الغاز إلى شركة عملاقة متوحشة في مجال الطاقة... ثم يتابع الكتاب مسيرتها خطوة بعد خطوة وقراراً بعد قرار وَزيجةً إثر زيجة، وكيف أن الفساد دبّ في أرباب القيادة فيها. يسرد كتاب الأحلام الجوفاء على مسامعنا القصة الخبيثة للجشع والجنس والاحتيال التي قضت على سابع أكبر الشركات في أمريكا من خلال مقابلات مع عدد فاق مئتين من عمال سبق لهم أن عملوا لدى شركة إنرون أو ما زالوا يعملون لديها، وكذلك مع محللين من سوق الأوراق المالية وول ستريت Wall Street، ومن خلال عشرات من محفوظات الشركة لدى هيئة مراقبة أسواق الأوراق المالية، ويتناول بين دفتيه أوغاد الشركة الرئيسيين، ومنهم كين ليه Ken Lay وَجيف سكيلينغ Jeff Skilling وَأندرو فاستو Andrew Fastow وَلو باي Lou Pai الكتوم صاحب البراعة التجارية العظيمة الذي باع أكبر عدد من الأسهم - بلغت قيمتها مئتين وسبعين مليون دولار - وتفوّق بذلك على غيره من مديري شركة إنرون الكبار. هناك **أيضاً** سرد للصورة المدمّرة التي طلعت علينا بها ريبيكا مارك Rebecca Mark اللاعبة التي أحاطت بها الجهالة الجُهْلاء في ملحمة إنرون البطولية وحَمَّلت المستثمرين تكاليف بلغت مليارَي دولار أمريكي بسبب صفقاتها السيئة في الهند والأعمال التي قامت بها في مجال المياه. الأحلام الجوفاء كتاب - مليء بتفسيرات الخدع المالية في شركة إنرون والتي لا يسهل فهمها إلا بمزيد من الصدمات - يتحفنا بتفسير للطريقة التي دمَّرت بها الشركة ذاتها من خلال تجاهل القواعد الأساسية لإدارة الأعمال وإنفاق الأموال كما لو كانت تصكها صكاً (ولقد كانت في بعض الأحيان تفعل ذلك). هل علمتم أن شركة إنرون ابتاعت قبل أقل من تسعة أشهر على إفلاسها طائرة نفاثة من نوع غلفستريم Gulfstream جديدة لم يسبق لأحد أن استخدمها ودفعت فيها 41,6 مليون دولار أمريكي؟ كما أن أحد مديري الشركة الكبار اشترى دراجة نارية بمبلغ ثلاثين ألف دولار أمريكي دُفعت بالطبع من أموال الشركة لِيُزيّن بها مكتبه الجديد. وإذا رغبتم في فهم موجة الفضائح المالية الجديدة التي تدمّر مجموعة أسهمكم - ناهيكم عن الاقتصاد الأمريكي وحياة الناس ومعيشتهم - فعليكم أن تدركوا الأحداث التي وقعت في شركة إنرون. إن برايس Bryce يربط التقارير الخاصة بها مع العاطفة والطرافة حتى يحكي لنا الحكاية ويخرج بنتيجة هي عدم قدرتكم على ترك قراءة الكتاب عند البدء به إمعاناً في ذات الاسلوب الشيّق الذي اتّسم به كتاب **البرابرة عند البوابة** Barbarians at the Gate وكتاب **الحفلة الراقصة التي أقامتها الحيوانات المفترسة** The Predators Ball .

❖ **ثمن النسخة (مجلد) $13.50 ❖ ثمن النسخة (غلاف) $10.50**